سلسلة مشاهير الخلفاء
١

مشاهير
خلفاء بني أميّة

عدنان حسن صالح



الطبعة الأولى

٢٠١٠م /١٤٣١هـ

مؤسسة الفرسان للنشر

الأردن – عمان – العبدلي

هاتف وفاكس ٥٦٠٧٣٨٦ ٦ ٠٠٩٦٢

صندوق بريد ٢٤٠٦٦٤ عمان ١١١٢٤ الأردن

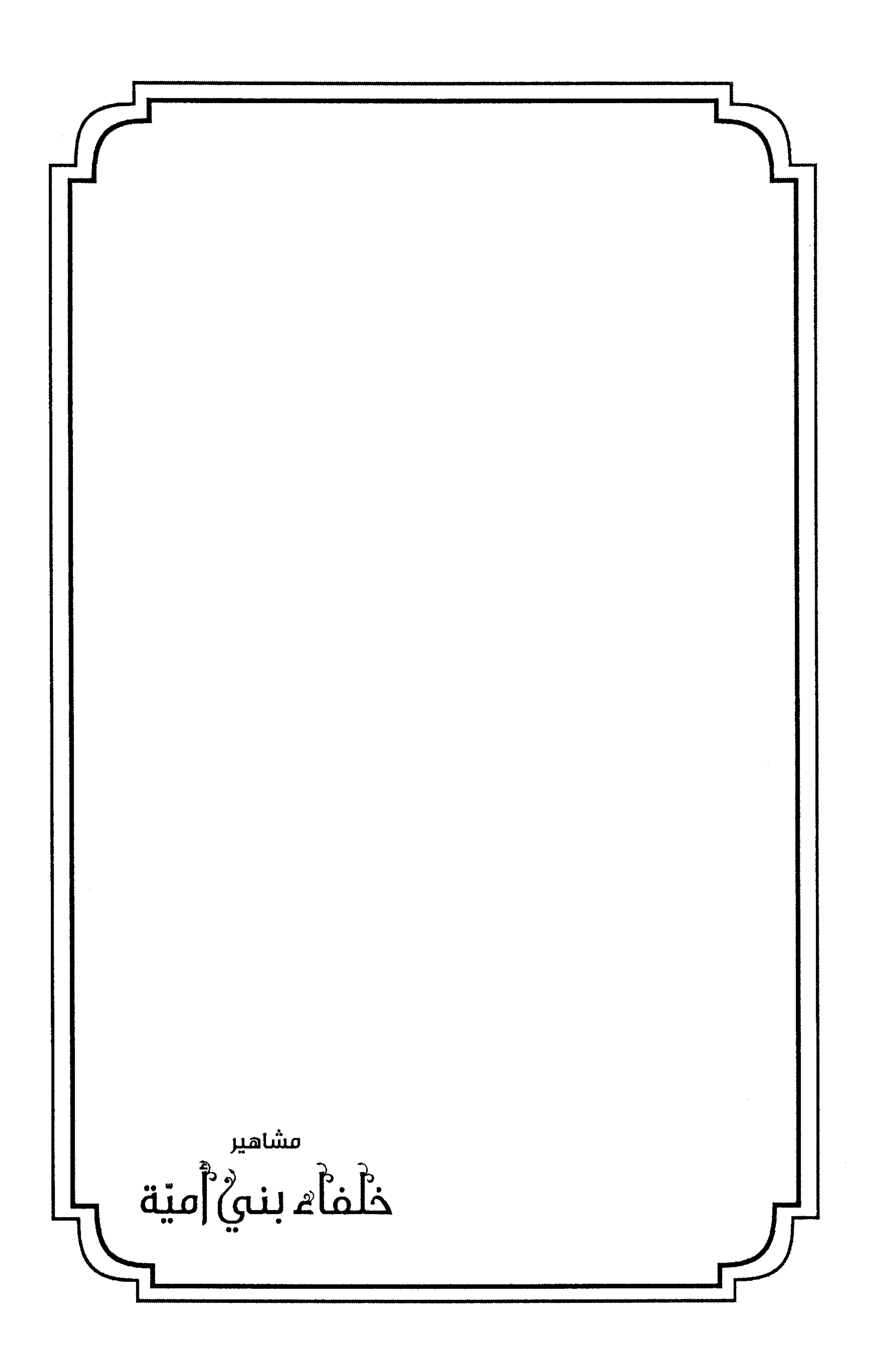
Al Fursan Est. for Publishing
Jordan – Amman – Abdaly
Tel-Fax: +962 6 5607386
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan
E-mail: Al Fursan @ index.com.jo



مؤسسة الفرسان للنشر

ISBN: 978-9957-441-12-8 ردمك

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: ٢٠٠٩/٦/٢٨٠٧


مشاهير
خلفاء بني أميّة



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٨٠٧/٦/٢٠٠٩)

٩٥٦.٠٤
صالح، عدنان حسن
مشاهير خلفاء بني أمية /
عدنان حسن صالح – عمان: مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.

(   ) ص
ر. إ. ٢٨٠٧٨٠/٦/٢٠٠٩

الواصفات: الأمويين ٦٦٠-٧٥٠ / التاريخ الإسلامي /

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله، ورفع راية التوحيد . أهدي هذا الجهد المتواضع، عن خلفاء رفعوا اسم الإسلام عالياً أمام العالمين، سائلاً الله عز وجل أن يكون عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ونبراساً لكل غيور على هذا الدين الحنيف .

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على خير البشر أجمعين محمد بن عبدالله ﷺ ، منقذ البشرية من الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى نور الإسلام. وسلام الله على الخلفاء الراشدين الذين بذلوا غاية جهدهم لنشر تعاليم هذا الدين الحنيف، وسلام الله على خلفاء الإسلام العِظام الذين كانت لهم اليد الطولى في نشر هذا الدين العظيم، في المشارق والمغارب وضحوا بالغالي والنفيس، حتى وصل ديننا الإسلامي إلى إندونيسيا وبلاد السند وما وراء النهر في الناحية الشرقية من العالم الإسلامي، واجتازوا الشمال الإفريقي وسيطروا على بلاد الأندلس الخضراء (إسبانيا والبرتغال) ووصلوا في فتوحهم إلى جنوب فرنسا واقتربوا من عاصمتها باريس.

نستعرض في هذا الكتاب بشيء من التفصيل عن عدد من خلفاء بني أمية في المشرق والأندلس، الذين كان لهم باع كبير في الحث على الجهاد ونشر دعوة الإسلام ونور العلم، في الوقت الذي كانت تغض فيه أوروبا في دياجير الجهل والظلم، بينما كان العالم الإسلامي عالم النور والمعرفة والحضارة، فقد قَدِمَ طلبة العلم من أوروبا لينهلوا من علم ومعارف المسلمين في الأندلس، في جامعاتها ومعاهدها في قرطبة وغرناطة وطليطلة وإشبيلية. كانت الدولة الأموية بحق هي دولة الفتوح العظمى بعد الخلفاء الراشدين وفي عهد العِظام والمشاهير من خلفائهم وصل المسلمون فاتحين إلى بلاد السند والهند وما وراء نهري جيحون وسيحون. كما أكملوا فتح الشمال الإفريقي حتى وصل عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً قائلاً: لو أعلم أن هناك بلاداً خلفك لخضتك لنشر هذا

الدين العظيم، كما فتحوا بلاد الوندال (الأندلس) واجتازوا جبال البرانيس ووصلوا إلى فرنسا، ولو كُتب لهم النصر في معركة توروبواتيه (بلاط الشهداء)، لعمّ الإسلام كل أوروبا ولما تأخر المسلمون في فتح القسطنطينية للعهد العثماني سنة ١٤٥٣م في خلافة بطل الإسلام والمسلمين محمد الثاني (الفاتح).

ورغم تحول الحكم في العهد الأموي، من الشورى إلى الوراثة إلا أن تعاليم الإسلام كانت في المقدمة، وظهر خلفاء عِظام نشروا العدل، وخلّصوا الشعوب المقهورة من حكامها الطغاة الظالمين. ومن هؤلاء الخلفاء العظام العادلين الصالحين الأتقياء أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز الذي شهد عهده نشر العدل والمساواة ورد المظالم إلى أصحابها، وتوليه العلماء والصالحين للمراكز القيادية في الدولة، والذي حقق مبدأ الشورى على أوسع أبوابه، حتى عمّ الأمن والاستقرار رغم قِصَر مدة حكمه ولم يوجد في دولته فقير حتى أنه عندما أراد توزيع الزكاة لم يجد من يأخذها رغم اتساع دولة الخلافة، وكان بيت المال عامراً بالخير، كما رفع ﷺ الجزية عمن أسلم من أهل الذمة. وفي عهده تم الاهتمام بالسنّة المطهرة، وتدوين أحاديث رسول الله ﷺ بعد تمحيصها وتدقيقها على يد علماء عاملين مخلصين لهذا الدين.

هذا، ويضم هذا الكتاب بين صفحاته عدداً من مشاهير خلفاء بني أمية في المشرق وفي الأندلس بعد قيام دولة بني العباس، حيث أعاد الأمير عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) الحكم للأمويين في الأندلس بعد قضاء بني العباس على حكم الأمويين في المشرق.

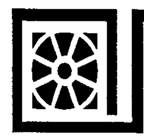
وقد رجعت في جمع هذه المعلومات وإعدادها إلى عدد من المراجع الأصيلة التي تتحرى الدقة وتبتعد عن الحزبية والتبعية ليكون فيه النفع لطلبة العلم من المسلمين المتشوقين لمعرفة تاريخهم الحقيقي، البعيد عن المغالاة والتشيع، وإبراز جانب الفتوحات والتحدي للأعداء في المشرق والمغرب والشمال، ونشر راية الإسلام في ربوع العالمين، وتعريب الدواوين ونشر لغة القرآن العربية في البلاد المفتوحة ليتعلموا قراءة القرآن. فظهر علماء عظام من الأعاجم بعد إتقانهم اللغة العربية وخاصة في بلاد فارس وما وراء

النهر من أمثال الطبري وعلماء الأحاديث البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من الأفذاذ.

والله أسأل أن يبارك في عملنا هذا، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم لا نريد سمعة ولا شهرة وإنما إبراز الحقائق والتعرف على تاريخ الإسلام الحقيقي وكشف الدسائس التي حاول دسها بعض المغرضين، لتشويه سيرة الإسلام وخلفائه رغم بعض الهنات منهم وهم أناس يصيبون ويخطئون.

أسأله تعالى أن يعصمنا من الخطأ وأن ينير لنا سبيل الهدى، وصلى الله على معلم البشرية ونورها الساطع في العالمين محمد ﷺ.

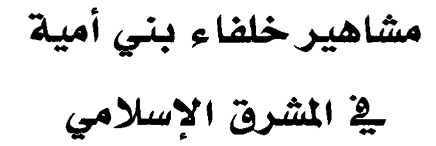
عدنان حسن صالح







الجزء الأول



مشاهير خلفاء بني أمية
في المشرق الإسلامي

١- معاوية بن أبي سفيان.
٢- عبدالملك بن مروان.
٣- الوليد بن عبدالملك بن مروان.
٤- سليمان بن عبدالملك بن مروان.
٥- عمر بن عبدالعزيز بن مروان.
٦- هشام بن عبدالملك بن مروان.







تمهيد

الجذور التاريخية للأسرة الأموية

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي بنو أمية مع بني هاشم، كان بنو عبد مناف يتمتعون بمركز الزعامة في مكة، اقتسم بنو عبد مناف بن قصي السلطة في مكة مع أبناء عمومتهم عبد الدار بن قصي، الذي فضّله والده على سائر أبنائه رغم شرفهم عليه، فجعل له الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، وتفرقت قريش بين فريقين، فريق عبد مناف وفريق عبد الدار ثم تصالحا على أن يُعطى بنو عبد مناف السقاية والرفادة وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار.

ولي الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف لأن أخاه عبد شمس كان تاجراً، كثير السفر وكان مُقلاً «ذو ولد» بينما كان هاشم موسراً، وبهذا نرى أن السلطة في مكة كانت عبارة عن مراكز نفوذ، تقررها الأهمية الاقتصادية، دون أن يكون لأسرة ما أو زعيم ما السيادة الكاملة على غرار ما كان لجدّهم قصي بن كلاب زعيم قريش الأول.

اشترك بنو عبد مناف في تنظيم التجارة بين مكة وما حولها فكانوا يداً واحدة تتحرك في تفاهم وتآلف.

يذكر ابن خلدون أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم، وأوفر رجالاً والعزة كما هو معروف قديماً إنما هي بالكثرة، هذا وقد برز نجم «أبو سفيان بن حرب» بعد موت عبدالمطلب بن هاشم ولما سُئل معاوية بن أبي سفيان ﷺ عن العلاقة بين بني أمية وبني

هاشم قال: «كنا أكثر أشرافاً وكانوا هم أشرف، وكان فيهم عبدالمطلب ولم يكن فينا مثله».

كان عبدالمطلب بن هاشم زعيم الهاشميين في عصره وكان صديقاً حميماً لحرب بن أمية زعيم الأمويين، كما كان العباس بن عبدالمطلب بن هاشم صديقاً حميماً لأبي سفيان بن حرب بن أمية، وتجلى ذلك بوضوح من موقف العباس من إسلام أبي سفيان عند فتح مكة سنة ٨هـ أمام الرسول ﷺ .

هذا، ولم يكن بنو هاشم وبنو أمية من البغضاء والعداوة والخلاف كما نسجها بينهما أعداء الإسلام فهم أبناء عمومة، فبنو هاشم وبنو أمية أبناء أب واحد وأحفاد جد واحد، استقوا جميعاً من عين واحدة ومنبع صافٍ واحد وأخذوا الثمار من دين الله الحنيف الذي جاء به رسول الإنسانية الصادق الأمين محمد بن عبدالله ﷺ ، المعلِّم والمربّي وخاتم الأنبياء والمرسلين.

الفصل الأول

معاوية بن أبي سفيان

المؤسس الأول للدولة الأموية

اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

اسمه معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وُلد على الأرجح قبل البعثة بخمس سنوات كما ورد في الإصابة ٦/ ١٥١.

كان طويل القامة، أبيضاً جميلاً ومهيباً، رأى والده فيه منذ طفولته ملامح النبوغ ورأى أنه سيكون له مستقبل وأنه سيسود قومه.

كان والده «أبو سفيان» من عتاة الجاهلية الذين حاربوا الإسلام ثم هداه الله إلى الإسلام قبيل فتح مكة بقليل، وأكرمه الرسول ﷺ عند فتح مكة عندما قال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». وقد حسن إسلام أبي سفيان، وقدم خدمات جليلة للإسلام، فكان مع رسول الله ﷺ في حنين وشاركه في حصار الطائف وفَقَدَ إحدى عينيه وفَقَدَ الثانية يوم اليرموك.

ووالدة معاوية هي هند بنت عتبة بن ربيعة، أسلمت يوم الفتح بعد إسلام زوجها أبي سفيان وبايعت الرسول ﷺ كغيرها، ولما عادت لمنزلها فكسرت صنمها وهي تقول: «كنت منك في غرور» وتوفيت رضي الله عنها في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ .

ومن إخوان معاوية رضي الله عنه وعنهم: يزيد بن أبي سفيان، عتبة بن أبي سفيان، عنبسة بن أبي سفيان. ومن أخواته: أم حبيبة (زوج رسول الله ﷺ) واسمها رحلة، وأم الحكم بنت أبي سفيان، عزّة بنت أبي سفيان، أميمة بنت أبي سفيان.

أما زوجات معاوية بن أبي سفيان:

١- ميسون بنت بحدل الكلبية، والدة يزيد، وكان معاوية يحبها ويحترمها وطلقها بناءً على رغبتها لأنها تحب حياة البادية وتزهد في حياة القصور وهي التي أنشدت:

لبيـــــت تخفـــــق الأرواح فيـــــه   أحـــــبّ إليّ مــــن قـــصر منيـــف

وكلـــــبٌ ينـــبح الطـــرّاق عنـــي   أحـــــبُّ إليّ مــــن قـــــط أليـــــف

ولــــبس عبـــاءة وتقـــرُّ عينـــي   أحـــبُّ إليّ مـــن لـــبس الـــشفوف

أخذت معها ابنها يزيد فنشأ في البرية فصيحاً.

٢- فاختة بنت قرظة، ولدت له عبدالرحمن وعبدالله.

٣- كنود بنت قرظة، أخت فاختة تزوجها بعد وفاة فاختة.

٤- نائلة بنت عمارة الكلبية وقد طلقها.

ومن بناته: رملة، هند، عائشة، عاتكة، صفية.

إسلام معاوية وشيء من فضائله :

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد رضي الله عنهم غالباً سنة ٨ هـ يوم الفتح، شهد معاوية مع الرسول ﷺ يوم حنين وأعطاه مائة من الإبل، وأربعين أوقية من الذهب. ذكر العلماء فضائل كثيرة لمعاوية منها:

- كان من الذين أنزل الله عليهم سكينته يوم حنين مع النبي وممن وعدهم الله الحسنى. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠]، أنه أنفق في حنين والطائف وقاتل فيهما.

- دعا له ﷺ فقال: «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهدِ به»[1]، كما قال ﷺ في حقه: «اللهم علّم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب» وقال ﷺ : «أول جيش من أمتي يغزو البحر قد أوجبوا» وفي هذا منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر[2].

- نال ﷺ شرف الرواية عن رسول الله ﷺ، وذلك بملازمته له ﷺ بعد فتح مكة وكان عمره عند فتح مكة ١٨ عاماً وقيل إنه روى عن الرسول ﷺ ١٦٣ حديثاً.

الأمويون ومعاوية في خلافة أبي بكر الصديق :

حرص بنو أمية على تعويض ما فاتهم في خدمة الإسلام والمسلمين ليلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام، فساهموا في الحروب على الجبهة الشامية وخاصة لأن لبني أمية صلات قديمة مع القبائل العربية المقيمة في بلاد الشام أيام الحكم البيزنطي في رحلتي الشتاء (لليمن) والصيف (للشام) وكان بنو أمية بزعامة «أبو سفيان» أبرز من ساهموا في النشاط التجاري وكانت مشاركتهم في حروب الفتح مبكرة فشارك الوليد بن عقبة بن معيط مع خالد بن الوليد في فتوح العراق الأولى، وشهد معه قتل القائد الفارسي هرمز وأرسله خالد بالغنائم وبشارة الفتح للخليفة «أبو بكر».

كما كان أول لواء عقده «أبو بكر» في حروب الشام لخالد بن سعيد بن العاص الأموي ثم عزله، وولى مكانه يزيد بن أبي سفيان الأموي أيضاً وكان جيش يزيد أول جيش كبير وجهه أبو بكر إلى الشام، وكان في وداعه ماشياً. كما خرج للجهاد في بلاد الشام أبو سفيان وهو شيخ كبير ولم تُفتح كورة بالشام إلا ووجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص شهيداً.

وقبل معركة اليرموك عقد قادة المسلمين مؤتمراً للحرب في الجولان، فمرّ بهم أبو سفيان فقال لهم: «ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم ويتذاكرون ما يكيدون به عدوهم ولا يحضرونني» فاشترك معهم في مشورتهم فأفسحوا

---

(١) الشريعة ٥/ ٢٤٣٧ بإسناد صحيح.

(٢) فتح الباري، ٦/ ١٢٠.

له فأسهم معهم في رسم خطة القتال، كما تم تعيينه في اليرموك في مهمة «القاص» وتوليته هذا المنصب المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه لهذا الدين العظيم.

الأمويون ومعاوية في خلافة عمر بن الخطاب:

سار عمر بن الخطاب ﷺ على نهج أبي بكر الصديق في استعمال بني أمية والثقة بهم، رغم صرامة عمر وحزمه وتحريه أمر ولاته وعُمّاله ومحاسبتهم، أبقى عمر يزيد بن أبي سفيان والياً على دمشق وكان معه أخوه معاوية، الذي بدا نجمه في الظهور في ميدان العمل السياسي والإداري في عهد الخليفة عمر، فقد ولاّه عمر فتح قيسارية سنة ١٥ هـ وكانت اختباراً له في ميدان الواقع الذي تجاوزه بكل نجاح حين سار بجيش أعدّه له أخوه يزيد، وكانت قيسارية مدينة محصنة، حاصرها معاوية طويلاً واجتهد في القتال حتى فتح الله على يديه، ثم بعث بالفتح والأخماس إلى الخليفة عمر حيث أثبت بجدارة حُسن قيادته مما أكسبه ثقة الجميع، فأُسند إليه مهمة فتح سواحل الشام فأبلى بلاءً حسناً وبعد نجاحه في فتح سواحل دمشق ولاّه أمير المؤمنين عمر ولاية الأردن سنة ١٧ هـ.

بعد وفاة يزيد بن أبي سفيان في طاعون عمواس سنة ١٨هـ، ولّى أمير المؤمنين عمر أخاه معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء[(١)]. وكان لتوليته أثر واضح في نفسية والديه أبو سفيان وهند بنت عتبة، فأوصياه بالطاعة وعدم المخالفة.

حين قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الشام، استقبله معاوية بموكب عظيم، أنكره عليه عمر فقال: أأنت صاحب الموكب العظيم؟ قال معاوية: نعم، قال: ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك. قال: هو ما بلغك من ذلك. قال: ولِمَ تفعل ذلك؟ لقد هممت أن آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز. فقال معاوية: يا أمير المؤمنين إنا بأرض، جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب أن نُظهر من عز السلطان ما يكون فيه عزّ الإسلام وأهله ويرهبهم، فإن أمرتني فعلت وإن نهيتني انتهيت. فقال له أمير المؤمنين عمر: ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس (أي ما بين عقد الأصابع

---

(١) الطبقات الكبرى، ٧/ ٤٠٦، عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص٦١.

من داخل) لئن كان ما قلت حقاً، إنه لرأي أريب، وإن كان باطلاً إنه لخديعة أديب[1]. قال: فمرني يا أمير المؤمنين. قال: لا آمرك ولا أنهاك، وجواب معاوية لأمير المؤمنين يدل على ما يتمتع به معاوية من خبرة وسياسة عالية ومعرفة واعية بأحوال الأمم ودراية كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمني للدولة التي يديرها، ومن أجل ذلك رضي عمر من سياسة معاوية رغم مخالفتها لسياسة عمر في اهتمامه بأحوال الرعية، لكنه الواقع الذي يُملي التصرف الحكيم.

كان عمر إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب، لأن معاوية كان في إمارته بالشام في أبّهة الملك، لأنه يرى أنه على ثغر في اتجاه العدو يحتاج إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد وإظهار المُلك والسلطان[2].

إن ثقة عمر بمعاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك[3]، برهن معاوية لعمر عمق فهمه لضرورات السياسة، وتغير البيئة والمجتمع. ومهما قيل فقد عظمت مكانة معاوية عند عمر رضي الله عهما فولاّه أهم أقاليم دولته وزاد في ولايته ولم يعزله، معجباً بذكائه وإدارته ولا يكتم إعجابه به بذلك فقد قال يوماً لجلسائه «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية»[4].

كان لمعاوية في خلافة عمر بن الخطاب جهوداً واضحة على الساحة الشامية منها:

أ- سنّ نظام الصوائف والشواتي (غزو بلاد الروم في الصيف وفي الشتاء): فَقَدَ الروم على يد جنود الإسلام بعد هزائم متتالية، الشام ومصر بكل ما تمثلانه من أهمية اقتصادية وسياسية وعسكرية، ورغم ذلك استمرت هجمات الروم على الشام من خلال الدروب الجبلية. وفي رحلة أمير المؤمنين عمر وجولته في الشام سنة ١٦هـ سمى الصوائف والشواتي وسدّ فروج الشام ومسالكها، وكانت استجابة معاوية فوق التحدي

---

(١) البداية والنهاية، ١١/ ٤١٦.

(٢) ابن خلدون إسلامياً، عماد الله خليل، ص٧٨.

(٣) الدولة الإسلامية، حمدي شاهين، ص١٥٤.

(٤) تاريخ الطبري، ٥/ ٣٣٠.

حيث نقل المعركة إلى بلاد العدو، فطور وسائل الدفاع واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقي الصدمة والإنذار واستخدامها كمراكز انطلاق للهجمات المضادة، قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف ومنها صائفة سنة ٢٢هـ، حيث دخل معاوية بلاد الروم في عشرة آلاف مجاهد وصائفة سنة ٢٣هـ التي وصل فيها إلى عمورية وكان معه من الصحابة عبادة بن الصامت وأبو أيوب الأنصاري وأبو ذر الغفاري وشداد ابن أوس.

ب- **تكوين أسطول إسلامي في البحر**: الهدف منه حماية سواحل الشام ومصر، ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطي في البحر الأبيض المتوسط.

استطاعت حملات الصوائف والشواتي أن تضع حداً للتهديدات البرية، لكن المدن الساحلية من إنطاكيا إلى الإسكندرية بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية، لذا بدأ معاوية التخطيط لانتزاع السيادة على البحر من البيزنطيين، وتم له ذلك في خلافة عثمان بن عفان.

معاوية في خلافة عثمان بن عفان :

أصبح معاوية في خلافة عثمان هو الوالي المطلق لبلاد الشام، بل كان أقوى ولاته وأكثرهم نفوذاً، استشهد عثمان ومعاوية لا يزال والياً على الشام ومتاخمة الشام لأرض الروم جاهد معاوية في تلك النواحي وتم له:

أ- **فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري**: هو من أبرز أمراء الجهاد في عهد ولاية معاوية على الشام، غزا مع من وصله من جند الكوفة بقيادة سليمان بن ربيعة أراضي أرمينيا وأذربيجان بعد أن أباد حبيب جيوشاً بأكملها للعدو وفتح مدناً وحصوناً كثيرة صلحاً أو عنوة، كما افتتح شمشاط وملطية من أراضي الجزيرة العراقية من أرض الروم مما أزعج الروم.

ب- **غزوات معاوية في عهد عثمان براً وبحراً**: قام معاوية سنة ٢٥هـ بجولة عسكرية على الثغور الشامية فوجد الحصون بين إنطاكية وطرسوس خالية، فوضع فيها

جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى عاد من غزواته، كما وضع جماعة من أهل الشام والجزيرة في ملطية لتكون طريقاً آمناً لحملات الصوائف، كما بنى مدينة مرعش وأسكنها جنده وقاد بنفسه سنة ٣٢هـ غزوة توغل فيها حتى وصل مضيق القسطنطينية.

أما في البحر، فألحّ معاوية على عثمان بركوب البحر فردّ عليه عثمان قائلاً: «أنْ قد شهدت ما ردّ عليك عمر حين استأذنته في غزو البحر»، ثم كتب إليه معاوية ثانية يهوّن عليه ركوب البحر إلى قبرص، فكتب إليه: فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا، كما اشترط عليه عثمان ألا ينتخب الناس ولا يقرع بينهم، خيّرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص وكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل عكا ليكون ركوب المسلمين منها إلى قبرص.

أعدّ معاوية المراكب اللازمة لحمل جيشه، وحمل معه زوجه فاختة بنت قرظة، وكان معه من الصحابة عبادة بن الصامت وامرأته أم حرام بنت ملحان والتي صُرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت.

خرج مع معاوية من ميناء عكا جيش عظيم هانت في أعينهم الدنيا بما فيها. فلم يعبأوا بنعيمها فقد تربوا على أن ما عند الله خير وأبقى وأن الله سبحانه قد اصطفاهم لنصرة دينه وإقامة العدل ونشر الفضيلة والعمل على إظهار دين الله في الأرض، واعتقادهم أن الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله ومن أجل هذا تسابقوا للخروج مع معاوية وتسابقوا لركوب السفن. ولعل حديث أم حرام قد ألمّ بخواطرهم، فدفعهم للخروج والغزو في سبيل الله تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ لأم حرام «ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة»[1] وطلبت من الرسول ﷺ: «أدع الله أن يجعلني منهم» فدعا لها.

---

(١) البخاري، ٢٨٧٧.

كان خروجهم بعد انتهاء الشتاء سنة ٢٨هـ/ ٦٤٩م، وأرسلوا لأهل جزيرة قبرص أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم ولكنهم أرادوا دعوتهم لدين الله، ولتأمين حدود دولة الإسلام بالشام لأن البيزنطيين كانوا يتخذون من جزيرتهم محطة يستريحون فيها، ويتموّنون منها إذا نقص زادهم.

تحصن أهل قبرص بجزيرتهم ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين منتظرين أن يتقدم الروم للدفاع عنهم، حاصر المسلمون عاصمة قبرص قسطنطينا، فطلب أهلها الصلح وقدم كل منها للآخر شروطه للصلح ومن شروط أهل قبرص ألا يشترط عليهم المسلمون شروطاً تورطهم مع الروم لأنهم لا قِبَل لهم بهم. ومن شروط المسلمين: أن يدفعوا للمسلمين سبعة آلاف ومائتي ديناراً كل عام وألا يساعدوا الروم على المسلمين ولا يطلعوهم على أسرارهم وبعدها عاد المسلمون للشام وقد استعمل معاوية على البحر عبدالله بن قيس الذي غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة في البحر.

وفي سنة ٣٢هـ أخلّ أهل قبرص بشروط الصلح بضغط عنيف من الروم، فهاجمهم المسلمون هجوماً عنيفاً فقتلوا وأسروا وسلبوا مما اضطر حاكمها أن يستسلم ويطلب الصلح فأقرّهم معاوية على صلحهم الأول، وبعث إليهم ١٢ ألفاً من الجنود ونقل إليهم جماعة من بعلبك وبنى هناك مدينة ومسجداً وتعهد المسلمون بحمايتهم من البيزنطيين.

موقف معاوية من الفتنة على عثمان :

جلس والي الكوفة سعيد بن العاص في مجلسه العام سنة ٣٣هـ وحوله عامة الناس وتناقشوا فيما بينهم، فتسلل إليهم نفر من الخوارج السبأيين وعملوا على إفساد المجلس وإشعال نار الفتنة بين العامة، ثم جرى حوار بين الوالي سعيد وأحد الحضور وهو خنيس ابن حبيش الأسدي فاختلفا على أمر، وكان سبعة من أصحاب الفتنة جالسين منهم جندب الأزدي الذي قُتل ابنه لتورطه في قضية قتل، ضرب أصحاب الفتنة خنيس ووالده وحاول سعيد منعهم فلم يمتنعوا وأعمي على خنيس ووالده من شدة الضرب، فجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم، لكن الوالي سعيد تمكن من إصلاح الأمر وأمر عثمان سعيد أن يعالج الأمر بحكمة وأن يضيق على الفتنة، لكن الخوارج بدأوا بنشر الإشاعات

والأكاذيب ضد والي الكوفة سعيد وضد الخليفة عثمان وضد أهل الكوفة ووجهائها الذين طلبوا من سعيد معاقبتهم فامتنع بطلب من الخليفة، كتب أشراف الكوفة للخليفة عثمان بشأن هؤلاء النفر وطلبوا إخراجهم من الكوفة لأنهم مفسدون فأرسلهم سعيد إلى معاوية في الشام بأمر من الخليفة عثمان وكتب عثمان إلى معاوية بشأنهم، رحب بهم معاوية وأحسن ضيافتهم، بذل معاوية بحكمته وذكائه ما بوسعه لإقناعهم لكنه وبعد معاشرته لهم رأى أن النصرة القبلية هي التي تحركهم وأن شهوة السلطة والحكم هي التي تثيرهم، أراد معاوية الدخول إليهم من زاويتين:

١- أثر الإسلام في عزة العرب.
٢- دور قريش في نشر الإسلام وتحمل أعبائه.

ذكرهم معاوية بأن الشيطان هو وكر هذه الفتنة، ومحرك هذا الشر وربط تاريخ الأمة بالله ثم الإسلام والعقيدة ثم كشف عن زيف هذا النفر وأبان مخططاتهم وصلتها بدعوة الجاهلية[١].

جلس معهم معاوية ثانية وتحدث إليهم ومما قاله: أيها القوم ! ردوا عليّ خيراً أو اسكتوا، وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه، تعيشوا ونعش بكم. فقال له صعصعة: لست بأهل لذلك، ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله. فقال معاوية: أوَليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله، وطاعته وطاعة نبيه ﷺ وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا؟ قالوا: بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي ﷺ . فقال لهم معاوية: إني آمركم الآن، إن كنت فعلت، فأتوب إلى الله وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه ﷺ ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة، وأن توقروا أئمتكم وتولوهم على حسن ما قدرتم وتعظوهم في لطف ولين في كل شيء، فقال له صعصعة: فأنا آمرك أن تعتزل عملك، فإن من المسلمين من هو أحق به منك. قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قِدماً من أبيك وهو بنفسه أحسن قِدماً منك في الإسلام. قال

---

(١) معاوية بن أبي سفيان، منير الغضبان، ص١١١.

معاوية: «والله إن لي في الإسلام قِدماً، ولغيري كان أحسن قدماً مني، ولكنه ليس في زماني أحد أقوى على ما أنه فيه مني، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلو كان غيري أقوى مني، لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي ... فإن ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ويأمر، ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم وأمانيكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، ولكن الله يقضيها ويدبرها وهو بالغ أمره فعاودوا الخير وقولوه، قالوا لست لذلك أهلاً فردّ عليهم فوثبوا عليه فأخذوا بلحيته ورأسه فقال: مه ! إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي وأنا أمامهم، ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً ثم قام من عندهم فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت»[1].

وكانت هذه المحاولة الأخيرة من معاوية معهم حيث استعمل حلمه وثقافته وأعصابه كي يثنيهم عن الفتنة بدعوته لهم إلى تقوى الله وطاعته والاستمساك بالجماعة والابتعاد عن الفرقة، وبحلمه الكبير وصدره الواسع وتماسك أعصابه عاد فذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بطاعة الله.

بعد أن استخدم معاوية كل ما لديه من حنكة وسياسة مع أهل الفتنة الذين احتضنهم وأكرمهم دون أن يصل إلى نتيجة كتب معاوية إلى عثمان رضي الله عنهما قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم لعبدالله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إليّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين فيشوهون على الناس وليس كل الناس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رقى الشطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إنْ أقاموا وسط أهل الشام، أن يُغروهم بسحرهم وفجورهم، فأرددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجا فيه نفاقهم»[2].

---

(١) تاريخ الطبري، ٥/ ٣٣٠، ٣٣١.
(٢) المصدر السابق.

فكتب عثمان إلى سعيد بن العاص بالكوفة فردّهم إليه بعد أقاموا عند أمير حمص عبدالرحمن بن خالد بن الوليد الذي قال لهم: «أنا ابن خالد بن الوليد ابن من عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ الردة والله لأذلكم» وكان يصطحبهم أين ما يذهب ويقول لزعيمهم صعصعة بن صوحان يا ابن الخطيئة ! هل تعلم أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر، وإن لم يصلحه اللين أصلحته الشدة وقد أخرسهم أسلوب عبدالرحمن بحزمه وشدته وقسوته، وأظهروا له التوبة والندم، وأرسل أحد زعمائهم - الأشتر النخعي - إلى عثمان ليخبره بتوبتهم وصلاحهم وتراجعهم عما كانوا عليه من الفتنة.

لكن عبدالله بن سبأ في سنة ٣٤هـ، أحكم خطته ورسم مؤامرته ورتب مع جماعته الخروج على الخليفة وولاته، واتصل ابن سبأ اليهودي من وكره في مصر بشياطين حزبه في البصرة والكوفة والمدينة وكاتبهم وخاصة زعيم السبأيين في الكوفة يزيد بن قيس الذي استغل خروج وجهاء الكوفة وأشرافها إلى الجهاد سنة ٣٤هـ ولم يبقَ إلا الرعاع الذين انحرفوا وهاجوا على والي الكوفة سعيد بن العاص، لكن أمير الحرب القعقاع بن عمرو التميمي تمكن من القضاء على التحرك الأول لهم بقيادة يزيد بن قيس، لم يظهر يزيد للقعقاع خطته في الخروج على الخليفة عثمان وخلعه وأوضح أن هدفه هو عزل والي الكوفة سعيد بن العاص وتعيين غيره فاستجيب لطلبهم وأطلق القعقاع سراحهم بعد أن سمع كلام يزيد. ومنعوا الوالي سعيد بن العاص القادم من المدينة من دخول الكوفة. فقام نائبه عمرو بن حُريث ودع المسلمين للأخوة والوحدة، ونهاهم عن الفرقة والفتنة ودعاهم لعدم الاستجابة للخارجين والمتمردين، وتم تعيين أبو موسى الأشعري والياً على الكوفة لدرء الفتنة.

واجه الخليفة عثمانﷺ الفتنة بوسائل وأساليب منها:

١- إرسال لجان تفتيش وتحقيق إلى الولايات.

٢- محاولة معرفة أغراض أهل الفتنة باختراق صفوفهم ومحاورتهم والاستجابة لبعض مطالبهم.

٣- مشورة عثمان لولاة الأمصار واستدعائهم على عجل (عبدالله بن عامر، معاوية بن أبي سفيان، عبدالله بن سعد) وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص بجلسة مغلقة وخطيرة وكان رأي معاوية بن أبي سفيان «أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد، فيكفيك كل رجل منهم ما قبله وأكفيك أنا أهل الشام».

ردّ عليهم عثمان بعد أن سمع مشورتهم ومما قاله لهم أن لا ينكلوا بمثيري الشغب أو حبسهم أو قتلهم، وقرر أن يعاملوهم بالحسنى واللين[١].

وقبل أن يتوجه معاوية إلى الشام أتى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قِبَل لك بها، فردّ عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، ولو كان فيه قطع خيط عنقي، فقال معاوية: إذاً أبعث لك جيشاً من الشام يقيم في المدينة لمواجهة الأخطار المتوقعة، ليدافع عنك، وعن أهل المدينة، قال عثمان: لا حتى لا أقترّ على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند، تساكنهم ولا أضيق على أهل الهجرة والنصرة، قال له معاوية: يا أمير المؤمنين والله لتُغتلّنّ أو لتُغزينّ، قال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل[٢]. وقد حدث كل ما توقعه معاوية، فجاءت جموع أهل الفتنة لتحاصر عثمان ثم تقتله، ولم يكن من بين هؤلاء الثوار أحد من أهل الشام.

معاوية بن أبي سفيان في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

كان معاوية والياً على الشام في خلافتيّ عمر وعثمان رضي الله عهما، وفي عهد علي ابن أبي طالب ضغطت عليه الغوغاء لعزل معاوية عن الشام وقيس بن سعد عن مصر، نجحوا في عزل والي مصر وأراد علي تعيين عبدالله بن عمر بدلاً من معاوية فأبى واعتذر وأرسل مكانه سهيل بن حنيف الذي ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية وقالوا له: إن كان بعثك عثمان فهلا بك، وإن كان بعثك غيره فارجع وكانت بلاد الشام تغلي غضباً على مقتل عثمان ظلماً وعدواناً.

---

(١) خلافة عثمان، د. السلمي، ص٧٧.

(٢) تاريخ الطبري، ٥/ ٣٥٣.

اختلف الصحابة في الطريقة التي يؤخذ بها القصاص من قتلة عثمان، قال ابن حزم «لم ينكر معاوية قط فضل عليّ واستحقاقه الخلافة، ولكن اجتهاده أدّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان ﷺ على البيعة ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان».

أما ابن تيمية فقال: «معاوية لم يدّعِ الخلافة ولم يبايع له بها حين قاتل علياً ولم يقاتل عليّ على أنه خليفة، ولا أن يستحق الخلافة، وكان معاوية يقرّ بذلك لمن سأله وكان اختلافهم في قضية الاقتصاص من قتلة عثمان، كان أمير المؤمنين علي موافقاً من حيث المبدأ على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وكان رأيه إرجاء الاقتصاص إلى حين استقرار الأوضاع وهدوء الأمور واجتماع الكلمة».

أحداث ونتائج معركة صفين سنة ٣٧ هـ :

الأحداث:

١- أرسلت أم حبيبة بنت أبي سفيان النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى أخيها معاوية بالشام والذي نقل إلى أهل الشام صورة بشعة عن (مقتل عثمان، سيوف الغوغاء مُصلته على رقاب أهل المدينة، سلب بيت المال، أصابع نائلة زوجة عثمان وهي مقطوعة).

فهاجت النفوس واهتزت المشاعر وذرفت العيون دمعاً، لذا أصر معاوية ومن معه من أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وتسليم القتلة للقصاص قبل أن يبايعوا علياً.

٢- امتنع معاوية وأهل الشام عن مبايعة علي حتى يقتص من قتلة عثمان رحمه الله ثم يبايعون، وقالوا: «لا نُبايع من يأوي القتلة» وتخوفوا على أنفسهم من قتلة عثمان الموجودين في جيش علي فرأوا أن البيعة لا تجب عليهم قبل القصاص وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين وقالوا إن عثمان قُتل مظلوماً باتفاق المسلمين وأن قتلته في عسكر علي[(١)].

اعتبر معاوية نفسه ولي دم عثمان، وأن الله يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣].

---

(١) العواصم من القواصم، ص١٦٢. البداية والنهاية، ٧/ ١٢٩.

ولم يكن موقف معاوية هذا طمعاً في ولاية الشام أو طلب الخلافة لأنه يدرك أن هذا الأمر مقطوع فيه، لبقية السبعة من أهل الشورى وأن علياً أفضل منه وأولى بالأمر منه، فكيف يعتقد أنه يقاتل الخليفة الشرعي ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل وهو الذي قال في حقه الرسول محمد ﷺ «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهدِ به»[1].

٣- اتفق أئمة الفتوى أنه لا يجوز لأحدٍ أن يقتصّ من أحد ويأخذ حقه دون السلطان أو من ينصبه السلطان لهذا الأمر خوفاً من الفتنة وإشاعة الفوضى، ويمكن القول بموقف معاوية: إنه كان مجتهداً متأولاً يغلب ظنه أن الحق معه فخطب بأهل الشام وذكرهم بأنه ولي عثمان الذي قُتل مظلوماً، فبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم، وكان طلحة والزبير رضي الله عنهما أنهما أقرب إلى الصواب من معاوية ومن معه عندما بايعا علياً واعترافهما بفضله واقتنعا بصواب موقفه فدخلا في طاعته.

٤- بعث معاوية رسالة مع رجل إلى عليّ رداً على عدة رسائل بعثها علي إلى معاوية، قال علي للرجل ما وراءك؟ قال جئتك من عند قوم، لا يريدون إلا القود (القتل بالقتيل)، كلهم موتور، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو على منبر دمشق، قال عليّ: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ثم خرج رسول معاوية من بين يدي علي فهمّ به الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، لكنه أفلت منهم بعد جهد[2].

وبعد هذا الكتاب عزم أمير المؤمنين عليّ على قتال أهل الشام، فكتب إلى والي مصر قيس بن سعد يستنفر الناس لقتال أهل الشام كما أرسل إلى واليه على الكوفة أبو موسى الأشعري وإلى عثمان بن حنيف بالبصرة يستحثهم على ذلك، ثم خرج علي من المدينة واستخلف عليها قثم بن العباس وعزم عل مقاتلة من عصاه بمن أطاعه فجاءه ابنه الحسين رضي الله عنهما، وقال: يا أبت دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين فلم يقبل علي ذلك وصمم على القتال ورتب جيشه ودفع اللواء إلى محمد بن الحنفية وجعل ابن عباس

(١) صحيح سنن الترمذي للألباني، رقم ٣٠٠١٨ من ٣/ ٢٣٦.
(٢) البداية والنهاية، ٧/ ٢٤٠/ ٢٤١.

على الميمنة وعمر بن أبي سلمة على الميسرة، وجعل على المقدمة أبو ليلى بن عمرو بن الجراح وأراد الخروج من المدينة قاصداً الشام، لكن جاءه ما يشغله عن ذلك وهو خروج أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم جميعاً إلى البصرة إلى معركة الجمل، ثم أرسل عليّ إلى معاوية بعد معركة الجمل جرير بن عبدالله بعد أن أخذ له البيعة من أهل همدان وأخذ له البيعة الأشعث بن قيس من أهل أذربيجان ثم القدوم إليه في الكوفة.

٥- أرسل علي جرير بن عبدالله البجلي إلى معاوية لأخذ البيعة له منه وأرسل معه كتاباً يخبر معاوية باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويخبره بما كان في موقعة الجمل ويدعوه للدخول فيما دخل فيه الناس أعطى جرير الكتاب لمعاوية فجمع إليه معاوية عمرو بن العاص وزعماء أهل الشام لاستشارتهم، أبوْا أن يبايعوا حتى يُقتل قتلة عثمان أو تسليمهم إليه وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم.

رجع جرير إلى علي وأخبره بالرأي وحدث إشكال بين جرير والأشتر وبعث جرير لمعاوية بما قاله الأشتر في حقه فطلب منه معاوية القدوم إليه وهكذا كان الأشتر سبباً في إبعاد الصحابي جرير بن عبدالله ومفارقته لأمير المؤمنين علي.

٦- استنفر أمير المؤمنين علي الناس وجهز جيشاً في حدود خمسين ألفاً لقتال أهل الشام، وكان التجمع في النخلة (قرب الكوفة من جهة الشام) بقيادة «أبو مسعود الأنصاري» وأرسل علي فرقة استطلاعية قوامها ثمانية آلاف بقيادة زياد بن النضر الحارثي، وبعث شريح بن هاني في أربعة آلاف ثم خرج علي بجيشه إلى المدائن وانضم إليه من فيها من المقاتلة بقيادة سعد بن مسعود الثقفي وسلك علي على طريق الجزيرة الرئيسي على شط الفرات الشرقي حتى بلغ قرب قرقيسياء (على نهر الخابور) ووصله أن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين، فتقدم عليّ إلى الرقة (على نهر الفرات الشرقي في سوريا) وعبر منها الفرات غرباً إلى صفين.

٧- قبل وصول معاوية إلى صفين كان قد أوقع هزيمة بمن غزا المدينة من المصريين المشاركين في قتل عثمان سنة ٣٦هـ وخرج معاوية وقادته في حدود ستين ألفاً ومن قادته عمرو بن العاص على خيول أهل الشام كلها والضحّاك بن قيس على الرجالة كلهم، وذو

الكلاع الحميري على ميمنة الجيش وحبيب بن مسلمة على الميسرة وأبو الأعور السلمي على المقدمة.

٨- فوجئ جيش علي القادم من العراق بمنع معاوية عنهم الماء فخرج الأشعث بن قيس في ألفين وحقق نصراً واستولى على الماء وقيل إنه استولى على الماء دون قتال بالحديث مباشرة مع معاوية، استمر القتال بين الطرفين على شكل كتائب صغيرة طيلة شهر ذي الحجة وتجنبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك وأملاً في وقوع الصلح بين الطرفين وفي شهر المحرم بادر الفريقان إلى الموادعة والهدنة طمعاً في الصلح لحفظ دماء المسلمين وبدأت المراسلات في هذا الشهر بدأها أمير المؤمنين علي حيث أرسل بشير بن عمرو الأنصاري وسعد بن قيس الهمذاني وشبت بن ربعي التميمي إلى معاوية لدعوته للدخول في الجماعة والمبايعة، فردّ معاوية برده السابق وهو تسليم قتلة عثمان ثم يدخل معاوية في البيعة.

كما حاول الصحابيان: أبو الدرداء وأبو أمامة رضي الله عنهما الصلح بينهما دون نجاح لأن كل فريق مصر على موقفه فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما[1].

٩- لما فشلت المحاولات السابقة للإصلاح عادت حرب الكتائب كما كانت في شهر ذي الحجة وحدثت مبارزات فردية خشية الالتحام الكلي وكان عدد النزالات الحربية خلال أسبوع أكثر من سبعين منازلة وقيل تسعين إلا أن أمير المؤمنين علي أعلن في جيشه أن غداً الأربعاء سيكون الالتحام الكلي لجميع الجيش وأشعر معاوية بنيته في ذلك، فثار الناس في تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدّونها وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال وكان القتال على أيام هي:

١٠- أيام القتال:

اليوم الأول: الأربعاء: كان ترتيب جيش علي: أمير المؤمنين علي على القلب، عبدالله بن عباس على الميسرة، عمار بن ياسر على الرجّالة محمد بن الحنفية حامل الراية، هشام بن عتبة حامل اللواء، الأشعث بن قيس على الميمنة.

(١) البداية والنهاية، ٧/ ٢٧٠.

أما ترتيب جيش معاوية: معاوية في كتيبة الشهباء (أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع) عمرو بن العاص قائد خيل الشام كلها، ذو الكلاع الحميري على الميمنة على أهل اليمن، حبيب بن مسلمة الفهري على الميسرة والمخارق بن الصباح الكلاعي حامل اللواء.

التحم الجيشان في قتال عنيف حتى غروب الشمس دون توقف إلا لأداء الصلاة، يُصلي كل فريق في معسكره وبينهما جثث القتلى في الميدان. وفي المساء خرج علي ﷺ إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام فدعا ربه قائلاً: «اللهم اغفر لي ولهم»[1]، ولم يغلب أحدٌ أحداً في هذا اليوم.

اليوم الثاني: الخميس: غيّر علي بعض قياداته وفي الصباح اشتبك الفريقان في قتال عنيف وأظهر أهل العراق تفوقاً على أهل الشام حيث تمكن عبدالله بن بديل أن يكسر ميمنة جيش معاوية وعليه حبيب بن مسلم وتقدمه باتجاه كتيبة معاوية «الشهباء» حتى أن معاوية قد حدثته نفسه بترك ميدان القتال. لكنه استمر وصبر واستحث كتيبته الشهباء، وتمكن من قتل القائد عبدالله بن بديل الذي خلفه الأشتر، تماسك أهل الشام وبايع بعضهم بعضاً على الموت وكرّوا مرة أخرى على جيش علي بشدة وعزيمة وقتل منهم القائد ذو الكلاع الحميري وحوشب وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، ثم انقلب الأمر لأهل الشام وأظهروا تقدماً وبدأ جيش العراق في التراجع وكثر القتل والجراحات في أهل العراق، فأخذ أمير المؤمنين علي ينادي جيشه ويحمسهم وقاتل قتالاً شديداً واتجه إلى القلب حيث ربيعة، فثارت حميتهم وبايعوا أميرهم خالد بن المعمر على الموت وكانوا أهل قتال. وكان عمار بن ياسر قد جاوز وقتها ٩٤ عاماً وكان يحارب بحماس وسمع رجلاً بجواره يقول «كفر أهل الشام» فنهاه وقال: «إنما بغوا علينا فنحن نقاتلهم لبغيهم فإلهنا واحد ونبينا واحد وقبلتنا واحدة»[2].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة، ١٥/ ٢٩٧ بسند صحيح.

(٢) مصنف بن أبي شيبة، ١٥/ ٢٩٠ بإسناد حسن.

ولما رأى عمار بن ياسر تراجع أصحابه استحثهم وأنهم على الحق وقال لهم: «من سرّه أن تكتنفه الحور العين فليتقدم بين الصفوف محتسباً لعلمنا أننا على الحق، وأنهم على الباطل»، وتقدم وبيده الحربة ترتعش لكبر سنّه ويشتد على حامل الراية هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص ويستحثه في التقدم ويرغبه فيما عند الله من النعيم وهذه الروح المعنوية العالية زادت جيش العراق عنفاً وضراوة وتضحية في القتال حتى تمكنوا من تحويل المعركة لصالحهم. وتقدم هاشم بن عتبة وهو يرتجز:

أعـــــود ببغـــــي أهلـــــه محـــــلاّ   قـــد عـــالج الحيـــاة حتـــى مـــلاّ
لا بـــــــد أن يغـــــــلّ أو يُغـــــــلاّ

وعمار يقول له تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف والموت في أطراف الرماح، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين، اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه[1].

وعند غروب شمس الخميس طلب عمار شربة لبن ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال لي «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»[2] ثم تقدم مستحثاً حامل الراية هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص الزهري ولم يرجع الاثنان حيث قتلا رحمها الله تعالى.

اليوم الثالث: يوم الجمعة «ليلة الهرير»: عادت الحرب لشدتها واندفع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وقاتل أمير المؤمنين علياً قتالاً شديداً وبايع على الموت وصلّى بجيشه المغرب صلاة الخوف.

قال ابن كثير في وصف ليلة الهرير ويوم الجمعة: «يقتتل الرجلان حتى يُثخنا ثم يجلسان يستريحان وكل واحد منهما ليهمر على الآخر ثم يقومان فيقتتلان كما كانا فإنا لله وإنا إليه لراجعون، ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك وصلّى الناس الصبح إيماؤهم في القتال حتى تضاحى النهار وكان النصر لأهل العراق على أهل الشام لأقرب»[3].

---

(١) الطبري، ٥/ ٦٥٢.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة بسند منقطع، ١٥/ ٢٠٢-٢٠٣.
(٣) البداية والنهاية، ٧/ ٢٨٣.

الدعوة للتحكيم:

قال الأشعث بن قيس: إن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة الهرير لم يكن يحتمل مزيد قتال ... أما والله لا أقول هذا جزعاً من الحرب، ولكن قول رجل مسن وأخاف على النساء والذراري غداً إن نحن فنينا، اللهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آل. فلما وصل ما قاله الأشعث لمعاوية، قال: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غداً لتميلنّ الروم على ذرارينا ونسائنا ولتميلنّ أهل فارس على أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا، وهذه رغبة أهل الإصلاح وليس ما يقوله أعداء الأمة الذين يحبون استمرار القتال واشتعال الفتنة بأن ما طلبه معاوية وعمرو بن العاص إنما هو خديعة واحتيال ومؤامرة، ووقع في هذا القول الكثير من المؤرخين المعاصرين، مما ساهم في تشويه الحقائق التاريخية.

كما أظهر سهل بن حنيف ﷺ اشمئزازاً ممن يدعون لاستمرار القتال بين الإخوة وقال: «اتهموا رأيكم على دينكم»[1]. وبيّن لهم أنهم لا خيار عن الحوار والصلح، لأن ما سواه فتنة لا تُعرف عواقبها.

الدعوة إلى تحكيم كتاب الله بينهم، دون الالتزام بتسليم قتلة عثمان لمعاوية ودون التأكيد على دخول معاوية في طاعة علي ومبايعته لتطور فرضته أحداث موقعة صفين حيث قُتل الكثير من المسلمين وعلى رأسهم الصحابي الجليل ومن السابقين للإسلام عمار ابن ياسر وقد جاوز التسعين من عمره، أبرز اتجاهاً جماعياً لوقف القتال وحقن دماء المسلمين وحماية شوكة الأمة وإعادة تماسكها أمام أعدائها وإن ذلك لدليل على حيوية هذه الأمة ووعيها وصلاحها وقدرتها على اتخاذ القرارات السليمة لإعادة اللحمة للمسلمين.

إن رضا أمير المؤمنين علياً بالتحكيم واعتباره فتحاً كالحديبية ورجوعه إلى الكوفة تعليقه آمالاً لجمع الكلمة ووحدة الصف وإعادة حركة الفتح من جديد وساهمت عدة عوامل في الوصول لفكرة التحكيم منها:

---

(١) البخاري، رقم ٤١٨٩.

١- استمرار المحاولات لوقف القتال وآخرها ما طلبه معاوية من علي بوقف القتال.
٢- قتل الكثير من المسلمين والخوف من الفناء.
٣- الملل الذي أصاب المسلمين من طول القتال ورغبة الأغلبية في جيش علي للموادعة، وأن رفع المصاحف ليس بخدعة.
٤- الاستجابة لصوت الوحي الداعي للإصلاح، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩] ورغبة الإمام علي في الاحتكام إلى كتاب الله، بينما أصر قتلة عثمان على الاستمرار في المعركة.

النتائج:

- وتضاربت أقوال العلماء في عدد القتلى فذكر ابن خيثمة وابن القيم أن العدد حوالي ٧٠ ألفاً، (٢٥ ألفاً من أهل العراق و٤٥ ألفاً من أهل الشام) ويرى الدكتور علي محمد الصلابي أن هذه الأرقام خيالية ومبالغ فيها.
- اتفق الطرفان على أن يُحكِّم كل واحد منهما رجلاً ليتفقا على ما فيه مصلحة المسلمين، وكّل معاوية عنه عمرو بن العاص بينما وكّل علياً عنه «أبو موسى الأشعري» ومكان اجتماع الحكمين هو دومة الجندل رمضان سنة ٣٧ هـ.
- رأى قسم من جيش علي أن قبوله بالتحكيم ذنب يوجب الكفر وعليه التوبة وخرجوا عليه وأطلق عليهم اسم «الخوارج» ناظرهم ابن عباس ثم علي بنفسه فرجع البعض ورفض البعض فحاربهم علي مما أضعف جيشه وأنهكه وما زالوا به حتى قتلوه غيلة.
- قضية التحكيم من أخطر الموضوعات في تاريخ الخلافة الراشدة، اعتمد من كتب فيها على روايات ضعيفة شوهت الصحابة الكرام خاصة أبو موسى الأشعري فوصفوه بالأبله الضعيف الرأي مغفلاً وأن عمرو بن العاص قد خدعه ووصفوا عمرو بأنه صاحب مكر وخديعة، حاشا لله أن يوصف صحابة رسول الله ﷺ بمثل هذه الأوصاف.
- نصت وثيقة التحكيم على:

التراضي عند حكم القرآن وأن الله شهيد وكفى به شهيداً على الأميرين والحكمين والفريقين فإن خالفا وتعديا فالأمة بريئة من حكمهما ولا عهد ولا ذمة لهما.

وقد شهد على كتاب الوثيقة: الحسن والحسين، عبدالله بن عباس، عبدالله بن جعفر ابن أبي طالب، الأشعث بن قيس الكندي، الأشتر بن الحارث، سعيد بن قيس الهمذاني، سهيل بن حنيف، يزيد بن عبدالله الأسلمي، عقبة بن عامر الجهني وغيرهم من أهل العراق وشهد من أهل الشام: حبيب بن مسلمة الفهري، أبو الأعور السلمي، بشر بن أرطاة القرشي، معاذ بن خديج الكندي، عبدالله بن خالد بن الوليد، عبدالله بن عمرو بن العاص، عتبة بن أبي سفيان، محمد بن أبي سفيان ومحمد بن عمرو بن العاص وآخرين غيرهم.

وكان التوقيع يوم الأربعاء ١٣ ليلة بقيت من شهر صفر سنة ٣٧ هـ.

- بعد خروج الخوارج من جيش علي وانشغاله بقتالهم، تغيرت الموازين لصالح معاوية الذي ازداد قوة بعد أمر التحكيم وعدم وصولهم لحل جذري وعمل معاوية سراً وعلناً على إضعاف جانب أمير المؤمنين علي مستغلاً ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، فأرسل جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى مصر فسيطر عليها وضمّها إليه واستمال كبار أعيانها ولم يتمكن من استمالة والي علي على مصر قيس بن سعد لكنه شكك حاشية علي به فعزله علي فكان عزله مكسباً كبيراً لمعاوية.
- لم يستطع علي غزو الشام لتفكك جيشه واضطر أن يوافق لمعاوية أن يكون العراق له، والشام لمعاوية ولا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو.

وكان ذلك كما قال الطبري سنة ٤٠هـ وكره الإمام علي الحياة وتمنى الموت بعد خذلان جيشه له وطلب من الله أن يعجل منيته ولم يبق بعدها إلا أياماً حيث اغتاله عبدالرحمن بن ملجم من الخوارج فبكاه معاوية وقال لزوجته «إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم»[1] وقال: «ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب».

---

(١) البداية والنهاية، ٨/ ١٣٣.

معاوية في عهد الحسن بن علي رضي الله عنهما:

بويع الحسن بن علي بالخلافة سنة ٤٠هـ بعد استشهاد والده علي كرم الله وجهه على يد الخارجي عبدالرحمن بن ملجم المراوي ودُفن في الكوفة بعد أن صلى عليه ابنه الحسن، وأول من بايع الحسن هو قيس بن سعد ثم بايعه الناس واشترط على أهل العراق عندما بايعوه «أنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت» زاد المقاتلة في العطايا ١٠٠٪ ونال رضاهم ولكي يحقن دماء المسلمين وتوحيد كلمتهم، تنازل ﷺ ومن مركز القوة عن الخلافة والدلائل التي تشير إلى ذلك:

١- الشرعية التي كان يملكها الحسن.
٢- تقييمه للموقف وقدراته القيادية.
٣- وجود قيادات كبيرة في صفه مثل أخيه الحسين وابن عمه عبدالله بن جعفر وقيس بن سعد بن عبادة وعدي بن حاتم وغيرهم.
٤- معرفته لنفسية أهل العراق فزاد لهم العطاء لا نجاح مشروعه الإصلاحي وتمكن من التغلب على المعيقات التي واجهته وحاولوا قتله لرغبته في الصلح.
٥- تقييم كل من عمرو بن العاص ومعاوية للموقف ولقوات الحسن ورأوا أن أحداً لن يحقق حسماً عسكرياً إلا بعد خسائر فادحة في الطرفين، لذا أرسل للحسن شخصيتين كبيرتين من قريش ومن أصحاب النفوذ في المجتمع الإسلامي ولهما حضور واحترام عند الحسن فكتب لمعاوية شروطه للصلح تحقيقاً لحديث رسول الله ﷺ كما أخرجه البخاري، قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر والحسن بن علي على جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1].

أهم مراحل الصلح:

المرحلة الأولى: دعوة رسول الله ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، مما دفعه للإقدام على الصلح.

---

(١) البخاري رقم ٧١٠٩.

المرحلة الثانية: شرطه لأهل العراق للموافقة على بيعتهم له أنهم يسالمون من يسالم ويحاربون من يحارب.

المرحلة الثالثة: محاولة اغتيال الحسن بعد أن كشف عن نيته للصلح مع معاوية.

المرحلة الرابعة: خروج الحسن بجيشه من الكوفة للمدائن وإرساله للقوة الضاربة إلى مسكن بقيادة قيس بن سعد بن عبادة.

المرحلة الخامسة: خروج معاوية من الشام نحو العراق بعد وصول خبر خروج الحسن إليه من الكوفة للمدائن.

المرحلة السادسة: تبادل الرسل بين الحسن ومعاوية ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

المرحلة السابعة: محاولة اغتيال الحسن من بعض عسكره بعد أن بدأ يبين لهم ما تم بينه وبين معاوية لكن الله أنجاه.

المرحلة الثامنة: تنازل الحسن بن علي رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية وقد أنجاه الله من الفتنة التي وقعت في معسكره فترك المدائن وسار للكوفة وخطب في أهلها.

ومن أهم دوافع الصلح:

١- إصلاح هذه الأمة.

٢- دعوة الرسول ﷺ للحسن بأنه يصلح بين فئتين.

٣- حقن دماء المسلمين.

٤- مقتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

٥- شخصية معاوية فلو لم يكن أهلاً للخلافة لما سلمها له الحسن

٦- تفكك جيش العراق وقوة جيش معاوية وطاعة الجيش له واتفاق أهل الشام عليه ولخبراته الإدارية في الحكم.

شروط الصلح:

١- العمل بكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين.

٢- أن لا يطالبهم معاوية بما أصابه بنو عبدالمطلب من أموال.

٣- أن الناس كلهم آمنون والعفو عن الجميع فيما أصابوا من دماء وفتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[1]. وعليه فلم يعاقب معاوية أحداً بذنب سابق وتأسس بذلك صلح الحسن على: الإحسان، العفو، تأليف القلوب.

٤- أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين ولم يطلب الحسن الخلافة له بعد معاوية لذلك ذهب إلى المدينة وانعزل عن إدارة شؤون الحكم.

ومن أهم نتائج هذا الصلح:

١- توحيد وجمع كلمة الأمة تحت قيادة واحدة فسمي «عام الجماعة».

٢- عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه.

٣- التفرغ للخوارج.

٤- انتقال عاصمة دولة الإسلام من العراق للشام.

خلافة معاوية بن أبي سفيان:

يعتبر معاوية بن أبي سفيان المؤسس الأول للدولة الأموية، بعد أن تنازل له عن الخلافة الحسن بن علي سنة ٤١هـ (عام الجماعة).

أخذ معاوية للبيعة:

بويع معاوية رضي الله عنه بالخلافة وأميراً للمؤمنين سنة ٤١هـ، يعود الفضل في ذلك للسيد الكبير مهندس المشروع الإصلاحي العظيم الحسن بن علي بن أبي طالب وعُدّ عام الجماعة من علامة نبوة المصطفى ﷺ وفضيلة باهرة من فضائل الحسن.

(١) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، ص٣٤١.

ويكفي معاوية فخراً أن كل الصحابة الأحياء في عهده قد بايعوه بالخلافة، فقد أجمعت الأمة على معاوية وبايعه علماء الصحابة والتابعين، وعدّوا خلافته شرعية ورضوا إمامته ومن الصحابة الذين بايعوه كما روى الإمام الأوزاعي:

سعد، أسامة، جابر، ابن عمر، زيد بن ثابت، مسلمة بن مخلد، أبو سعيد الخدري، رافع بن خديج وأنس بن مالك وغيرهم كثير، وممن بايعه من التابعين: المسور بن مخرمة، عبدالرحمن بن الأسود، سعيد بن المسيب عروة بن الزبير، عبدالله بن محيرز.

بايعه الصحابة والتابعين بعد توفر شروط الخلافة له من العدالة فمن يطعن في عدالة معاوية فقد طعن في عدالة هؤلاء من الصحابة والتابعين واجتماع المسلمين على معاوية من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى.

انتهى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بتنازل الحسن بن علي لمعاوية ﷺ قال ﷺ : «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»[1].

كان عصر الخلفاء الراشدين وبني أمية عصر عزة ومنعة للإسلام، قال ابن تيمية: إن الإسلام وشرائعه في بني أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم وعدّ معاوية منهم.

بماذا اتصف معاوية ﷺ؟

اشتهر بصفات طيبة كثيرة من أهمها:

أولاً: العلم والفقه: استفاد معاوية ﷺ من ملازمته لرسول الله ﷺ علماً وتربيةً، روى الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، شهد له ابن عباس بالفقه وكان معاوية أحد الكتبة

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٤/ ٣٧١-٣٧٢، سلسلة الأحاديث الصحيحة.

الـ ١٣ لرسول الله ﷺ ، قال أبو الدرداء: «ما رأيت أحداً أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ من إمامكم هذا» - يعني معاوية - وكان ﷺ يكاتب أصحاب الرسول ﷺ ليتعلم منهم ما سمعوه منه وكان ﷺ حريصاً على اتباع السنّة النبوية ومهتماً بمذاكرة العلم والحرص عليه، وكان ﷺ على علم بالفقه السياسي والسياسة الشرعية ومقاصد الشريعة وفقه الجهاد.

ثانياً: الحلم والعفو: ضُرب المثل في حلم معاوية وكظمه لغيظه وعفوه عن الناس، قال ﷺ لرجل اسمعه كلاماً سيئاً شديداً «إنّي لأستحي من الله أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي» وفي رواية قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك !! فقال: إني لأستحي أن يكون جرم أحد أعظم من حلمي.

قال معاوية: فوالله لقد كنت ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعه حلماً وأرجع وهو لي صديق إن استنجدته أنجدني وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا زاده إلا كرماً وكان يتمثل بالبيت الآتي:

ولا تقطع أخاً لك عند ذنب فإن الذنب يغفره الكريم

وكان لخلق الحلم الذي لم يخالطه ضعف أثر في نجاحه وتثبيت أركان دولته وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين وتحويلهم إلى الرضا والقناعة بسياسته.

ذكر ابن كثير: قال عبدالملك بن مروان يوماً ذُكر فيه معاوية فقال: ما رأيت مثله في حلمه واحتماله وكرمه، قال عبدالله بن الزبير عن معاوية: هو أدهى الأرض في زمانه، ولكنه يُظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقمتهم عليه، ويصفه حبر الأمة عبدالله بن عباس ﷺ سياسة معاوية بعد تفكير عميق: قد علمت بما غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقع طاروا، فكان إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، إنما يفسح لها حتى تمر ثم يحتوي الميدان.

ومن أقواله ﷺ في السياسة قوله المشهور «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوا أرخيتها وإذا أرخوها جذبتها» وكان سلوك معاوية وحلمه تطبيقاً

لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٤].

قال ﷺ في هذا المجال: «العقل والحلم أفضل ما أعطي العبد، فإذا ذكّر ذكر، وإذا أُعطي شكر، وإذا ابتليَ صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز».

ثالثاً: الدهاء والحيلة: تتمثل قدرة معاوية على المناورة والدهاء في قصة الأسير القرشي المسلم الذي لطمه أحد بطارقة الروم على وجهه فصاح وا إسلاماه أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا وأضعت ثغورنا وحكّمت العدو في دمائنا وأعراضنا. وَصَل هذا الكلام لأمير المؤمنين معاوية والذي استخدم الدهاء والحيلة حتى تم الإفراج عن أسرى المسلمين ومن بينهم هذا الأسير القرشي الذي دعاه معاوية إلى دار الإسلام فأحسن إليه ثم قال له: «لم نهملك ولم نضيعك، ولا أبحنا دمك وعرضك».

استخدم معاوية قدراته وحيله حتى تمكن بحار من صور كان على صداقة مع البطريق المعتدي الذي قدم إليه الهدايا حتى تمكن في النهاية من القبض عليه وإحضاره إلى أمير المؤمنين معاوية الذي أحضر الأسير المحرر القرشي وطلب منه أن يلطم البطريق كما لطمه، ثم أكبّ القرشي على يدي معاوية وأطرافها تقبيلاً وقال له قوله رجل مؤمن واثق بسلطانه «ما ضاع من سوّدك ولا خاب فيك من رأسك، أنت ملك لا يُستضام تمنع حماك وتصون رعيتك» وبعد أن أخذ القرشي حقه أحسن معاوية إلى البطريق وخلع عليه وحمّله بساطاً جميلاً كان قد طلبه مع هدايا لملكهم وقال له: «ارجع إلى ملكك وقل له: تركت ملك المسلمين يقيم الحدود على بساطك ويقتص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك وعزّك»، ثم طلب أمير المؤمنين من البحارة الصوري أن يسير معه إلى الخليج فتطرحه فيه ومن أسر معه وقد أحكم فمه بالسلاسل والمنعة من الموكولين بقدومه وتلقوه مهنئين له بخلاصه من الأسر، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله في أمر البطريق والهداية فلم يُستضام أسير من المسلمين في أيامه وقال الملك في حق معاوية «هذا أدهى العرب وأمكر

الملوك ولهذا قدمته العرب عليها فأساس أمورها ولو همّ بأخذي لتمت له الحيلة عليّ» وهذه القصة تدل على دهاء معاوية وحُسْن سياسته واهتمامه برعيته.

رابعاً: عقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب: تميز معاوية بقدرته الفائقة على استيعاب الآخرين خلال مدة حكمه (عشرون سنة والياً على الشام وعشرون سنة خليفة للمسلمين) وامتاز ﷺ بقدرته على ضبط النفس عند الغضب واحتواء الشدائد حتى تنجلي. ومن أمثلته على الاستيعاب:

أ- المسور بن مخرمة واعتراضه على معاوية: تمكن معاوية كما يذكر عروة بن الزبير من إقناع المسور وتقبل سياسته وعاد مادحاً داعياً له بعد أن كان منتقداً له ومهاجماً بعد موازنته بين حسنات الحاكم وصوابه وبين سيئاته وأخطائه.

ب- ثابت بن قيس الأنصاري ﷺ : كان شديد النفس ومن أنصار علي الذي استعمله على المدائن وظل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة. وجد الأنصار قد اجتمعوا في مسجد بني ظفر يريدون الكتابة إلى معاوية بعد استخلافه بحقوقهم، فقال ثابت لهم: أنا أكتب إليه باذلاً نفسي بدلكم.

كتب لمعاوية وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها: نصرته للنبي محمد ﷺ وغيرها، ثم قال له: حبست حقوقنا واعتديت علينا وظلمتنا، وما لنا إليك ذنب إلا نُصرتنا للنبي محمد ﷺ ، فلما قدم كتابه لمعاوية دفعه إلى يزيد فقرأه له ثم قال: ما الرأي؟ فقال تبعث فتصلبه على باب، ثم بعث لكبراء أهل الشام فاستشارهم فقالوا تبعث إليه حتى يقدم به ههنا وتقفهُ لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه ثم تصلبه، فقال لهم: هل عندكم غير هذا؟ فقالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت كتابك، وما ذكرت النبي ﷺ وقد علمت أنها كانت ضجره لشغلي وما كنت فيه من الفتنة التي شهرت فيها نفسك، فأنظرني ثلاثاً، فقدم كتابه على ثابت فقرأه على قومه وصحبهم العطاء في اليوم الرابع، فهذا التصرف من أمير المؤمنين معاوية فيه من الحكمة والسياسة ما فيه، وهنا فإن معاوية لم يخسر شيئاً بل كسب رضا الأنصار عنه ورضي غيرهم.

ج- **الأحنف بن قيس**: جمع والي العراق عبيد الله بن زياد أعيان العراق وفيهم الأحنف بن قيس وتوجه بهم للشام للسلام على أمير المؤمنين معاوية.

قال معاوية لعبيد الله بن زياد بأن يُدخل عليه أعيان العراق أولاً فأول على قدر مراتبهم عندك وكان آخر من دخل الأحنف فلما رآه معاوية - وكان يعرف مكانته - بالغ في إكرامه وقال: إليّ أبا بحر وأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله وأعرض عن بقية القوم.

بدأ أهل العراق في شكر عبيد الله والثناء عليه والأحنف ساكت فقال له معاوية: لِمَ لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم، فقال لمن حوله: اشهدوا عليّ أنني قد عزلت عبيد الله عنكم قوموا انظروا في أمير أولّيه عليكم وترجعون إليّ بعد ثلاثة أيام، اجتمعوا بعد انقضاء الأيام الثلاثة والأحنف معهم فدخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم في المجلس الأول وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصاً وطال حديثهم في ذلك ما أفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت ولم يتحدث خلال الأيام الثلاثة السابقة مع أحد في شيء، فقال له معاوية: لِمَ لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن وليت أحداً من أهل بيتك لم تجد من بعدل عبيد الله إلى يسدُّ مسدّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن في الحاضرين الذين بالغوا في المجلس الأول في الثناء على عبيد الله، من ذكره في هذا المجلس، ولا سأل عوده إليهم، فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا عليّ أني قد أعدت عبيد الله إلا ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة في حق المتولي.

لما انفضّ الجماعة خلا معاوية بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل (الأحنف) فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه، واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عوناً وذخراً، قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سرّه[1].

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان، ٢/ ٥٠٤، ٥٠٣.

من هذا نتبين مدى خبرة معاوية بالرجال فقد أعطى الرجل قدره وأدرك رفعته ومكانته وهذا من فنون السياسة في كيفية احتواء أهل القوة والتأثير على الناس واستيعابهم.

ومن القصص التي تدل على مدى سعة صدر معاوية ومعرفته للرجال وعواقب الأمور:

دخل الأحنف يوماً على معاوية بعد أن استقر الأمر له، فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة؟ فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدن من الحرب فتراً ندن منها شبراً، وإن تمشي إليها نهرول إليها، ثم قام وخرج وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع ما دار بينهما، فقالت يا أمير المؤمنين من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟ فقال لها: هذا الذي إذا غضب، غضب لغضبه مائة ألف من تميم لا يدرون فيما غضب[1].

وهذا التصرف يوضح مدى العقلية الفذة والحكمة التي يتمتع بها معاوية فيستوعب مَنْ أمامه ويسعهم.

د- **أبو قتادة الأنصاري** ﷺ : ذكر ابن عبدالبر في الاستيعاب، أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصاري فقال له معاوية: يا أبا قتادة، لم يكن معنا دواب. ثم قال: فأين النواضح؟ قال أبو قتادة: عقرناها في طلبك، وطلب أبيك يوم بدر، قال: نعم يا أبا قتادة، قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إنّا سنرى بعده أثرة» قال معاوية: فما أمركم به عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر، قال: فاصبروا حتى تلقوه.

خامساً: تواضعه وورعه: ظهر تواضعه من خلال خطبه حيث قال: «أيها الناس، ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير مني، عبدالله بن عمر، عبدالله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية وأنكأكم في عدوكم وأدرككم حلباً».

---

(١) وفيات الأعيان، ٢/ ١٨٦.

روى الإمام أحمد بسنده إلى علي بن أبي حلبة عن أبيه قال: «رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس على قميص مرقوع. وبلغ من ورعه ﷺ، أنه لما رأى إحدى جواريه، ونظر إليها بشهوة، لكنه شعر بعجزه في وطئها، قال لمن أحضرها له: اذهب بها إلى يزيد بن معاوية، ثم قال: لا أُدع لي ربيعة بن عمرو الجرشي - كان فقيهاً - فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة، وقد رأيت منها ذلك وذلك وإني أردت أن أبعث بها إلى يزيد، فقال له ربيعة: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنها لا تصلح له، فقال له معاوية: نِعْمَ ما رأيت، ثم وهب معاوية الجارية لعبدالله بن مسعدة الغزاري، مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ وكان أسود وقال له: بيّض بها ولدك»[1].

وكان ﷺ بكّاءً من خشية الله، فقد سمع ﷺ حديثاً لرسول الله ﷺ عن أبي هريرة عن أولئك الثلاثة من خلق الله تُسّعر بهم النار يوم القيامة. قال معاوية: قد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظن من حوله أنه هالك، ثم أفاق ومسح عن وجهه وقال. صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

ما سبق ذكره، هي من صفات معاوية ﷺ، تُظهر مدى حنكته وسياسته ودهاؤه في تصريف الأمور وحبه لرعيته وخشيته من لله تعالى وقدرته على معرفة الرجال وكيفية التعامل معهم وقدرته على سياسة الأمور وتدبير شؤون وأمور دولته الناشئة، رحمه الله وأحسن مثوبته.

ثناء العلماء على معاوية ودخول دولته في خير القرون:

١- **عمر بن الخطاب** ﷺ: قال: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية». وقال لمعاوية لما رآه في موكب يتلقاه وراح إليه في موكب «ويحك ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك».

---

(١) البداية والنهاية، ١١/ ١٧٩٦.

٢- **علي بن أبي طالب** ﷺ: قال: «لا تكرهوا إمارة معاوية، فوالله لئن فقدتموه لتروّن رؤساء تندرعن كواهلها كأنها الحنظل» فهذا توجيه من علي كرم الله وجهه لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية لمعرفته بالرجال.

٣- **عبدالله بن عمر رضي الله عنهما**: قال: «ما رأيت أحداً أسود من معاوية». قال: قلت ولا عمر؟ قال: «كان عمر خيراً منه وكان معاوية أسود منه».

٤- **عبدالله بن عباس رضي الله عنهما**: قال: «ما رأيت رجلاً كان أخلق بالمُلك من معاوية»، وفي صحيح البخاري أنه قيل لابن عباس: «هل لك في أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة: قال إنه فقيه»، كما قال فيه: «لله در ابن هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته والله ما شتمنا على منبر قط».

٥- **سعد بن أبي وقاص** ﷺ: قال: «ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب» - يعني معاوية -.

٦- **أبو هريرة** ﷺ: كان يمشي في سوق المدينة وهو يقول: «ويحكم تمسكّوا بصدعي معاوية اللهم لا تُدركني إمارة الصبيان».

٧- **أبو الدرداء** ﷺ: قال: «ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة به من أميركم هذا» - يعني معاوية - .

٨- **سعيد بن المسيب رحمه الله**: قال الزهري: سألت ابن المسيب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لي: «اسمع يا زهري من مات مُحباً لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وشهد للعشرة بالجنة، وترحّم على معاوية كان حقيقاً على الله أن لا يناقشه الحساب»[1].

٩- **عبدالله بن المبارك رحمه الله**: سُئل ابن المبارك عن معاوية فقال: «ما أقول في رجل قال رسول الله ﷺ: سمع لمن حمده فقال خلفه ربنا ولك الحمد؟ فقيل أيّها أفضل؟ هو أم

---

(١) البداية والنهاية، ١١/ ٤٤٩.

عمر بن عبدالعزيز؟ فقال: لتراب في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبدالعزيز»[1].

١٠- عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: قال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم ابن ميسرة قال: «ما رأيت عمر بن عبدالعزيز ضرب إنساناً قط إلا إنساناً شتم معاوية فإنه ضُرب أسواطاً».

١١- أحمد بن حنبل ﷺ : سئل: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحي، ولا أقول إنه خال المؤمنين المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غصباً؟ قال أبو عبدالله: «هذا قول سوء رديء، يجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون ونُبّين أمرهم للناس».

١٢- القاضي ابن العربي المالكي: تحدث عن الخصال التي اجتمعت في معاوية فذكر منها: «قيامه بحماية البيضة، سدّ الثغور، إصلاح الجند، الظهور على العدو، سياسة الخلق... فعمر ولاه وجمع له الشامات كلها وأقرّه عثمان»[2].

١٣- ابن تيمية رحمه الله: قال: «اتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكاً ورحمة .. ولم يكن من ملوك المسلمين خيراً منهم في زمان معاوية إذا نُسبت أيامه إلى أيام من بعده».

١٤- ابن كثير رحمه الله: قال: «مات معاوية والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض والمسلمون معه في راحة وعدل وصفح وعفو». كما قال: «كان حليماً، رئيساً، سيداً في الأرض، كريماً، عادلاً، شهماً، جميل العفو كثير الستر».

وختاماً، تعرض معاوية ودولته وبنو أمية عموماً لسهام بعض الكُتّاب، وزعم بعضهم أنها دولة مدنية، وقال البعض إنها كانت دولة عربية ولم تكن دولة إسلامية، كما قال البعض من الموتورين العاملين ضد الإسلام إن دولتهم دولة علمانية، لا صلة لها

---

(١) المصدر السابق.

(٢) العواصم من القواصم، ابن العربي، ص٢١٠-٢١١.

بالدين ولا بالأخلاق، هذا كلام فيه الكثير من الكذب والافتراء على خلفاء الإسلام من بني أمية كلام يخالف الواقع وحقائق الدين وشواهد التاريخ. وقد حكم بنو أمية من سنة ٤١هـ إلى سنة ١٣٢هـ وشملت خير القرون للأمة مصداقاً لقوله ﷺ «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1].

ومن تأمل سيرة معاوية بإنصاف، وجد الرجل التقي العادل الحريص على إقامة الإسلام في شعائره وشرائعه متبعاً لسنّة رسول الله ﷺ مقيماً العدالة في شتى مجالات الحياة.

العلاقة بين معاوية والأمة وهو رئيس لدولة الإسلام :

للخليفة في الإسلام كما للأمة حقوق وعلى كل منهما واجبات مُطالب بها ومُحاسب عليها، وبالنسبة لأول خليفة أموي فما هي أهم الواجبات الملقاة على عاتقه تجاه رعيته الدنيوية والآخروية؟

أولاً: أهم الواجبات:

١- العمل على أن يكون الدين مصوناً عن أية إساءة في العقيدة وغيرها وهذا ما عبّر عنه الإمام الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية «حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أوضح له الحجة، وبيّن له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروساً من أي خلل، ولذا فعلى الخليفة تنصيب القضاة ليحكموا بين الناس بشريعة الله».

٢- توفير الأمن لكل آحاد الأمة، وإقامة الحدود التي نصت عليها الشريعة على كل مقترف الجرائم التي تستحق حداً ولا يفرق في إقامته بين شريف وحقير حتى تكون محارم الله مصونة من أي انتهاك.

---

(١) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، رقم ١٦٤٥.

٣- إحاطة ثغور دولة الإسلام بسياج منيع من القوة، حتى لا يتسلل الأعداء من أي ثغرة لضرب الأمة على غفلة من أمرها وجهاد أعداء الإسلام الذين منعوا نشر دعوته حتى يدخلوا في الإسلام أو في أهل الذمة.

٤- جباية موارد بيت المال من: الزكوات، الصدقات، الفيء وتقدير المساعدات التي تقدم من بيت مال المسلمين للأسر المحتاجة ورواتب الجند والموظفين وتأمين القواعد الضابطة لذلك.

٥- الإشراف بنفسه على ما هو متصل بها يجب عليه نحو الرعية، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته ومن مسؤولياته اختيار ذوي الكفاءة الموثوق بقدرتهم ودينهم وصلاحهم للمناصب القيادية في الدولة والإشراف بنفسه عليهم وأن يحافظ على مبدأ الشورى، لأنه من سمات الحكم في الإسلام، وسنرى لاحقاً كيف تعامل معاوية رضي الله عنه مع هذه الواجبات وقربه أو بُعده في تطبيقها.

ثانياً: حقوق الخليفة: للخليفة حقوق على رعيته تعينه على القيام بما هو موكول إليه من أهمها:

١- طاعته والانقياد له في كل ما أمر الله به ونهاه عنه ما دامت لا تتعارض مع أحكام الشريعة فله حق ولاء المواطنين جميعاً وخاصة أهل الحل والعقد وكل من بايعه والقيام بنصرته إذا احتاج الأمر إلى ذلك، وخاصة ضد البُغاة وكل من رفع عليه السلاح فنصرته نصرة للمسلمين وكفٌّ للمعتدين وتحجيمهم.

٢- أن يكون للخليفة مخصصات من بيت المال تكفيه ومن يعول، لأن رئاسته للدولة ورعايته لأمور الرعية تشغله عن السعي لكسب الرزق.

٣- أن يخبره أهل الصلاح ومن تهمهم أمور الرعية عن أحوال من ولاّهم المناصب العامة كالولاة والقضاة عند انحرافهم عن الطريق لتقويمهم فالإمام مكلف شرعاً بمتابعة أعمالهم لإصلاح ما اعوجّ من أعمالهم وتنبيههم عما غفلوا عنه من وجوه المصلحة العامة لأنه محاسب أمام الله عن أخطائهم في حق الله وحق الرعية. وتقديم النصح له من أعمال البر والتقوى، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

ثالثاً: عاصمة الدولة وأحاديث الرسول ﷺ في فضائل بلاد الشام: كانت بلاد الشام من أهم ولايات الدولة البيزنطية كمركز حضاري واستراتيجي، ولما فيها من خيرات وخضرة وأسواق، وكانت دمشق هي المدينة الأولى في بلاد الشام وكانت قاعدة للحاكم الإداري الروماني وحافظ عليها المسلمون واتخذها الأمويون عاصمة لهم وأقام معاوية علاقات وطيدة مع سكانها أثناء ولايته على الشام وتزوج من إحدى قبائلها فتزوج ميسون الكلبية التي ولدت له يزيد فضمن ولاؤهم له ولأبنائه من بعده.

اعتمد معاوية على القبائل اليمنية بدمشق والشام واتخذها عاصمة لدولته لوقوعها بين جزئي العالم الإسلامي الشرقي والغربي وكانت لهذه القبائل اليد الطولى في تدعيم حكمه فكانت القوة العسكرية والسياسية التي استند عليها في الحكم.

وكان لأحاديث الرسول ﷺ الأثر الواضح في هجرة الناس إلى الشام واعتزاز أهلها بالإسلام وحرصهم على زعامة العالم الإسلامي.

وقد ميّز ﷺ أهل الشام بالقيام بأمر الله دائماً إلى آخر الدهر وأنهم هم الطائفة المنصورة.

- كان معاوية يحتج لأهل الشام بحديث رسول الله ﷺ القائل: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة»[1] وفي رواية هم بأكناف بيت المقدس.
- كان أهل المدينة يسمون أهل الشام بأهل المغرب وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يفضلهم على أهل العراق وذهب إلى الشام ولم يذهب للعراق. وكذلك الخليفة أبو بكر كانت عنايته بفتح الشام أكثر من عنايته بفتح العراق.

رابعاً: أهل الحل والعقد في خلافة معاوية ﷺ : تقلص دورهم في المدينة بوفاة معظمهم أو بتفرقهم في الأمصار وانتقل التأثير والفاعلية لزعماء الأمصار ومنهم زعماء الشام الذين أصبحت لهم قدرة على الحسم السياسي وعجز أهل المدينة عن ذلك، اختلف

(١) البخاري، رقم ٧٣١١. ومسلم، ١٩٢٠.

العلماء في معنى أهل الحل والعقد فقيل إنهم أولو الأمر وقيل الأمراء أو العلماء، أصحاب محمد وأبو بكر وعمر، وقيل هم علماء الشريعة ، وقيل هم أهل الاختيار وأهل الاجتهاد، وقيل إنهم أهل الشورى وأهل الرأي والتدبير والشوكة، وهم الذين لهم القدرة على عقد نظام جماعة المسلمين في شؤونهم العامة (السياسية، الإدارية، التشريعية، القضائية ونحوها).

تكون أهل الحل والعقد في عهد معاوية ﷺ من: الولاة، زعماء القبائل، قادة الجيوش ونحوهم.

خامساً: الشورى في خلافة معاوية ﷺ : لم يكن ﷺ يصدر أي أمر في المهمات إلا عن مشورة، فكان يشاور ذوي الرأي من الولاة وأشراف القوم وأهل العلم وكان من كبار مستشاري معاوية ﷺ عمرو بن العاص، المغيرة بن أبي شعبة، أما أمر الخلافة فحصره في بني أمية وعليه فكان في عهد بني أمية نوعين من الشورى:

١- شورى تتعلق بالأمور والمصالح العامة، يرجعون لذوي الرأي من أشراف القوم والولاة.

٢- شورى تتعلق بالسلطان خاصة، يفزعون فيها إلى آل بيتهم ويقضون فيها بينهم.

لم تكن قيادة معاوية للدولة فردية خالصة، فهناك اللامركزية في الحكم والإدارة في الأغلب، ومشاركة الرجال من أهل الرأي والخبرة في حمل المسؤولية، ولم يكن تحول الخلافة إلى مُلك وراثي تحولاً كاملاً عن شورى الراشدين أو ارتداداً عن أوامر الإسلام ومنهجيته في الحكم، وظلت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على مذاهب الحق في عهد معاوية والعصر الأموي وإلى عهد الرشيد في العهد العباسي كما يقول ابن خلدون وبعدها ذهبت الخلافة ولم يبقَ إلا اسمها وانتعشت معاني الخلافة أحياناً في العهد العثماني.

سادساً: حرية التعبير في خلافة معاوية ﷺ : أطلق أمير المؤمنين معاوية حرية الكلام والتعبير عن الرأي ما دام ذلك في حدود التعبير عن الرأي، أما إذا انقلب الأمر لحمل السلاح وقيام الثورات كما فعل الخوارج فلا مفر من مواجهة ذلك عسكرياً.

من المواقف التي تدل على حرية التعبير، حق المعارضة السلمية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما حدث بين معاوية وغيره وكيف قابلها معاوية والأمثلة:

أ- **أبو مسلم الخولاني**: عالِم رباني، لا يجامل ولا يداهن وقف أمام معاوية واعظاً فقال: «إيّاك أن تميل على قبيلة من العرب فيذهب حيفك بعدلك»، وكان يُذكِّر معاوية بمسؤولياته تجاه رعيته ويحثه على أداء حقوقه. ودخل مرة على معاوية فقال: «السلام إليك أيها الأجير»، فقال الناس: بل الأمير فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول: قال أبو مسلم: «إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيراً فولاّه ماشيته وجعل له الأجر على أن يحسن الرعية ويوفر جزازها وألبانها، فإن أحسن رعيتها ووفر جزازها حتى تلحق الصغيرة وتسمن العجفاء، أعطاه أجره وزاده من قبله زيادة، وإن هو لم يُحسن رعيتها وأضاعها حتى تهلك العجفاء وتعجف السمينة ولم يوفر جزازها وألبانها، غضب عليه صاحب الأجر». قال معاوية: ما شاء الله. انظر أخي كيف حثّ أبو مسلم معاوية على الاهتمام بأمر الرعية وحذّره من التهاون أو التفريط في إصلاح شؤونهم عن طريق ضرب المثل. وعندما حبس معاوية العطاء وصعد للمنبر قام إليه أبو مسلم وقال له: لِمَ حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدّك ولا من كدّ أبيك ولا كدّ أمك حتى تحبس العطاء، عندها غضب معاوية غضباً شديداً، فنزل عن المنبر وقال للناس: مكانكم وغاب عنهم ساعة ثم عاد فقال: إن أبا مسلم كلّمني بكلام أغضبني، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الغضب من الشيطان، والشيطان خُلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل»[1] وإني دخلت فاغتسلت وصدق أبو مسلم إنه ليس من كدّي ولا كدّ أبي فهلموا إلى أُعطياتكم.

ب- **الفرزدق يهجو معاوية**: هجا الفرزدق معاوية لغرض شخصي عندما أعطى معاوية عم الفرزدق (الحتات بن يزيد) جائزة أقل من الآخرين ومات الحتات في الطريق فأخذ معاوية الجائزة وردّها لبيت المال، فقال الفرزدق مخاطباً معاوية:

فلــو كــان هــذا الأمــر في جاهليــة   علمــت مــن المــرء قليــل جلائبــه

(١) سنن أبي داود، ٤/ ٢٤٩.

ولـو كـان هـذا لأمـر في غـير ملككـم　　لأبديتـــه أو غــصَّ بالمـــاء شـــاربه
وكـم مـن أب لي يـا معـاوي لم يكـن　　أبـوك الـذي مـن عبـد شـمس يقاربـه

فما زاد معاوية على أن بعث إلى أهل الحتاحت بجائزته محترماً رأي الفرزدق.

ج- **أم سنان بنت خيثمة في مجلس معاوية**: كانت أم سنان من أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ قدمت في عهد معاوية دمشق فرحّب بها بعد أن قال لها: ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تبغضين قومي وتحضين عليّ عدوي؟ فقالت: يا أمير المؤمنين إن لبني عبد مناف أخلافاً طاهرة وأعلاماً ظاهرة وأحلاماً وافرة، لا يجهلون بعد علم ولا يسفهون بعد حلم، ولا يتعقبون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع سنن لأنت، قال معاوية: صدقت يا أم سنان، نحن كذلك، ثم سادت فترة صمت، قطعها معاوية بسؤاله أم سنان عن شعرها تُحرض عليه أيام عليّ فردت قائلة: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين وإنّا لنطمع أن تكون لنا خلفاً بعده فمثلك جدير بذلك، وعرّضت بجلسائه الذين يحفظون من شعرها ضده. فقالت والله ما ورثك البغض في قلوب المسلمين إلا أمثال هؤلاء وطلبت إبعادهم فإن فعلت ازددت من الله عز وجل قرباً ومن المسلمين حُباً.

ومن أقوالها: والله ما مثلك قدح بباطل ولا أعتذر إليه بكذب وكان والله علي ﷺ أحبّ إلينا منك إذ كان حياً وأنت أحب إلينا من غيره إذ أنت باقٍ، تعني مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، فقال لها: وبما استحققت عليهما؟ قالت: بحُسْن حلمك وكرم عفوك. وبعد انتهاء الحديث بينهما سألها معاوية: ما حاجتك الآن يا أم سنان؟ قالت: فك أسر حفيدي في المدينة، فلبّى لها طلبها وأكرمها وعادت للمدينة ولسانها يلهج بالدعاء لمعاوية وبمثل هذه الحرية في الرأي والتعبير عما يجول في النفس والنقد البنّاء والمعارضة السلمية نال معاوية حب الناس إذ سمح لهم بالتعبير عما يعتقدون بكامل الحرية في حدود المعارضة السلمية البناءة.

السياسة الداخلية لمعاوية ﷺ :

سنتكلم عن سياسة معاوية الداخلية من خلال المجالات الثمانية التالية لنتعرف كيف إنه اعتُبر بحق المؤسس الأول لدولة بني أمية والمجالات هي:

أولاً: الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم وبخاصة «بنو هاشم».

ثانياً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه وحرصه على توطين الأمن في خلافته.

ثالثاً: حياة معاوية في المجتمع واهتماماته العلمية.

رابعاً: التصرف مع الخوارج في عهده.

خامساً: النظام المالي في عهد معاوية ﷺ.

سادساً: القضاء في عهد معاوية والدولة الأموية.

سابعاً: الشرطة وإقرار الأمن في عهده.

ثامناً: الولاة والإدارة في عهد معاوية.

أولاً: الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم

كان معاوية ﷺ يهتم بغزو القلوب والإحسان عليها، كان يبذل المال لكبار الشخصيات القيادية في المجتمع، ولعل أشراف «بنو هاشم» كانوا أكثر قيادات الأمة في إغداق المال عليهم لأنهم في عُرف الناس يمثلون القيادات الشعبية الذين تلجأ إليهم الأمة أكثر مما تلجأ إلى الولاة والأمراء ومن الذين أحسن إليهم معاوية:

١- **الحسن بن علي ومعاوية بعد الصلح**: كان معاوية يرسل إليه كل سنة مائة ألف درهماً وكان الحس والحسين رضي الله عنهما يقبلان جوائز معاوية الذي كان وهب كل منهما مائة ألف درهماً سنوياً، كما أمر بمائة ألف لعبدالله بن الزبير قائلاً له: مرحباً بابن عمة رسول الله ﷺ وابن حواريه.

٢- **عبدالله بن عباس مع معاوية**: كان معاوية يحترمه ويقدره ويلقي عليه المسائل الصعبة فيجيب عنها سريعاً، وقال معاوية في حقه: «ما رأيت أحداً أحضر جواباً منه». كان ابن عباس عند معاوية عندما جاءه خبر موت الحسن بن علي فعزّاه أحسن تعزية كما بعث بابنه يزيد الذي جلس بين يدي ابن عباس وعزّاه بعبارة فصيحة وجيزة.

أعطى معاوية ابن عباس مائة ألف درهم وقال له خذهما فاقسمها في أهلك، وكان ابن عباس مستشار معاوية للشؤون العلمية، وكان معاوية يعترف بفضل «بنو هاشم» على «بنو أمية» وكان يحذر بني أمية من الإساءة إلى آل علي قائلاً: «إن الحرب أولها نجوى وأوسطها شكوى وآخرها بلوى»، وكان يطلب من خلصاء علي وصفه وسرد روائع خصاله واتهام معاوية بأنه حمل الناس على سبّ علي ولعنه فوق المنابر لا أساس لها من الصحة، وهي افتراء من كتبة الشيعة كاليعقوبي والأصفهاني والتاريخ يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء[1]، بل كان معاوية يحترم ويقدر أمير المؤمنين علي وأهل بيته الأطهار، هذا وتسربت أكذوبة كُتّاب الشيعة كالمسعودي إلى كتب تاريخ أهل السنّة للأسف وكان معاوية محمود السيرة في الأمة، أثنى عليه الكثير من الصحابة ومدحه خيار التابعين وشهدوا له بالعلم والدين والعدل والحلم وسائر خصال الخير[2].

إكرام معاوية للحسن والحسين وابن عباس وإجزال العطاء لهم ما يقطع الكذب مما يدعي في حق معاوية من حمله الناس على سب علي، إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة والتكريم وبهذا يكون معاوية أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش البذيء، وكان ﷺ قد نهى عن سب الأموات من المشركين فكيف بمن يسب أولياء الله الصالحين كما يدّعي الشيعة.

٣- معاوية وسمّ الحسن بن علي: هناك عدة روايات في ذلك لم تثبت صحتها، ويقول الدكتور جميل المصري: نحن لا ننكر أنه مات مسموماً، فإذا ثبت ذلك فهذه شهادة له وكرامة في حقه، وأما اتهام معاوية وابنه يزيد فهو غير ثابت من حيث السند ولا من حيث المتن وهل زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال حتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد بن معاوية لتصبح زوجة له، أليست جعدة ابنة أمير قبيلة كندة كافة الأشعث بن قيس وزوجها هو الحسن بن علي أفضل الناس شرفاً ورفعة بلا منازع فأمه فاطمة وجدّه الرسول محمد ﷺ وكفى به فخراً وأبوه علي بن أبي طالب

(١) الحسن والحسين، محمد رضا، ١٨، تحقيق د. أحمد أبو الشباب.

(٢) الانتصار للصحب والآل، د. الزحيلي، ص٣٦٧.

أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، وما هو الشيء الذي تسعى إليه جعدة حتى تقوم بهذا العمل الخطير.

٤- **موقف معاوية من قتلة عثمان رضي الله عنهما**: كان من ضمن شروط الصلح بين معاوية والحسن بن علي عند تنازله عن الخلافة لمعاوية ترك المطالبة بدم عثمان من أهل المدينة والحجاز والعراق. وترك صفحة الماضي وفتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل، حيث تم الصلح على أساس العفو والمطلق عن كل ما كان بين الفريقين وبهذا تم بسط الأمن وحفظ الدماء في عهد معاوية إلى حد كبير.

٥- ندم معاوية ﷺ على قتله حجر بن عدي بن حاتم رغم ضرورة قتله لحفظ وحدة المسلمين.

ثانياً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه وتوطينه للأمن:

١- **مباشرة معاوية للأمور بنفسه**: كان ﷺ يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة في دولته، فقد كرّس جلّ وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين ومن مباشراته:

أ- **مجلس معاوية في يومه**: كان معاوية يظهر في اليوم والليلة خمس مرات، بعد صلاة الصبح يجلس للقصاص ثم يقرأ جزأه من القرآن ثم يصلي أربع ركعات، ثم يخرج إلى مجلس فينادي بخاصته فيحدثهم ويحدثونه، ثم يدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم ثم يجلس على كرسيه فيقدم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة وبعدها يجلس على سريره ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم فإذا استووا جلسوا قال لهم: ارفعوا حاجة من لا يصل إلينا فاقضوا حوائجهم، ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه فيقدم الرجل فيقال له: اجلس على المائدة فيأكل لقمتين أو ثلاثاً والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمره ثم يأتي من بعده حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم (أربعون أو نحوهم) على قدر الغداء ثم يرفع الغداء وينصرف الناس ويدخل منزله حتى ينادي للظهر فيصلي ثم يجلس فيأذن لخاصته الخاصة فيأتيهم بالأخيصة اليابسة والحلوى شتاءً وبالفواكه الرطبة صيفاً. ثم يدخل عليه وزراؤه لحاجاتهم إليه ثم يجلس للعصر ثم يخرج

للصلاة ثم يدخل منزله وآخر وقت العصر يجلس على سريره ويؤذن للناس على منازلهم ثم يؤتى بالعشاء فصلاة المغرب وأربع ركعات أخرى ثم يدخل منزله وبعد العشاء الآخر، يؤذن للخاصة وخاصة الخاص والوزراء والحاشية ثم يسمر ثلث الليل من أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسير الأمم وحروبها ثم تأتيه الحلوى من نسائه ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم ويقرأ عليه غلمانه دفاتر من سير الملوك وأخبارهم والحروب والمكائد ثم يخرج لصلاة الفجر وهكذا.

ب- الدواوين المركزية التابعة لمعاوية:

- **ديوان الرسائل**: هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره إلى موظفيه في الأقاليم الإسلامية إلى البلدان الخارجية ذات العلاقة بالدولة الإسلامية، ومن أشهر من أشرف على هذا الديوان في عهد معاوية هو عبدالله بن أوس الغساني وزمل بن عمرو العذري.

- **ديوان الخاتم**: أنشأه معاوية لتأمين السرية والأمان لمراسلات الدولة ومن أهدافه تحاشي التزوير والتلاعب في الكتب التي يصدرها الخليفة للأقاليم تم أصبح سجلاً للكتب الصادرة ومن أعماله بالإضافة إلى عمليات الصرف والحسابات الإشراف على تدقيق الدواوين الأخرى، وقد تقلد الخاتم الكبير لمعاوية عبدالله بن محصن الحميري ويلصق الكتاب من طرفه بالشمع والطين الأحمر ثم يوضع خاتم الخلافة.

- **ديوان البريد**: معاوية هو أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية فأمنّ الخيول في عدة أماكن واقتبسه عن الروم وأجرى تحسينات على طرق المواصلات ولم يقتصر الديوان على ما يتعلق بالدولة بل كان يحمل في بعض الأحيان رسائل الناس من بلد لآخر.

ومن أشهر من اشتغل فيه مع معاوية نصر بن ذبيان، الكميت، لنقل الأخبار بين الشام والحجاز بواسطة البغال والخيل وقسّم الخليفة الطرق إلى مسافات (محطات) يسلم كل منهم البريد لمن يليه والمسافة بين كل محطة والأخرى أربعة فراسخ (١٢ ميلاً).

- **نظام الكتبة**: هذا الديوان أكبر دواوين الدولة، تنسخ فيه أوامر الخليفة ثم تودع في ديوان الخاتم حيث تختم وتخرم بالشمع ثم تختم بختم صاحب الديوان.

كانت الدواوين السابقة تقوم بأعمال وزارة المالية (الخراج)، ووزارة الدفاع (الجند)، ووزارة الداخلية (الشرطة)، ووزارة العدل (القضاء). أما ديوان الرسائل فيقوم بأعمال السكرتارية وديوان الخاتم بأعمال السجلات والأرشيف وكان الديوان في العراق يكتب بالفارسية وفي مصر والشام بالرومية حتى عرّبه الخليفة عبدالملك بن مروان.

٢- حرص معاوية على توطيد الأمن: اتخذ معاوية عدة وسائل لتحقيق الأمن في ربوع الدولة منها:

أ- **الحاجب**: معاوية أول من اتخذه ليتجنب محاولات الاعتداء عليه فأمر معاوية بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه عند السجود[١]. ويشترط في الحاجب معرفة منازل الناس ليعرف من يأذن لهم بالدخول ومن لا يأذن لهم.

ب- **الحرس**: اتخذهم خوفاً من الخوارج الذين يريدون قتله فعملت المقصورات في الجوامع ليكون فيها الحراس.

ج- **الشرطة**: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام، القبض على اللصوص والمفسدين، الدفاع عن الخليفة. وممن تولاها في عهد معاوية قيس بن حمزة الهمذاني، الضحاك بن قيس وغيرهم وانتشر الشرطة في الولايات ويتبعون للولاة ويحلون محل الجند المنشغلون في الحروب الخارجية وهدفهم حماية أرواح الناس وحفظ حقوقهم وأموالهم من الاعتداءات.

د- **حُسْن اختيار الرجال والأعوان**: اختارهم معاوية من ذوي الخبرة والإدارة والدهاء من أمثال: عمرو بن العاص، المغيرة بن شعبة، زياد ابن أبيه، الضحاك بن قيس. ومن القادة في القتال: المهلب بن أبي صُفرة، عقبة بن نافع، مالك بن هبيرة. وساهم هؤلاء جميعاً في إدارة الدولة وفتوحاتها وتوطيد الأمن في أرجاء الدولة واستخدم معاوية المال في تأكيد الولاء وتأليف القلوب وإسكات من يكرهه.

---

(١) من تاريخ الطبري، ٦/ ٦٥.

هـ- اتبع معاوية سياسة الشدة واللين في الوقت نفسه حسب الظروف «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت...» كما اتبع سياسة المنفعة المتبادلة «إن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم» واتخذ سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته ومن أقواله «أحبّ الناس إليّ أشدهم تحبيباً لي إلى الناس» استمال الشعراء وأغدق عليهم الأموال فهم خير إدارة إعلامية في ذلك الزمان وكان يحرص على امتصاص غضب الشعراء بحلمه وعفوه وإكرامه لهم وذلك لقوة تأثيرهم.

و- أنشأ معاوية جهاز المخابرات لجمع المعلومات ويشرف عليه بنفسه، فكان له جهاز سري مربوط به لمراقبة الولاة والرعيّة ووصلت عيونه حتى للبلاط البيزنطي، وكان معاوية مطلعاً على المراسلات بين الحسين وأهل العراق فذكره بالله وأن لا يشق عصا المسلمين، لذا ظل الحسين ملتزماً ببيعته لمعاوية طول عهد معاوية كما كان ﷺ على معرفة بما يقوله كبار الشخصيات وذوي النفوذ كمعرفته بقصة الأسير القرشي عند البيزنطيين التي سبق ذكرها، كما وضع بعض أتباع علي في الكوفة لمراقبة المغيرة بن شعبة الذي كان يأخذهم معه لكل صلاة. كما اهتم ﷺ ببناء الجيش الإسلامي الذي قام بفتوحات كثيرة كما سيمر بنا لاحقاً.

ز- ولضبط الأمور وتوطيد الأمن في دولته اتبع سياسة الموازنات ما بين كلب وفهر بصورة خاصة وبين قحطان وقيس بصورة عامة حيث تمكن من الموازنة بين القبائل الشامية الكبرى ضمن الحدود المطلوبة.

ح- أما سياسته مع أسرته من بني أمية، لم يكن لبني أمية في عهده دور بارز في إدارة الدولة فكان معظم ولاته وقادته الذين استعان بهم من غير أفراد أسرته من بني أمية ورغم ذلك استعان بالأكفاء من أفراد أسرته.

ثالثاً: حياة معاوية في المجتمع واهتماماته العلمية :

١- تميزت حياة معاوية مع مجتمعه بمزايا جعلته على قرب منهم وولائهم له واقترب من مشاكلهم وحلّها وقضى لهم حوائجهم وإليك نماذج حية مما عمله معاوية:

- قال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين ألستُ بأنصح الناس لك؟ قال له: وبذلك نلت ما نلت مني.

- أن بسر بن أبي أرطأة نال من علي بن أبي طالب في مجلس معاوية وكان من الجالسين زيد بن عمر بن الخطاب فعلا رأس بسر بعصاه فشجه فتدخل معاوية فقال لزيد: عمدت إلى شيخ من قريش سيد أهل الشام فضربته، ثم أقبل على بسر وقال له: تشتم علياً وهو جده وابن الفاروق على رؤوس الناس، أوَ كنت ترى أن يصبر على ذلك، ثم أرضاهما جمعياً وأصلح بينهما[1].

- نصيحة معاوية لشاعر من بني أمية: قال معاوية للشاعر عبدالرحمن بن الحكم بن أبي العاص: يا ابن أخي، إنك قد لهجت بالشعر فإياك والتشبب بالنساء فتُعرّ الشريفة (تسيء إليها) والهجاء فتعر كريماً .. وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وتؤدب به غيرك.

- قضاء ديون أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: قال ابن أختها عروة بن الزبير، بعث معاوية مرة إلى عائشة بمائة ألف درهماً فوالله ما أمست حتى فرقتها، كما أنه قضى عنها ثمانية عشرة ألف ديناراً[2].

- تأثر معاوية ﷺ بموت الصالحين: حين توفى ابن لعتبة بن أبي سفيان جاء ناس لمعاوية يعزونه في ابن أخيه فقال: إن موت غلام من آل أبي سفيان قبضه الله ليس بمصيبة، إنما المصيبة كل المصيبة لموت أبي مسلم الخولاني.

- الاهتمام بحوائج المسلمين: كان معاوية يشفق على نفسه عسى أن يكون احتجابه عن المسلمين ذنباً يحاسب عليه بعد سماعه حديثاً لرسول الله ﷺ : «من ولاّه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره» لذا جعل رجلاً على حوائج الناس يبلغه بها كي لا يغيب عنه شيء منها[3]. لذا كان

---

(١) من تاريخ الطبري، ٦/ ٢٥٣.

(٢) سير أعلام النبلاء، ٣/ ١٥٤.

(٣) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص٢٧٣ نقلاً عن البداية والنهاية.

عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يرسل بريداً إلى معاوية أمر مناديه ينادي من له حاجة فليكتب بها إلى أمير المؤمنين[1].

- اهتمام معاوية ﷺ بالمساجد والعيون: عمل على توسعة المسجد الحرام وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف واهتم بالمسجد الأقصى وقام واليه على مصر مسلمة بن مخلد بزيادة في المسجد الجامع بالفسطاط سنة ٥٣هـ وبنى له أربعة منارات شامخة وفرشه بالحصير وأمر المؤذنين أن يكون آذانهم في الليل في وقت واحد، كما وسع المغيرة بن شعبة المسجد الجامع بالكوفة ثم زاده توسعة زياد ابن أبيه وفرشه بالحصى كما زاد في مسجد البصرة زيادة كبيرة، كما اهتم معاوية أيضاً بالمرافق العامة وحرص على توفير مياه الشرب في المدينة وأجرى في الحرم المكي عيوناً وأنشأ آبار للمياه على الطرقات وكان يطبخ طعام الحجاج والصائمين من الفقراء في شهر رمضان وقفاً في سبيل الله في دار المراجل بمكة، كما أقام سباقاً للخيل في دمشق مع تقديم جوائز ثمينة للفائزين.

- عندما رأى معاوية ﷺ ابنه يزيد يضرب غلاماً له قال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك؟ والله لقد منعتني القدرة من الانتقام من ذوي الإحن وإن أحسن من عفا لمن قدر[2]. وذكّر ابنه بقدرة الله عز وجل عليه ليحط من تعاظمه بنفسه وليخشَ الله فيمن هو تحت يده.

٢- **اهتمامات معاوية العلمية**: شهد عهد معاوية نهضة في علوم: التفسير والقرآن والفقه والعقيدة، وظهر عدد من العلماء الأعلام مثل: ابن عباس، أبو هريرة، عبدالله بن عمر. وظهر الاهتمام بعلوم أخرى مثل:

أ- **التاريخ**: اهتم معاوية بتاريخ الأمم السالفة وسير الملوك والحروب، استدعى معاوية أحد علماء التاريخ البارزين من اليمن إلى دمشق (عبيدة بن شريه) وسأله عن

---

(١) تاريخ الطبري، ٦/ ٢٥٤.

(٢) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ الإسلامي، ١٧/ ٢٣.

أخبار القدماء وملوك العرب والعجم وتدوين ما تحدث به ابن شريه فكان كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين.

ب- **اهتمام معاوية بالشعر واللغة**: بلغ من اهتمام معاوية بالشعر حفظه له وكان الشعراء من المقربين لمعاوية مثل الشاعر مسكين الدارمي والذي نظم قصيدة في البيعة لمعاوية وكان معاوية يكره اللحن في اللغة، لذا ظهر في عهد معاوية الكثير من النحويين مثل «أبو الأسود الدؤلي» الذي وضع في البصرة أسس علم النحو.

ج- **اهتمام معاوية بالعلوم التجريبية**: تم ترجمة علوم الأعاجم من الفرس والروم على أيدي الشارحين والمحترفين في هذا المجال فأنشأ معاوية بيتاً للحكمة (مركز للبحث ومكتبة) وكان لابن أثال النصراني طبيب معاوية دور في نقل بعض معارف الطب إلى العربية[1].

وكان خالد بن يزيد أول من عُني بنقل الطب والكيمياء إلى العربية بواسطة جماعة من اليونانيين درسوا بالإسكندرية في مصر وأتقنوا العربية الذين نقلوا الكثير من الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية فترجموا كتب جالينوس في الطب وأنشئت أول دار للكتب في العالم الإسلامي في دمشق.

رابعاً: الخوارج في عهد معاوية:

الخوارج هم من خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لقبوله مبدأ التحكيم مع معاوية، ولم يتمكن علي من إقناعهم وردهم إلى الجماعة ثم عاثوا في الأرض فساداً مما اضطر علي لمقاتلتهم وهزيمتهم في معركة النهروان. وكانوا قد سموا أنفسهم بالشراة لأنهم باعوا أنفسهم لله كما سموا بالمحكمة لأنهم قالوا لا حكم إلا لله كما سموا بالحرورية نسبةً لقرية حروراء بظاهر الكوفة وصاغوا أنفسهم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة وهذين المبدأين كما ورد في كتاب النظريات السياسية الإسلامية لمحمد ضياء ص٢٧ هما:

(١) عيون الأبناء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيعة، ص١٧١٧.

المبدأ الأول: أن الخلافة ليست وقفاً على قريش كما يذهب إلى ذلك أهل السنّة، وتجوز لأي مسلم يكون أهلاً لها ولا يجوز له أن يتنازل عنها إذا تم اختياره فلم يعترفوا بخلافة معاوية وبني أمية بل كفّروهم وأباحوا أموالهم ودماءهم.

المبدأ الثاني: وجوب الخروج على الإمام الجائر وشهروا السلاح في وجوه مخالفيهم وأرادوا فرض آرائهم ومذهبهم بالقوة. وكانوا بأشبه بالفِرَق الانتحارية، وأنهم لم يكونوا طلاب دنيا وإنما أخلصوا للفكرة التي آمنوا بها وكلفوا بنظريتهم واعتقاداتهم الأمة الكثير من الجهد، الوقت، المال، الأرواح، وغادروا الكوفة سنة ٤١هـ.

اتصفت حركة الخوارج في عهد معاوية بالعشوائية وقلة التنظيم، الافتقار للقيادة الواعية والمحنكة، قيامهم بعمليات انتحار جماعي، استبعادهم أسلوب الحوار والمناظرة في دعوتهم، اختلاط الدوافع الدينية مع دوافع العصبية الجاهلية في حركاتهم، شعورهم بالغربة داخل المجتمع المسلم بسبب أفكارهم، سلوكهم طريقة منكرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسبب قلة العلم والجهل في الدين، افتقارهم لطول النفس والصبر في مشروعهم التغييري.

كان معاوية على وعي بحقيقة الخوارج فلم يعمل على جلبهم لصفّه بل قرر التصدي لهم بالقوة، وكان واليه المغيرة بن شعبة يراقبهم ويتجسس عليهم وإنزال أقصى العقوبات بهم، وتمكن المغيرة من تعميق هوّة الخلاف بين الخوارج والشيعة لذلك سلك المغيرة مع أنصار علي سياسة اللين لكسبهم لجانبه ضد الخوارج في الكوفة.

أدت سياسة زياد بن أبيه القاسية في البصرة إلى إخماد تحركات الخوارج وفرض هيبة الدولة وقتل وصلب منهم الكثير وتجاوز عبيد الله بن زياد سياسة والده في قمع الخوارج بفرضه العقوبات على الجميع فسجن وقتل وفرض الإقامة الجبرية.

خامساً: النظام المالي في عهد معاوية ﷺ:

أولاً: مصادر دخل الدولة: تتكون مصادر بيت المال من:

١- **الزكاة:** أهم مصدر لكونها ثابتة في الكتاب والسنّة وهي أحد أركان الإسلام الخمسة ولتنظيمها ثم إيجاد ديوان لها هو ديوان الصدقات.

٢- **الجزية**: وهي ما يؤخذ من أهل الذمة مقابل الدفاع عنهم، وهي ثابتة في السنّة والإجماع وتحديد الشريحة التي تؤخذ منها الجزية ٤٨ درهماً في السنة على الغني و٢٤ درهماً على الفرد المتوسط ومن دون ذلك عليه ١٢ درهماً وكان إيراد الدولة منها كثيراً لكثرة الفتوحات.

٣- **الخراج**: وهو إيراد الدولة من الأراضي التي افتتحها المسلمون عنوة وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام وكان لجمع الخراج في العهد الأموي ديوان خاص يقوم بجمعها هو ديوان الخراج وهو من أعظم واردات الدولة.

٤- **العشور**: هي الأموال التي يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة الإسلامية الداخلة والخارجة من أرض الدولة وتشبه ما يسمى الرسوم الجمركية في عصرنا الحاضر. أول من فرضها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهي بنسبة ١٠٪ على الحربي وعلى الذمي نصف العشر وعلى المسلم ربع العشر واستمرت كذلك في العهد الأموي.

٥- **الصوافي**: هو ما اصطفاه الإمام لبيت المال من أرض الفيء بلا حرب أو من البلاد المفتوحة عنوة بحق الخمس أو باستطابة نفوس الفاتحين.

٦- **خمس الغنائم**: الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال وأخذوه عنوة وزادت موارد الدولة من الغنائم لكثرة الفتوحات.

ثانياً: **النفقات العامة**: زادت المنفقات بسبب حركة الفتوح وتصرف النفقات على:

١- **النفقات العسكرية**: وهي:

أ- **رواتب الجند**: تدفع بواسطة ديوان الجند المقدر فيه أعطيات الجنود، زاد معاوية في أعطياتهم وكان عدد الجند المسجلين في الديوان في عهد معاوية أربعون ألفاً في مصر وستون ألفاً في الشام وثمانون ألفاً في العراق.

ب- **نفقات الصناعات الحربية**: بلغ عدد قطع الأسطول في بداية تكوينه مائتي مركب ووصل في عهد سليمان بن عبدالملك إلى (١٨٠٠) سفينة كبيرة.

٢- **النفقات الإدارية:** تكون من رواتب الموظفين + نفقات المستلزمات الإدارية (شموع وأوراق الكتابة). وكان والي الإقليم هو الذي يحدد الرواتب لنفسه ولعمّاله حسب ما يرى، مما ساعد على ظهور مرتبات كبيرة فبلغ مرتب زياد ابن أبيه (والي العراق) ٢٥ ألف درهماً شهرياً عدا المخصصات الإضافية وبلغ أكبر راتب لصاحب الشرطة في العصر الأموي مائة ألف درهم سنوياً. أما رواتب القضاة المتفرغين فحدّها الأدنى (١٢٠٠) درهماً سنوياً والأعلى ثلاثة آلاف درهماً سنوياً.

٣- **مصارف الزكاة:** حسب آية مصارف الزكاة الآية ٦٠ من سورة التوبة ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ .

٤- **مصارف الفيء:** حسب الآية ٧ من سورة الحشر ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

٥- **نفقات الضمان الاجتماعي:** عبارة عن مساعدات عينية ونقدية (قضاء الديون، الزواج) والعينية مثل قائد لكل أعمى، وخادم لكل خمسة أيتام وشملت في عهد معاوية أيضاً النفقة على غير المسلمين.

ثالثاً: اهتمام الدولة بالزراعة: ظهرت في العهد الأموي الملكيات الزراعية الكبيرة، عن طريق إحياء الأرض الموات من أراضي الصوافي الخراجية وخاصة في إقليم العراق. فقد أحيا والي معاوية على خراج العراق أرضين من البطائح لمعاوية بقطع الماء عنها لتجفيفها ثم زراعتها وبلغت غلتها خمسة ملايين درهماً لعظم مساحتها ولم يكن ريعها كله لنفقات معاوية الخاصة بل يتدارك منها شيئاً من النقص في النفقات العامة، ومن الناحية الشرعية فإحياء الأرض الموات مُباح بل من إحدى أسباب تملكها للحاكم والمحكوم شريطة أن يكون الإحياء من مال الحاكم الخاص وعدم استغلال سلطته ومكانته، وأن لا يضر غيره من المسلمين، هذا وقد تعرض القطاع الزراعي بشكل عام للتدهور في المنطقة الشرقية لأسباب منها:

أ- الاضطراب السياسي وفقدان الأمن.

ب- تركز الثروة في يد قلة من سكان المنطقة.

ج- إعادة ضريبة النيروز والمهرجان التي بدأت مع عهد معاوية حيث كان الناس اعتادوا دفعها رغم منع الإسلام لها، لكن معاوية سحب مبالغها من غير المسلمين من الدهاقنة مسؤولو الجباية حتى لا يكونوا مراكز ثروة يتقوّوا بها ضد الدولة الإسلامية. وكان يُنفقها على مصالح الأمة الإسلامية، فتحول الدهاقنة والأمراء المحليين في ابتكار ضرائب إضافية عديدة[١] أرهقت كاهل المزارعين.

د- إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية ونتج عن ذلك غرق الكثير من الأراضي الزراعية وتحولت الأرض إلى موات.

هـ- معاناة الدولة من مهاجرين قدموا لإقليم العراق وبحكم البطالة عملوا على إحداث ثقوب في نظام الري مما أدى إلى تخريب المزارع وإغراقها بالماء.

و- المواجهة العسكرية بين المزارعين، مهاجرين الأرياف من الموالي والدولة، وانضمامهم لثورة ابن الأشعث ضد الحجاج ونتج عن ذلك تدهور في القطاع الزراعي العام.

ز- اعتماد غالبية الأراضي في بلاد الشام في ريّها على مياه الأمطار والمياه الجارية على سطح الأرض من مياه الأنهار والعيون وبعضها تروى بواسطة الآلات التي ترفع المياه للري.

ورغم ذلك اتخذت إجراءات خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة بواسطة بعض الولاة مثل زياد ابن أبيه الذي أنشأ جسراً يمنع طغيان الماء على الكوفة، وعملية نقل الأيدي الزراعية من منطقة لأخرى فنقل زياد ابن أبيه خمسين ألف أسرة من البصرة والكوفة من ذوي الخبرة الزراعية إلى أراضي خراسان لتعميرها[٢].

---

(١) الخراج، لأبي يوسف، ص١٨٦-١٨٧.

(٢) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، للدوري، ص٢٧.

رابعاً: اهتمام الدولة بالتجارة الداخلية والخارجية: بحكم توسط موقع الدولة الأموية فكان لها علاقات تجارية مع الصين والهند والدولة البيزنطية وعمل معاوية على توسيع نطاق التجارة خاصة أن أهل الشام متميزين بحرفة التجارة ففتحوا علاقات تجارية مع غرب أوروبا مستفيدين من الأسطول البحري الإسلامي. وساعد نشاط حركة التجارة على الثراء الكبير الذي نعمت به الطبقة الحاكمة وحاشيتهم، والذين مالوا للبذخ والرفاهية واقتناء المنتوجات الكمالية وشراء السلع باهظة الثمن وقد اهتم معاوية بالتجارة منذ كان والياً على الشام، وكان للتجار مكانة اجتماعية عالية في العصر الأموي وأسسوا شركات على مبدأ المضاربة وأصبحت العاصمة دمشق مركزاً تجارياً مهماً ومحطة للتجارة الشرقية ومركزاً لتوزيع البضائع لشتى المناطق.

وكما قال ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان: «مستحيل أن يطلب شيء في أسواق دمشق ويكون غير موجود»، وكانت مركزاً للسلع غالية الثمن المستوردة من جميع أنحاء العالم المتمدن. وكانت مدن الشام مراكز للأسواق الموسمية مثل سوق بُصرى الذي يستمر من ٣٠-٤٠ يوماً وكذلك سوق أذرعات.

ازدهرت التجارة الخارجية في عهد معاوية وابنه يزيد مع الدولة البيزنطية بسبب الانشغال بكثرة الحروب في مناطق الدولة الشرقية والاستقرار الأمني في بلاد الشام واستخدمت أوراق البردي والدنانير الذهبية البيزنطية في التجارة.

خامساً: الحرف والصناعات: نظراً للنشاط الزراعي في الأقاليم، تطورت الصناعات المعتمدة على المواد الخام للقطاع الزراعي مثل: صناعة النسيج، المعاصر، المطاحن، كما تطورت مستلزمات البناء وصناعة السفن التجارية. ونظراً لقرب الدولة الأموية من البيزنطيين فقد طور الأمويون بناء أسطولهم الحربي للوقوف أمام الأسطول الحربي البيزنطي انفردت مصر بصناعة السفن حتى سنة ٤٩هـ ثم أمر معاوية بإنشاء داراً لصناعة السفن في عكا مستعيناً بخبراء من مصر وبالأخشاب من جبل لبنان، كما تم إنشاء منطقة صناعية جديدة خاصة بصناعة السفن الحربية في مصر سنة ٥٤هـ وأصبحت هذه المناطق مناطق استثمار وجذب سكاني.

إنشاء وظيفة المشرف العام على دار الصناعة «متولي الصناعة» ومن مهامه: جمع الطاقات البشرية الفنية، توفير المواد الخام، تحديد أجور العُمّال وتوفير الغذاء، الراحة، السكن لهم.

كانت الدولة البيزنطية متفوقة على الدولة الإسلامية في ميادين البحر، لهذا عمل معاوية على إضعافها ثم القضاء عليها حتى تحول البحر المتوسط من بحر الروم إلى بحر الإسلام وفي هذا دروس وعبر لقادة وعلماء الأمة للتعرف على عوامل الضعف عندنا وعوامل القوة عند أعدائنا لضربها وإضعافها لتتحول من دول تابعة إلى دولة ذات سيادة وقوة، وعليهم السعي لامتلاك وسائل التغير مثل ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل لإحداث التوازن مع الآخرين وإفشال عوامل سيطرتهم على بلادنا وخيراتها والعمل على الإعداد السليم والمدروس لامتلاك الأسلحة الرادعة لنحمي بها أمتنا وديننا فنقيم العدل ونرفع الظلم والاستبداد والسيطرة على البشرية.

ومن أشهر الصناعات في العهد الأموي: صناعة السفن التجارية والحربية، اختصت البحرين بإنتاج السفن التجارية، بينما اختصت مصر وعكا وتونس بتصنيع السفن الحربية. كما تخصصت مدينة واسط في العراق بصناعة القوارب الصغيرة لاستخدامها في: النزهة، السفر، نقل السلع التجارية بين واسط والبصرة عبر نهري دجلة والفرات.

سادساً: القضاء في عهد معاوية والأمويين:

كان القضاء في العهد الأموي امتداداً للقضاء في العهد الراشدي وتطويره بما يناسب توسع الدولة الأموية وتنوع سكانها وإليك بعض التفاصيل:

أولاً: صلة العهد الأموي بالعهد الراشدي: كان القضاء في عهد معاوية امتداداً للعهد الراشدي نظراً لوجود الكثير من الصحابة ومشاركتهم في الفقه والقضاء ووجود كبار التابعين وصغارهم الذين ساهموا في تثبيت التربية الدينية وسمو العقيدة والإيمان الالتزام بأمور الدين والتقيد بأحكام الشرع، كما ظهر الكثير من المجتهدين الذين مثلوا صلة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية ذات الأثر على حُسْن سير القضاء وتوفير العدالة.

ثانياً: تخلي الخلفاء عن ممارسة القضاء وفصل السلطات: تولي الخلفاء والولاة القضاء بأنفسهم في العهد الراشدي وتولى معاوية القضاء والحكم بنفسه عندما كان والياً

على الشام، لكن لما أصبح خليفة تخلّى عن ممارسة القضاء، فعيّن القضاة في حاضرة الدولة الإسلامية بدمشق ومنحهم الصلاحيات الكاملة في الدعاوى وسار الولاة في الأمصار على هذا النهج وابتعدوا عن تولي القضاء.

انقطعت صلة خلفاء بني أمية عن أمور القضاء ما عدا ثلاثة أمور هي:

١- تعيين القضاة مباشرة من قِبَلهم في العاصمة دمشق.
٢- الإشراف على أعمال القضاة وأعمالهم وأحكامهم الصادرة للتأكد من مطابقتها للحق والعدل والشرع.
٣- ممارسة قضاء المظالم وقضاء الحسبة ومن رعاية خلفاء بني أمية لقضاء المظالم أنشأوا له جهازاً مستقلاً.

كان القضاء في العهد الأموي مستقلاً عن أي سلطة، وما على الخلفاء والولاة إلا تنفيذ الأحكام التي يصدرها القضاة.

ثالثاً: **رزق القضاة**: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هو الذي فصل القضاء عن الولاية وأول من رتب أرزاق القضاة وكانت الأرزاق تجرى على القضاة من بيت المال مع التوسعة عليهم باختلاف البلد والظرف والموقع، روى الشعبي عن شريح أنه كان يأخذ على القضاء خمسمائة درهماً شهرياً وكان بعض القضاة لا يأخذون أجراً ويحتسبون أجرهم من الله تعالى من أمثال القاضي مسروق بن الأجدع.

رابعاً: **تسجيل الأحكام والإشهاد عليها**: تسجل الأحكام القضائية في سجل وديوان المحكمة للرجوع إليها عند الحاجة، وأول من سجّلها سليم بن عنز التجيبي قاضي مصر في عهد معاوية وأشهد عليها لتوثيقها.

خامساً: **أعوان القضاة**: ظهر أعوان للقاضي بعد كثرة أعمال القاضي وكثرة الشكاوى ومن أعوانه:

١- الكاتب.
٢- المنادي: يقف على رأس القاضي وينادي على الخصوم.

٣- الحاجب: الذي يرتب دخول الخصوم.
٤- المترجم: بعد دخول الكثير في الإسلام أصبحت الحاجة إلى مترجم تتحقق فيه الثقة في نقل الأقوال.

سادساً: المراقبة والمتابعة: تخلّي الخلفاء والولاة عن ممارسة القضاء لم يمنعهم من مراقبة أعمال القضاة ومراجعة أحكامهم ومتابعتها فإن وجدوا خللاً أو تقصيراً تصدوا للتقويم والتصحيح.

سابعاً: مصادر الأحكام القضائية: الكتاب والسنّة والإجماع والسوابق القضائية، الاجتهاد مع الاستشارة والتقيد بما يصدر عن الصحابة وكان للعُرف والعادة أثر على أقضية الحكام.

ثامناً: اختصاص القضاة وتخصيص القضاء: بعد انشغال الخلفاء بالفتوحات وإدارة الدولة وإخماد الثورات، كلفوا القضاة النظر في الجنايات والحدود.

كان القاضي في العهد الأموي عام النظر في الحقوق والأموال وأحكام الأسر المواريث والقصاص والحدود وذكر هذه المهام وكيع في كتابه «أخبار القضاة» والكندي في كتابه «الولاة والقضاة».

أضيفت للقاضي في العهد الأموي أعمال إضافية مثل: النظر في أموال الأيتام، الإشراف على الأوقاف والإفتاء وتولي بعض القضاة رئاسة الشرطة. وممن جمع بين القضاء والشرطة عابس بن سعيد في الفسطاط سنة ٦٠ هـ، كما كان ينوب القاضي أحياناً عن الخليفة إذا خرج من دمشق وكذلك عن الوالي.

تاسعاً: من أسماء القضاة في عهد معاوية:

١- قضاة دمشق: فضالة بن عبيد، النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري.
٢- قضاة المدينة: أبو هريرة، عبدالله بن الحارث، أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف، وأخيه مصعب.
٣- قضاة البصرة والكوفة: عميرة بن يثربي الضبّي، عمران بن حصين، عبدالله بن فضالة وأخوه عاصم، زرارة بن أوفى، شريح القاضي (٣٥ سنة قاضياً)، مسروق بن الأجدع الهمداني.

٤- قضاة مصر: سُليم بن عنز، عابس بن سعد المرادي.

عاشراً: ميزات القضاء في عهد معاوية والأمويين:

١- إقامة العدل والحق والنزاهة والموضوعية مع مراعاة التطور واستعمال وسائل الإثبات الشرعية مع الفراسة.
٢- ظهور العُرف كمصدر للأحكام القضائية إضافة للمصادر الأصلية.
٣- كان الخلفاء يعنون القضاة في الشام ويرشحون البعض للأقاليم كما كان الولاة يعنون ويعزلون القضاة.
٤- اختيار أحسن الناس للقضاء من العلماء والفقهاء والشرفاء.
٥- ظهور تطورات على القضاء مثل: تسجيل الأحكام، الإشراف على الأوقاف وأموال الأيتام ومراقبة الأوصياء، ترتيب الدعاوى، تعيين أعوان للقاضين الاستعانة بالشرطة لتنفيذ الأحكام القضائية.
٦- لهم الحق في الاجتهاد في إصدار الأحكام القضائية، ولهم الحرية في استنباط الأحكام من مصادرها، ولم يتقيدوا برأي الخلفاء أو الالتزام بمذهب فقهي.
٧- مستقلين في عملهم فلم يتأثروا بسياسة الحكام والخلفاء والخلافات الفكرية والميول السياسية.

هذا وقد استفاد معاوية من الخطاب الذي أرسله له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما كان معاوية والياً على الشام أرسل له كتاباً في القضاء.

سابعاً: الشرطة في عهد معاوية:

أصبحت مؤسسة الشرطة مسؤولة عن توفير الأمن وإقرار النظام في جميع الأقاليم وأصبحت الشرطة المدافع الأول عن نظام الأمن الأموي وحمايته من اعتداءات الفِرَق المعارضة من خوارج وشيعة، وكان معاوية يأمر حراسه بالوقوف عند رأسه في الصلوات لحمايته من مناوئيه. وإليك المعلومات الآتية عن الشرطة:

أولاً: الشرطة في العراق: أول والٍ استعان بالشرط لبسط الأمن في العراق (الكوفة) هو المغيرة بن شعبة وعيّن صاحباً للشرطة من عُرف بشراسته وقسوته وهو قبيصة بن دمّون.

ولما أصبح زياد بن أبيه والياً على البصرة سنة ٤٥هـ خطب الناس خطبة طويلة وضّح فيها أسلوبه لمعالجة التدهور الأمني، فكلف صاحب الشرطة بحراسة الطرقات بعد صلاة العشاء نظراً لانتشار السرقات وتمكن الشرطة من قتل حوالي خمسمائة من اللصوص. ويعتبر زياد بن أبيه أول من منع التجول ليلاً، فيخرج صاحب الشرطة فلا يرى إنساناً إلا قتله، وفي ذلك تجاوزات لا تقرها الشريعة مهما كانت التبريرات، وكان هدف زياد بن أبيه من وراء ذلك فرض هيبة الدولة والحصول على طاعة العامة حتى تستقيم أمور البصرة، لذا أعاد تنظيم جهاز الشرطة لتحقيق السيطرة الفعالة على الأوضاع الأمنية فزاد عددهم وعيّن في منصب صاحب الشرطة اثنين بدلاً من واحد. وكما يقول الطبري في تاريخه أن زياد بن أبيه هو أول من شدّ أمر السلطان وأكّد حكم معاوية وألزم الناس بطاعته فعاقب بالظنّة والشبهة فخافه الناس خوفاً شديداً وعندها ضمّ معاوية الكوفة إلى ولاية زياد بن أبيه لشدته ففرض الأمن فيها.

هذا، ولم تلعب الشرطة الدور نفسه في مصر نظراً لاستتباب الأمن فيها لبُعدها عن الاضطرابات.

ثانياً: واجبات الشرطة: للشرطة واجبات مهمة تجاه السلطة والمجتمع من أهمها:

١- حماية الخليفة وولاة الأمصار من مناوئيهم في الداخل، استخدم معاوية الشرطة في حِلّه وترحاله وفي أثناء صلاته لحمايته. وكان صاحب الشرطة هو المسؤول الأول عن سلامة الوالي كما ذكر الطبري في تاريخه كما استعان معاوية بالشرطة في جمع المعلومات وأخبار الولاة والعُمّال والرعية.

٢- معاقبة المذنبين والخارجين على القانون وتقوم الشرطة بتنفيذ الحدود الشرعية التي يأمر بها القضاة ضد كل من يظهر منه فساد في المجتمع.

ثالثاً: قوات ومؤسسات أخرى داعمة للشرطة: منها:

١ - **الحرس**: وظيفتهم حماية الخلفاء والولاة وأول من اتخذهم لحمايته الشخصية هو الخليفة معاوية وخاصة من خطر الخوارج.

٢- **الحرس من غير العرب**: استخدموا لضرب الثورات التي تقوم بها المعارضة وسُمّوا «البخارية» حيث استخدمهم والي خراسان ممن أُسر من أهل بخاري وأصبح مقرهم البصرة وأجريت عليهم الأعطيات من قِبَل عبيد الله بن زياد حتى يساندوا الشرطة للقضاء على ثورات الخوارج في العراق واشتهر البخاري في الرمي بالقوس واستخدمهم بعض الأشراف لحمايتهم الشخصية.

٣- **العُرفاء**: عملهم مراقبة العامة وتبليغ السلطات عن الحركات المشبوهة.

٤- **صاحب الاستخراج أو العذاب**: وظيفته معاقبة المختلسين وتعذيبهم لكي يقروا بمكان وجود المال المختلس. الذي أوجد هذه الوظيفة هو زياد بن أبيه لاسترداد الأموال المختلسة ممن ظهرت عليهم إمارات الخيانة المالية.

٥- **جهاز الحسبة**: الوظيفة الإشراف على تنظيم الأسواق والعمليات التجارية فيها. ومن مهام المحتسب: جباية الضرائب على المبيعات، تحصيل أجرة الدكاكين التابعة للدولة المسؤولية عن الأسواق (دقة الأوزان والمكاييل والتفقد المفاجئ لها ومنع الارتفاع الفاحش لأسعار السلع، منع الاحتكار).

٦- **نظام المراقبة**: وذلك بخصوص المناوئين بإلزامهم الصلاة جماعة في مساجد معينة (مثل الإقامة الجبرية حالياً) وكذلك لمراقبة الأجانب الذين يدخلون دار الإسلام.

٧- **مؤسسة الدرك**: لتحقيق الأمن خارج حدود المدن الكبيرة من طرق وسُبل.

ثامناً: الولاة والإدارة في خلافة معاوية:

اتخذ معاوية رضي الله عنه من دمشق العاصمة المركز الرئيسي الذي تصدر منه الأوامر السياسية والاقتصادية والإدارية للدولة.

بالنسبة للولايات، ترك معاوية لكل والٍ أن يقوم حسب خبرته وجدارته على أن يكونوا مسؤولين أمامه مسؤولية مباشرة ومحاسبين على كل عمل يقومون به.

كما عمل معاوية على حفظ التوازن بين رحالات القبائل في بلاد الشام وخاصة بين القبائل اليمانية والقيسية، لذا كان في خدمته من القبائل القيسية (الضحاك بن قيس

الفهري وحبيب بن مسلمة الفهري) ومن القبائل اليمنية (مالك بن هبيرة وشرحبيل بن سمط الكندي وحسان بن بحدل الكلبي) لذا حاربوا لجانبه تحت إمرة واحدة.

ومن سياسة معاوية أيضاً الاستعانة بأفراد من أقاربه مثل: عنبسة بن أبي سفيان، عتبة بن أبي سفيان، الوليد بن عتبة، سعيد بن العاص بن أمية، مروان بن الحكم وابنه عبدالملك.

حرص معاوية ﷺ على اختيار أعوانه وولاته من ذوي الخبرة والتجارب الواسعة من أمثال: عبدالله بن عامر، المغيرة بن شعبة، النعمان بن بشير الأنصاري، مسلمة بن مخلد الأنصاري واستعان معاوية بأهل الصحبة والكفاية والولاء وُلاة على الأمصار وجعل من مدن الحجاز مدرسة يدرب فيها أبناء البيت الأموي على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرج في عمل الإدارة، وكان يجعلهم متفرقين عن بعضهم البعض ليتجنب أي تحالف منهم ضده.

ومن حُسْن إدارة معاوية أن تمتع في عهده رعايا الدولة من غير المسلمين بمنتهى التسامح والرفق، وحصلوا على امتيازاتهم بسهولة ويسر، فأبقى على النظم البيزنطية والقبطية المعمول بها في الشام ومصر والمغرب وكذلك النظم الفارسية في العراق وخراسان وكان طبيب معاوية الخاص غير مسلم «ابن أُثال» وكان مستشاره المالي الرومي سريح بن منصور، كما استعان بمهندسين وفنيين من غير المسلمين في بناء قصر الخضراء بدمشق وكان متسامحاً مع الموالي فجعل منهم عُمّالاً على الخراج وحرساً وحجاباً.

واختار ولاته على الأمصار من أهل الخبرة ومن اتصفوا بالحزم والشدة، وخاصة للعراق ومن أشهر الولاة:

أولاً: ولاة البصرة:

١ - بسر بن أرطأة سنة ٤١هـ وعبدالله بن عامر من سنة ٤١هـ إلى٤٤هـ.

٢ - زياد بن أبيه من سنة ٤٥هـ إلى سنة ٥٣هـ: كان والياً لعلي بن أبي طالب على خراسان وكان مخلصاً له غاية الإخلاص وتمكن معاوية من ضمّه لصفه بعد مقتل علي

مستخدماً معه لغة التهديد والترغيب أثناء اعتصامه بفارس، وبعد الصلح بين معاوية والحسن بن علي تمكن المغيرة بن شعبة من إقناع زياد ابن أبيه بمبايعة معاوية والدخول في طاعته واستلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان كما أورد ذلك الطبري في تاريخه وذكر ابن تيمية أن أبا سفيان كان يقول إن زياد بن أبيه من نطفته. وذكره الإمام مالك في الموطأ باسم زياد بن أبي سفيان.

لما ولي زياد البصرة سنة ٤٥ هـ خطب الناس خطبته المشهورة (البتراء) وكان يتمتع بقدرة إدارية فائقة وقام بإصلاحات ضرورية وضم إليه معاوية ولاية الكوفة.

٣- سمرة بن جندب: أقره معاوية على ولاية البصرة ستة أشهر بعد زياد ثم عزله وعيّن مكانه عبدالله بن عمرو بن غيلان سنة ٥٤هـ ثم خلفه عبيد الله بن زياد ابن أبيه.

ثانياً: ولاة الكوفة:

١- المغيرة بن شعبة سنة ٤١هـ: صحابي، شهد بيعة الرضوان وفقد عينه يوم اليرموك وهو القائل: «أنا آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ» اشتهر بالدهاء والمكر والكيد. وقاتل الخوارج بعنف ووسع مسجد الكوفة وظل والياً على الكوفة إلى سنة ٤٩ أو ٥٠هـ وبعد موته ضم معاوية الكوفة لولاية زياد ابن أبيه على البصرة.

٢- زياد ابن أبيه: ضم إليه معاوية الكوفة بعد وفاة المغيرة واستخلف زياد على الكوفة عبدالله بن خالد بن أسيد بعد موت زياد بن أبيه.

٣- بعد عزل معاوية لعبدالله بن خالد سنة ٥٥هـ ولّى عليها الضحاك بن قيس وخلفه بعد عزله عبدالرحمن بن عبدالله الثقفي سنة ٥٨هـ.

٤- النعمان بن بشير: خلف عبدالرحمن الثقفي سنة ٥٩هـ إلى سنة ٦٠هـ.

ثالثاً: ولاة المدينة المنورة: أكرم معاوية أهل المدينة بالعطايا لمكانتها الروحية والدينية. ومن أشهر الولاة عليها:

١- مروان بن الحكم (٤٢هـ-٤٩هـ).

٢- سعد بن العاص (٤٩-٥٤هـ) تولاها بعد عزل مروان بن الحكم الذي عاد لها ثانية سنة ٥٤هـ إلى سنة ٥٧هـ.

٣- الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بعد مروان سنة ٥٧هـ.

رابعاً: مكة المكرمة: ولّى عليها معاوية سنة ٤٢هـ خالد بن العاص بن هشام وكان ولاة الطائف من بني حرب.

خامساً: ولاة مصر:

١- عمرو بن العاص (٤١-٤٢هـ) وتوفي سنة ٤٣هـ.

٢- عبدالله بن عمرو بن العاص سنة ٤٣هـ ثم عتبة بن أبي سفيان.

٣- عقبة بن عامر الجهني (٤٥-٤٧هـ).

٤- مسلمة بن مُخلد الأنصاري (٤٧-٦٢هـ) ظل والياً عليها حتى توفي في خلافة يزيد سنة ٦٢هـ.

الفتوحات في عهد معاوية

كان معاوية يرى أن أهم الأخطار التي تتعرض لها دولته هو الخطر البيزنطي، شهدت خلافة معاوية فتوحات متنوعة في المشرق والمغرب وضد البيزنطيين. ويمكن تلخيص هذه الفتوحات من حيث المباحث الآتية:

الأول: حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية.

الثاني: فتوحات الشمال الإفريقي.

الثالث: فتوحات الجناح الشرقي للدولة الأموية.

الرابع: الدروس والعِبَر والفوائد في فتوحات معاوية.

الخامس: ولاية العهد ووفاة معاوية رضي الله عنه.

المبحث الأول: حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية

رغم خسارة الدولة البيزنطية للشام ومصر، لا زالت ممتلكاتها واسعة في آسيا الصغرى وأوروبا والشمال الإفريقي فظلت تمثل خطراً على الدولة الإسلامية، لذلك اهتم معاوية بحدود دولته المجاورة للبيزنطيين وخطط للاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية.

المناوشات بين معاوية والبيزنطيين والتخطيط لحصار القسطنطينية:

أ- الاستعداد والتخطيط الاستراتيجي:

١- تمكن معاوية من القضاء على حركات المردة (الجراجمة) الذين استخدمهم الروم وسيلة لرصد حركات الدولة الإسلامية والتعرف على نقاط ضعفها وكان مركزهم جبال طورس.

٢- اهتم معاوية بدور صناعة السفن في مصر والشام وإغداقه الأموال على صُنّاعها لتطويرها خاصة وأن الشام تتوفر فيها أخشاب الصنوبر والبلوط القوية كما يتوفر في مصر أخشاب عمل صواري وجوانب السفن وأخشاب الجميز والدوم الصالحة لصناعة المجاذيف كما استغل معاوية توفر الحديد في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس، كما توفر في مصر مادة القطران لدهان السفن ونبات الدقس لصنع الحبال.

٣- أمر معاوية عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ببناء دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة سنة ٥٤هـ ولكي يقوي معاوية الثغور البحرية في مصر والشام وضع لهذه الثغور نظاماً عُرف بالرباط وجمع لها الأتقياء والمتحمسين من المجاهدين وكان الحصن في كل رباط يضم حجرات الجند ومساكن لهم ومخازن للأسلحة والمؤن وبرجاً للمراقبة تم تطويره ليصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات وأصلح معاوية حصون مدينتي صور وعكا وخرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص وسيطر على سائر المدن الساحلية.

٤- الاستيلاء على الجزر في شرق البحر المتوسط (قبرص ورودس) وجعلها رباطاً للدفاع عن الشام وأرسل لرودس فقيهاً مجاهداً هو مجاهد بن جبر. وأراد معاوية سد منافذ

بحر إيجة الرئيسية أمام السفن البيزنطية لمنعها من الوصول إلى البلاد الإسلامية، وحقق ذلك باستيلائه على جزيرة كريت والتعبئة لضرب عاصمة البيزنطيين للاستيلاء عليها.

٥- رأى معاوية تحصين أطراف الشام الشمالية المحاذية للبيزنطيين فاهتم بإنطاكية وأغرى الناس للإقامة فيها بمنحهم إقطاعات من أراضيها وقوّى الرباط المخصص للدفاع عنهم واستولى على سميساط وملطية ثم استولى على حصن زبطرة الهام وأعاد تحصينه.

٦- لكي يعوّد معاوية جند الإسلام على الدروب والممرات الجبلية الوعرة قام بغزوات الصوائف والشواتي مما أنهك البيزنطيين ومن قادة هذه الحملات: عبدالله بن كرز البجلي، يزيد بن شجرة الرهادي، سفيان بن عون، فضالة بن عبيد ومالك بن عبدالله الخشجمي (مالك الصوائف).

ب- حصار القسطنطينية:

الحصار الأول: استغل معاوية تمرد بعض قادة الإمبراطور قسطنطين الثاني عليه فأرسل بقوات برية وبحرية بقيادة فضالة بن عبيد الليثي وسفيان بن عوف العامري ويساعدهم يزيد بن شجرة الرهوي تجاه القسطنطينية، تمكن الأسطول الإسلامي من الوصول إلى خلقيدونية من ضواحي القسطنطينية على البر الآسيوي، فحاصرها توطئة لاقتحامها، لكن حلول الشتاء ببرده القارص وانتشار مرض الجدري، اضطر قائد الجيش البري فضالة لطلب النجدة من معاوية فأرسل له مدداً يضم عدداً من الصحابة منهم: عبدالله بن عمر، عبدالله بن الزبير، عبدالله بن عمرو بن العاص، خالد بن يزيد الأنصاري وأبو أيوب الأنصاري رضي الله عنهم جميعاً وكان هذا المدد بقيادة ابن معاوية يزيد وبوصوله زحف الجميع نحو القسطنطينية وعسكروا خلف أسوارها وحاصروها ستة أشهر وأبلى يزيد في الحصار بلاءً حسناً حتى لُقِّب «فتى العرب» وأوشكوا على الانتصار لكن اعترضهم صعوبات منها: المطر الغزير، البرد القارص، نقص التموين، تفشي الأمراض، مناعة أسوار القسطنطينية واستعمال البيزنطيين للنار الإغريقية ضد السفن

الإسلامية، لذا تراجعوا وعادوا للشام وتوفي خلال الحصار خالد بن زيد (أبو أيوب الأنصاري) والذي دُفن عند أسوار القسطنطينية وصلّى عليه يزيد بن معاوية وكان قد جاوز السبعين من عمره وبنى عليه الأتراك مسجداً.

الحصار الثاني: اتخذ الأسطول الإسلامي في حصاره الثاني للقسطنطينية من جزيرة إرواد قاعدة لعملياته (٥٤-٩٠هـ) ورغم الحصار الشديد وإنهاك المسلمين للبيزنطيين إلا أن المسلمين لم يتمكنوا من اقتحامها لأسباب سبق ذكرها ويضاف إليها: السلسلة الحديدية الضخمة الحاجزة ما بين القرن الذهبي (الميناء) وبين الشاطئ الآسيوي حيث تفصل حالات الحرب ثم الموقع الجغرافي الفريد للمدينة وأسوارها الداخلية والخارجية الضخمة والمزودة بأبراج المراقبة. ويضاف لذلك ضعف التجربة الأموية في حصار المدن المتداخلة مع مياه البحر.

ونظراً للظروف الداخلية في كلا الدولتين انتهى الحصار بعقد الصلح بينهما وعودة الجيوش الإسلامية البرية والبحرية إلى الشام. وممن شارك في هذا الحصار من التابعين وتوفي مجاهداً بأرض الروم العالِم الزاهد أبو مسلم الخولاني (عبدالله بن ثوب).

المبحث الثاني: الفتوحات في الشمال الإفريقي

أولاً: حملة معاوية بن خديج ﷺ:

قرر معاوية ﷺ أن يطوق البيزنطيين من الجنوب من شواطئ شمال إفريقيا كما طوقهم سابقاً من الشرق واحتل عدداً من جزر البحر الأبيض المتوسط، لذا أرسل الخليفة معاوية سنة ٤١هـ ابن خديج على رأس حملة إلى شمال إفريقيا ثم أرسله ثانية سنة ٤٥هـ على رأس حملة كبيرة فدخل إفريقيا وكان معه عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالملك بن مروان وغيرهم من أشراف قريش وكان ملك الروم قد بعث البطريق نقفور في ثلاثين ألف مقاتل فأرسل إليه ابن خديج عبدالله بن الزبير في خيل كثيفة حتى وصل سوسة في ليبيا ونزل بالساحل، فلما وصل الخبر إلى نقفور ركب البحر منهزماً من غير قتال وأرسل ابن خديج عبدالملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء قرب

القيروان فحاصرها وقتل من أهلها الكثير ثم فتحها عنوة وأرسل ابن خديج أيضاً جيشاً بحرياً في مائتي مركب إلى صقلية وأقاموا شهراً وعادوا لإفريقيا بغنائم كثيرة ثم عاد ابن خديج إلى مصر وترك على طرابلس الغرب والياً سنة ٤٦هـ رويفع بن ثابت الأنصاري الذي غزا تونس ودخلها سنة ٤٧هـ وفتح جزيرة جربة ومات بها سنة ٥٦هـ.

ثانياً: عقبة بن نافع وفتح إفريقيا:

هو والي إفريقيا لمعاوية وابنه يزيد وهو الذي بنى مدينة القيروان، كان شجاعاً، حازماً، متديناً، شارك مع عمرو بن العاص في غزو إفريقيا مما أكسبه خبرة واسعة، أسند إليه معاوية قيادة الفتوحات في إفريقيا فأرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جيشه.

دعا عقبة أهل فزان للإسلام ثم واصل فتوحاته متجنباً المناطق الساحلية، وقصد المناطق الداخلية وفتحها بلداً بلداً وأخذ البربر لجانبه ليقيم بهم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل.

ولما رأى عقبة كثرة ارتداد البربر عن الإسلام ونقضهم للعهود، قرر إنشاء مدينة تكون قاعدة لجنده فبنى مدينة القيروان سنة ٥٥هـ، وبنى جامعها وكان مكانها مرتعاً للسباع والأفاعي فدعاهم للخروج من المنطقة ولم يبقَ فيها شيء حيث أخذت الوحوش أبناءها وغادرت المنطقة وكان عقبة ﷺ مُجاب الدعوة ولما رأى البربر المنظر أمامهم أسلموا وتعلموا العربية والقرآن الكريم وأمور الدين. وأصبحت القيروان مركزاً للحضارة الإسلامية من المغرب وعاصمتها العلمية وكان لموقعها المتوسط دور هام فأصبحت مركزاً تجارياً وعلمياً يمر بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم للمشرق.

عزل معاوية لعقبة وتولية أبي المهاجر ثم عزله وعودة عقبة:

أثناء مواصلة عقبة لفتوحاته عزله والي مصر مسلمة بن مخلد وعيّن مكانه أبو المهاجر وذهب عقبة إلى معاوية معاتباً فاعتذر إليه معاوية ووعده برده إلى ولاية إفريقيا ورده إليها ابنه يزيد لاحقاً.

رغم الإساءة من أبي المهاجر في حق عقبة عند عزله إلا أنه قام بدور كبير في فتح المغرب كان كيساً فطناً حيث رأى أن الشدة التي سار عليها عقبة لا بد أن تتغير وعليه بسياسة كسب القلوب، لأن البربر قوم أشداء يعتدّون بكرامتهم لذا فسياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة ونجح أبو المهاجر في ذلك نجاحاً كبيراً وعرف أن الروم هم الذين يؤلبون البربر ضد المسلمين، فأوضح لهم أن المسلمين جاءوا لهدايتهم وخيرهم ودعوتهم للإسلام الذي فيه سعادتهم وأنه يساعدهم على التحرر من ظلم الروم.

رغم هزائم الروم المتكررة إلا أن عاصمتهم قرطاجة ظلت قوية، لذا سار إليها أبو المهاجر ونازلها فاستعصت عليه لمناعة أسوارها ورغم ذلك استمر في حصارها حتى طلب الروم الصلح فصالحهم على أن يُخلوا جزيرة شريك قرب قرطاجة لينزل فيها جنوده ولمراقبة الروم وتحركاتهم وترك فيها حامية بقيادة حنش الصنعاني ثم هاجم مدينة ميلة واحتلها وغنم ما فيها واستقر بها لتوسطها المغربين الأدنى والأوسط، أقام بها سنتين، علم خلالها البربر تعاليم الإسلام فأقبلوا على الدخول فيه.

وصلت أبو المهاجر أخباراً بأن جمعاً من الروم والبربر بقيادة زعيم قبيلة أوربة النصراني كسيلة يستعدون لحربه فكانت بينهما معركة تلمسان، أنزل الله نصره على المسلمين وولّى كسيلة الأدبار ثم تمكن المسلمون من أسره وأحسن إليه أبو المهاجر وعامله معاملة الملوك ثم حدّثه عن الإسلام فأسلم وتعلم العربية وأصبح من المقربين لأبي المهاجر وبعد أن اطمأن أبو المهاجر لأمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر عاد لمقر قرب القيروان في قرية دكرور لرصد حركات الروم ودسائسهم وبعد وفاة والي مصر سند أبو المهاجر مسلمة سنة ٦٢هـ أعاد الخليفة يزيد بن معاوية عقبة ثانية لولاية إفريقيا بعد عزله لأبي المهاجر ورغم معاملة عقبة لأبي المهاجر معاملة قاسية ظل مخلصاً له لا يبخل عليه بالنصائح ومنها الإشارة عليه بإكرام زعيم البربر كسيلة، لكن عقبة أهانه عندما أمره أن يسلخ شاة بين يديه فدفعها إلى غلمانه، لكن عقبة أصرّ عليه أن يتولى سلخها بنفسه فأكمن ذلك في نفسه وكان سبباً في مقتل عقبة وأبي المهاجر بعد عودتهم من المغرب الأقصى.

حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢-٦٣هـ):

قام عقبة برحلته الجهادية الثانية التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان إلى ساحل المحيط الأطلسي، واستخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي وعودة عقبة - المستجاب الدعوة - للقيروان قائلاً: «يا رب املأها علماً وفقهاً واملأها بالمطيعين لك واجعلها عزاً لدينك، وذلاً على من كفر بك وامنعها من جبابرة الأرض» كما أوصى عقبة أولاده قبل رحلته الجهادية بالعلم والاهتمام بالقرآن، والبُعد عن الاستدانة واختيار أهل الورع والتقوى من العلماء والبُعد عن علماء الدنيا والجاه.

سار عقبة بجيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية، فهزم من تحصن فيها من الروم ثم سار إلى تلمسان فخرج إليه جيش ضخم، لكن المسلمين صبروا وهاجموا الروم وألجأوهم إلى حصونهم، وقاتلوهم على أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة ثم توجه غرباً نحو بلاد الزاب، وحارب ملك مدينة إربة وقتل الكثير من فرسانهم، ثم اتجه إلى تاهرت فاستغاث الروم بالبربر فنصروهم. وهنا وقف القائد المؤمن بالله والمتوكل عليه بالناس وخطبهم خطبة إيمانية خالصة، ثم قاتل أعداءه في تاهرت قتالاً شديداً، واشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوّهم، لكنهم بصبرهم وإيمانهم انتصروا في النهاية وغَنِم المسلمون أموالهم وسلاحهم[1]. ثم توجه عقبة إلى المغرب الأقصى، حتى وصل طنجة. وقابل بطريق الروم جوليان فسأله عن الروم والبربر فقال له: تركتهم خلفك وأمامك البربر في السوس الأدنى وهم قوم ليس لهم دين فتقدم عقبة والتقى مجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم إلى الصحراء، ثم غادر صحارى مراكش باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة تافلات للدوران حول جبال أطلس العليا، ليدخل بلاد صنهاجة فأطاعوه دون قتال ثم اتجه عقبة غرباً إلى مدينة تفيس ودخلها بعد انتصاره على البربر والبيزنطيين وأتم تحرير بلاد السوس الأقصى، ودخل عاصمتها إيجلي وبنى فيها مسجداً ودعا القبائل للإسلام فأجابته قبيلة جزولة، ثم سار لمدينة ماسة ومنها لرأس إيقران على البحر المحيط، وبوصوله للمحيط يكون عقب قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب وقال: «يا رب لولا هذا البحر لمضيتُ في

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/ ٥٩٠.

البلاد مجاهداً في سبيلك». وأثناء رحلة عقبة هذه، كان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وتعاليم الإسلام، ولكي يأمن هذه القبائل من الانقضاض عليه وعلى أصحابه كان يأخذ منهم رهائن ويولي عليهم رجلاً منهم.

معركة تهوذة سنة ٦٣هـ واستشهاد عقبة (وأبو المهاجر):

كان عقبة ﷺ يحس إحساس المؤمن الصادق انه سيلقى ربه شهيداً قبل خروجه للجهاد فقال لأولاده: «إني قد بعت نفسي إلى الله عز وجل» إلى أن قال: «ولست أدري أتروني بعد يومي هذا أم لا؟ لأن أملي الموت في سبيل الله»، وأوصاهم ﷺ بما أحب وبقوله هذا يكون قد نعى نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمنيته الشهادة في سبيل الله.

تُرجع الكثير من المصادر أن الكارثة التي تعرض لها عقبة ومن بقي معه من المجاهدين عند تهوده إلى سياسته المتشددة نحو البربر عامة وزعيمهم كسيلة بشكل خاص، وكما قلنا فيما سبق تميز البربر باعتزازهم بكرامتهم وعدم قبولهم للإهانة، فقد خاف عقبة غدرهم بعد إهانته - كما سبق - لزعيمهم كسيلة، لذا أشار أبو المهاجر على عقبة العمل على التخلص من كسيلة فقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره[1] لكن عقبة لم يُصغِ إلى هذه النصيحة، بل أقدم على عمل خطير، عندما أمر جيشه بالمسير أمامه عند العودة للقيروان، حيث أرسل غالب جيشه إلى القيروان أفواجاً وبقي هو وأبو المهاجر وحوالي (٣٠٠) فارساً من الصحابة والتابعين «الفوج الأخير». لما وصلت الأخبار إلى الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل فتآمر الروم عليه مع زعيم البربر كسيلة، وجمعوا جمعاً لا قِبَل لعقبة به فأحاط كسيلة بعقبة ومن معه في خمسين ألفاً من البربر وكان أبو المهاجر موثقاً بأغلال من الحديد مع عقبة فلما رأى هذه الجموع الزاحفة تمثل أبو المهاجر بقول «أبو محجن» في القادسية:

كفى حزناً أن تمرغ الخيل بالقنا واترك مشدوداً علي وثاقيا

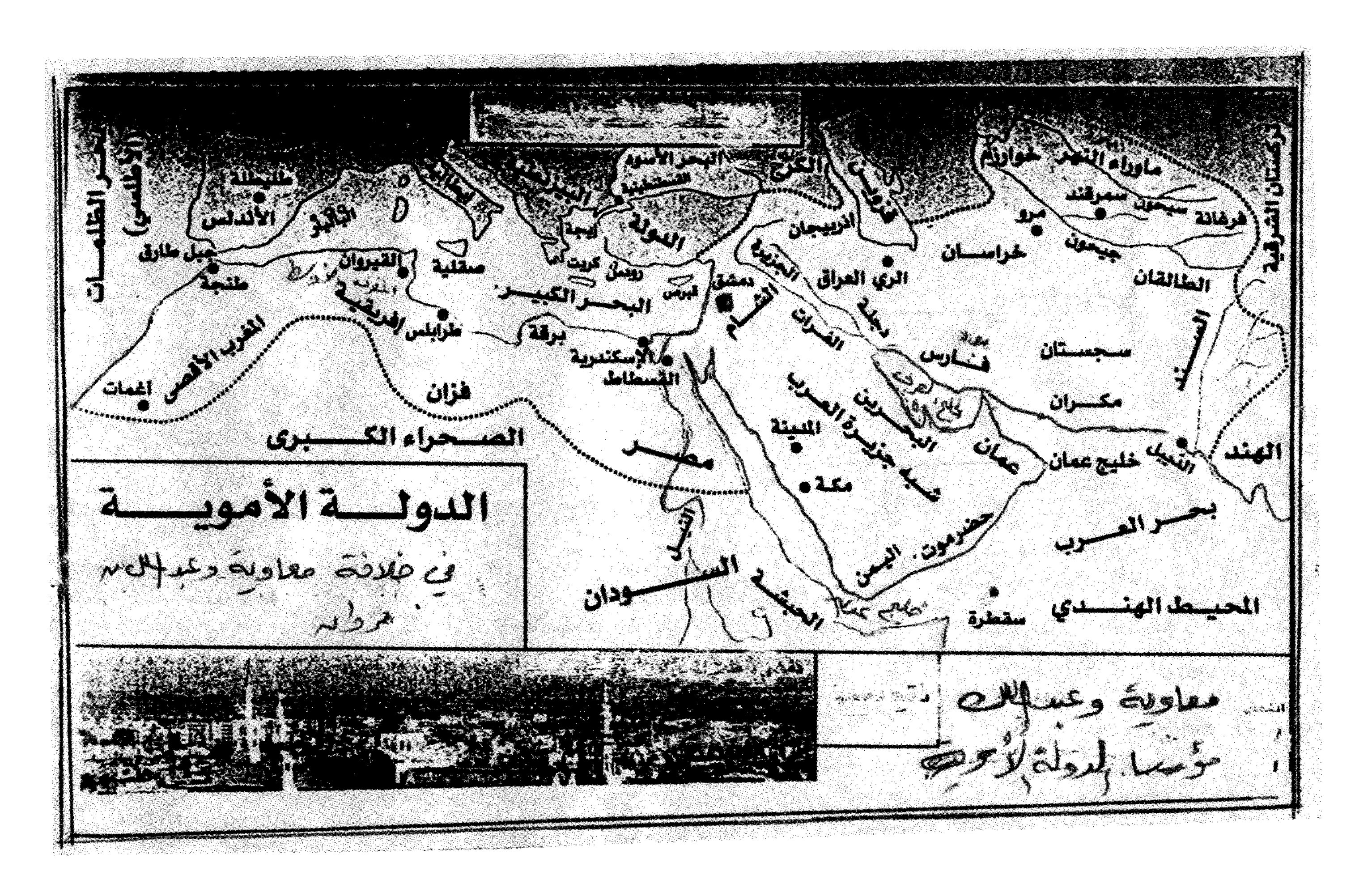
(١) الكامل في التاريخ، ٢/ ٥٩١.

إذا قمتُ عنّاني الحديد وأُغلقت مصارع من دوني تصم المناديا

لما سمع ذلك عقبة أطلق سراحه فقال أبو المهاجر لعقبة: إلحق بالمسلمين وقُم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة فلم يفعل وقال: وأنا أريد الشهادة أيضاً، وأقدم عقبة بالعدد القليل الذي معه على معركة غير متكافئة ورغم ذلك ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً عند بلدة تهوذة من أرض الزاب.

وسار على نهج عقبة في السيطرة على ما تحت أيديهم خلفاؤه من بعده من القادة من أمثال: زهير بن قيس، حسان بن النعمان الغساني، موسى بن نصير، وكان عمر عقبة عند استشهاده حوالي ٦٤ عاماً بعد جهاد استمر «أربعون عاماً» قضاها في الفتوح في شمال إفريقيا ابتداءً من مصر وانتهاءً بالمغرب الأقصى عند المحيط الأطلسي.

ومن آثار استشهاد عقبة: كان لها وقعاً أليماً على المسلمين رغم نجاة معظم الجيش حيث حاول خليفته زهير بن قيس البلوي أن ينفخ في الجنود روح المقاومة والتصدي لكسيلة عند زحفه نحو القيروان فهتف قائلاً: «يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد منّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، أو يفتح الله عليكم دون ذلك». لكن صيحة زهير لم تجد استجابة، بل لقيت معارضة وتثبيطاً وقال له حنش الصنعاني، لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم فاتّبعه الناس إلى المشرق ولم يبقَ مع زهير إلا أهل بيته فنهض في أثره ولحق بقصره ببرقة وأقام بها مرابطاً إلى خلافة عبدالملك بن مروان، عندها تحرك كسيلة قاصداً القيروان، وبها الذراري من المسلمين الذين طلبوا من كسيلة الأمان فأمّنهم واستولى كسيلة على القيروان واستولى على إفريقيا وظل فيها حتى أصبح عبدالملك بن مروان خليفة للمسلمين ورغم ما حلّ بالمسلمين فقد دخل الكثير من البربر في في الإسلام وثبتت هذه القبائل من البربر على الإسلام وكان كسيلة يتفاداهم لشدة بأسهم واقترح على جيشه الخروج من القيروان لموضع آخر لمواجهة جيش زهير الذي أمدّه به الخليفة عبدالملك فاختار ممس، هذا وقد بقيت القيروان بيد كسيلة خمس سنوات من ٦٤هـ إلى ٦٩هـ حتى استعادها زهير بن قيس كما سيأتي لاحقاً.


الدولـــة الأمويــــة
الصحراء الكـــبرى
فزان
المغرب الأقصى
اغمات
طنجة
جبل طارق
الأندلس
طليطلة
القيروان
صقلية
طرابلس
برقة
البحــر الكبيــر
الإسكندرية
الفسطاط
مصـــر
السـودان
الحبشة
دمشق
الشام
الجزيرة
اذربيجان
الري
العراق
دجلة
الفرات
فــارس
خراســان
مرو
سمرقند
سيحون
جيحون
فرغانة
الطالقان
ماوراء النهر
خوارزم
سجستان
مكـران
الديبل
خليج عمان
الهند
عمان
البحرين
شبه جزيرة العرب
المدينة
مكة
حضرموت
اليمن
بحـر العـرب
المحيـط الهنــدي
سقطرة
البحر الأسود
القسطنطينية
الدولة
رودس
كريت

المبحث الثالث: فتوحات معاوية في الجناح الشرقي للدولة

كان المسلمون حتى خلافة عثمان بن عفان قد أتموا فتح البلاد بين العراق ونهر جيحون (جرجان، طبرستان وخراسان وفارس وكرمان وسجسان) وبعد مقتل عثمان تعثرت الفتوح وكان الكثير من أهل هذه البلاد قد خرجوا عن الطاعة فلما جاء عهد معاوية ﷺ بذل جهوداً كبيرة لإعادة هذه البلاد المفتوحة إلى طاعة الدولة وتجدد حركة الفتوح كما سيأتي:

أولاً: فتوح خراسان وسجستان وما وراء النهر:

عيّن والي البصرة عبدالله بن عامر سنة ٤٢هـ إلى ٤٣هـ عبدالرحمن بن سمرة والياً على سجستان، وعلى شرطته عبّاد بن الحصين الحبطي، ومعه عدد من القادة منهم قطري ابن الفجاءة والمهلب بن أبي صُفرة الذين فتحوا مدينة زرنج صلحاً وفتحوا كابل بعد حصارها عدة أشهر ثم جعل معاوية إقليم سجستان ولاية مستقلة وعليها ابن سمرة مكافأة له.

بعد عزل ابن عامر وتولية زياد ابن أبيه والياً على البصرة عادت خراسان وسجستان تحت إشرافه وفي سنة ٤٥هـ قسّم زياد ابن أبيه خراسان لأربعة أقسام (مرو، نيسابور، الطالّعان والفاريان، هَراة وبوشبخ) وعيّن على كل منها أميراً وفي سنة ٤٧هـ جعل زياد ابن أبيه السلطة المركزية في خراسان في قاعدتها مرو.

في سنة ٤٧هـ غزا الحكم بن عمرو الغفاري طخارستان وغنم الكثير ثم سار إلى جبال الغور وغزا ومعه المهلب بن أبي صفرة بعض جبال الترك، وتمكن المهلب من أسر عظيم من عظماء الترك وعبر إلى بلاد ما وراء النهر حيث مات الحكم سنة ٥٠هـ وخلفه الصحابي غالب بن فضالة الليثي الذي استمر في إرسال حملات منظمة في فتح طخارستان دون أن يحرز تقدماً يذكر فعزله زياد ابن أبيه، وولى مكانه الربيع بن زياد الحارثي سنة ٥٠هـ إلى ٥٣هـ والذي غزا بلخ فصالحه أهلها وغزا غيرها وظل في منصبه في إدارة الإقليم حتى وصل عبيد الله بن زياد عامل معاوية على خراسان سنة ٥٤هـ إلى ٥٥هـ وعمره ٢٥ سنة.

ثانياً: عبيد الله بن زياد:

انطلق من مرو في ٢٤ ألف رجل، وقطع نهر جيحون على الإبل وفتحوا عدة مدن وأرسلت ملكة بخارى (خاتون) إلى الترك تستنجدهم فجاءها عدد كبير لكن المسلمين هزموهم فطلبت خاتون الصلح والأمان، فصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم ثم فتح بيكند وبقي عبيد الله سنتين في خراسان ثم ولاّه معاوية البصرة سنة ٥٥هـ فعاد عبيد الله ومعه خلق كبير من أهل بخارى الماهرين بالرمي بالنشاب واستخدم عبيد الله لتدعيم سيطرته كل الإجراءات الرادعة، من القتل والتعذيب وحجز الممتلكات والأموال، وخلفه على خراسان أسلم بن زرعة الكلابي.

ثالثاً: سعيد بن عثمان بن عفان سنة ٥٦هـ:

اصطحب سعيد معه إلى خراسان أربعة آلاف رجل فيهم عدد من مشاهير رجالات القبائل العربية في البصرة والكوفة.

قطع سعيد النهر إلى سمرقند فصالحته ملكة بخارى خاتون ولما جاءها المدد نكثت العهد، لكن انصرف الكثير منهم قبل القتال مما اضطرها إلى إعادة الصلح فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحاً، وأعانته خاتون في قتال أهل سمرقند حيث فقئت عين سعيد فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وأن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم وقُتل وقتها قثم بن العباس بن عبدالمطلب.

عزل معاوية سنة ٥٧هـ سعيداً لأخذه مالاً من خراج خراسان فأرسل من أخذ منه المال، ثم غادر إلى المدينة ومعه رهن أبناء عظماء سمرقند الذي استغلهم فوثبوا عليه فقتلوه ثم قتلوا أنفسهم.

رابعاً: فتوح سلم بن زياد بن أبيه سنة ٥٧هـ:

تجهز بالفرسان من البصرة وغزا خوارزم فصالحوه على أربعمائة ألف درهم وحملوها إليه، ثم قطع نهر جيحون ومعه امرأته - أول امرأة عربية تقطع النهر - فأتى سمرقند فصالحه أهلها ووجد ملكة بخارى خاتون قد نقضت العهد واستنجدت بالصغد وأتراك

الشمال فطلب سلم من المهلب بن أبي صفرة أن يستطلع أحوال العدو فاعتذر فأصر عليه سلم لخبراته وأرسل معه ابن عمه ورجلاً من كل لواء من ألوية المسلمين واشترط المهلب على سلم ألا يبوح لأحد من الناس كائناً من كان بمهمته. ثم مضى لسبيله ليلاً مع جماعته الاستطلاعية واستطلع أمر العدو دون أن يشعر به أحد، لكن المسلمين وقوم المهلب افتقدوه في صلاة الفجر، فألحّوا على سلم بالسؤال عن المهلب فأخبرهم أنه أرسلهم في مهمة استطلاعية ليلاً وفشا خبره بسرعة في العسكر وأسرع جمع من المسلمين بالركوب والتوجه صوب موضع المهلب المستور فكشفوا موضعه وموضع رجاله للعدو فأبصرهم المهلب يتسابقون نحوه دون نظام وتنظيم فلامهم بشدة على ما أقدموا عليه لأنهم كشفوا موضعه وموضع جماعته للعدو.

بذل المهلب قصارى جهده لمعالجة هذا الموقف الخطير وتدارك ما يمكن تداركه وقال لهم لتندمنّ على ما فعلتم. وكان عدوهم تسعمائة فهاجمهم الترك وأبادوا منهم أربعمائة فارس مجاهد ولاذَ الباقون بالفرار وأحيط بالمهلب ومن بقي معه فثبت ولم يتحرك عن موضعه فالموت بالنسبة له ولأمثاله أهون عليهم من الفرار وصاح بصوته الجهوري مستغيثاً بالمسلمين فسُمع صوته من معسكر المسلمين القريب على بُعد نصف فرسخ فهبّوا لنجدته وشاغل المهلب الترك حتى جاءه المدد بقيادة سلم نفسه وقاتلوا الترك حتى هزموهم هزيمة نكراء. وهربوا من ساحة المعركة مخلفين أموالهم وأثقالهم وكان من بين قتلى الترك بندون أو بيدون الصغدي ملك الصغد. عاد سلم إلى مرو بعد جهاد استمر سنتين (٦١-٦٢هـ) ثم عاد فقطع النهر سنة ٦٣هـ وقاتل الصغد وقتل ملكهم ثم عاد مسرعاً لمرو ليعالج أمورها الداخلية بعد موت يزيد بن معاوية.

خامساً: فتوحات السند في عهد معاوية:

غزا المهلب بن أبي صفرة ثغر السند سنة ٤٤هـ فأتى بنّه ولاهور وهما بين الملتان وكابل. وفي سنة ٤٥هـ أرسل والي البصرة عبدالله بن عامر، عبدالله بن شوّار العبيدي إلى ثغر السند فوصل في أربعة آلاف مقاتل إلى مكران ثم تقدم نحو بلاد القيقان قرب طبرستان وفتحها وأرسل للخليفة معاوية خيلاً قيقانية وسلّمها إلى الخليفة بنفسه في الشام.

قتلت جماعة من الترك ابن سوار سنة ٤٧هـ فاختار زياد بن أبيه سنة ٤٨هـ سنان بن مسلمة الهذلي ليكون والياً على الأقاليم المفتوحة من ثغر السند. وخلفه بعد عزله راشد بن عمر والأزدي الذي تقدم في بلاد القيقان ثم اتجه نحو الميد حيث قُتل هناك فخلفه عباد بن زياد بن أبيه الذي توغل في حوض نهر السند فنزل كش ثم سار إلى قندهار وهزم أهلها وآخر من تولى ثغر السند المنذر بن الجارود العبدلي الذي عينه على ثغر السند عُبيد الله بن زياد والذي فتح مدينة قُصدار.

المبحث الرابع: الدروس والعبر والفوائد في فتوحات معاوية

١- كان للآيات والأحاديث أثر بارز في إيقاد الحماس في نفوس المجاهدين.

٢- تحقق من خلال الفتوحات في عهد معاوية ﷺ بعض سنن الله في المجتمعات والشعوب والدول ومنها:

أ- سنّة الله في الاتحاد والاجتماع بتوقيع الصلح بين لحسن بن علي ومعاوية رضي الله عنهما واندثار آثار الفتنة التي كان من نتائج انحسار حركة الجهاد وبتحقيق سنّة الاتفاق والاتحاد والاجتماع ونبذ الفرقة تجددت حركة الفتوح.

ب-سنّة الأخذ بالأسباب مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ...﴾ [الأنفال:٦٠] ومن سنّة أخذ معاوية بالأسباب بناء معاوية للأسطول البحري وتطويره وتقوية الجيش والقضاء على الفتن الداخلية ودعمه للثغور وأماكن الرباط وتخطيطه الاستراتيجي للدولة داخلياً وخارجياً وإنشائه نظام الصوافي والشواتي.

ج- اتباع معاوية لسنّة التدافع وهي من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية وأن الحق يحتاج إلى عزائم الرجال التي تنهض به.

د- الصبر والاعتزام على سنة الابتلاء والأذى في الأموال والأنفس وسننه تعالى في هلاك الأمم الظالمة ووعده للعصاة والطاغين بإنزال العقاب بهم في الدنيا.

هـ-سنّة تغيير النفوس مع الشعوب التي أرادت أن تدخل في دين الله بتربيتها على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

٣- اتباعه ﷺ التخطيط الاستراتيجي في فتوحاته في كل الجهات فقام بعمليات الصوافي والشواتي لإرهاق العدو، وتطويره للقوة البحرية لتقليص النفوذ البحري للروم واستعانته بقادة وولاة عظام من ذوي الخبرة والدراية.

٤- اعتماد معاوية على مبدأ الشورى في إدارته العسكرية فاستشار القادة وأمراء القبائل وتقريبهم لمجلسه واستشارتهم.

٥- التضحية والقتال بنفس المؤمن أمام الراية التي يحملها قائد اللواء وكان معاوية هو الذي يقرر السياسة الحربية فكانت مركزية القيادة في تسيير الجيوش والإمدادات العسكرية.

٦- اهتمام معاوية بالعون والبريد لتصل أخبار الولايات إليه بسرعة واهتم ﷺ بالحدود البرية للدولة فقام بتحصينها وتولى معاوية بنفسه حملات الصوائف والشواتي وطوّر الأسطول لحماية سواحل الدولة الإسلامية.

٧- الاهتمام بديوان الجند والقضاء وتطويره بسبب اتساع الدولة لكثرة الفتوح وقرّب ﷺ إليه زعماء القبائل لتأمين وجود الإمدادات من الجند النظاميين وإغداقه العطاء لهم.

٨- كان للفتوحات في عهد معاوية أثرها العلمي والاقتصادي والاجتماعي، فظهرت طائفة القصاص الذين يقصون على الجند أمجاد الأمة وتضحياتها ويلقون عليهم الشعر السياسي الحماسي لشحذ الهمم، كما توفر القرّاء في المناطق المفتوحة لتعليم أهلها القرآن وتعاليم الإسلام.

كما اهتم معاوية بتوطين الجند بمناطق الثغور، وإقطاعهم القطائع والأراضي والمساكن لتوفير الراحة النفسية لهم، كما أمرهم بالاهتمام بالزراعة والماشية لتأمين الغذاء لهم، وكان يستقطع من أموال الخراج ما ينفق على الأراضي الزراعية لاستصلاحها.

٩- شهد حكم معاوية ﷺ كرامات للمجاهدين من أمثال أبي مسلم الخولاني وعقبة بن نافع فقد نادوا على الوحوش والدواب وطلبوا منها الرحيل، فرحلت بإذن الله وهذه كرامات من الله تعالى لأوليائه المتقين التي حصلت ببركة اتباعهم للرسول ﷺ ، هذا ومن عقيدة أهل السنّة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء.

المبحث الخامس: ولاية العهد ووفاة أمير المؤمنين معاوية

قيل إن القائد والوالي الصحابي المغيرة بن شعبة هو صاحب فكرة المناداة بولاية العهد ليزيد بن معاوية واتبع معاوية ﷺ عدة خطوات لأخذ البيعة لابنه يزيد منها:

١- **المشاورات**: لم يفكر معاوية بفكرة ولاية العهد إلا بعد سنة ٥٠هـ وخاصة بعد وفاة الحسن بن علي ﷺ استشار معاوية في ذلك أخاه زياد ابن أبيه بعد توليته إياه للعراق وأشار عليه زياد بالتؤدة والتمهل في هذا الأمر، لذا لم يقدم عليه معاوية إلا بعد وفاة زياد ابن أبيه، ومما قاله الطبري في تاريخه أن معاوية لما مات زياد دعا بكتاب فقرأه على الناس باستخلافه ابنه يزيد من بعده وأخذ البيعة له. وممن شاورهم معاوية الأحنف بن قيس الذي قال لمعاوية في هذا الأمر أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال له معاوية: جزاك الله خيراً على هذه الطاعة.

٢- **الحملات الإعلامية**: فقد ولّى معاوية ابنه يزيد حملة الإمدادات الموجهة للقسطنطينية. وولاه بعد رجوعه ولاية إمارة الحج فكان معاوية يتخوف من نفور الناس ويتهيب من بعض المعارضين، لذا استعان معاوية بولاته ورجال دولته لتذليل العقبات وتهيئة الأجواء لأخذ البيعة لابنه يزيد.

٣- **قبول أهل الشام لمبايعة يزيد**: استجاب أهل الشام لفكرة تولية يزيد ولياً لعهد معاوية بعد رجوعه من حصار القسطنطينية ولم يوجد معارضين لذلك.

٤- **بيعة الوفود**: جاءت معاوية ﷺ وفوداً من رجالات القبائل العربية من بلاد الشام ومنهم الضحاك بن قيس ونور بن معن السلمي، وحضر عن أهل المدينة عمرو بن حزم الأنصاري وحضر من أهل البصرة الأحنف بن قيس رحّب هؤلاء بالفكرة وأنها الأصوب لحقن الدماء وحفظ الوحدة والجماعة، فكانت المبايعة ليزيد بولاية العهد.

٥- **طلب البيعة من أهل المدينة**: طلب معاوية من والي المدينة مروان بن الحكم أخذ البيعة لابنه يزيد واعترض على ذلك عبدالرحمن بن أبي بكر فأخذه مروان لبيت أخته أم المؤمنين عائشة، لكنه لم يقدر عليه، عندها قرر معاوية المجيء بنفسه إلى الحجاز لمعرفة

موقف من بقي من الصحابة في هذه القضية، حيث جاء معاوية معتمراً في شهر رجب سنة ٥٦هـ، فلما علم عبدالرحمن بن أبي بكر وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بقدومه خرجوا من المدينة باتجاه مكة[1].

خطب معاوية الناس وحثّهم على البيعة وبيّن لهم أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة ثم قال للناس: قد بايعنا يزيد فبايعوه. وقال معاوية لابن عمر: إني أحذرك أن تشق عصا المسلمين وأن تسعى على فساد ذات بينهم، فردّ ابن عمر مبيناً كيف كانت بيعة الخلفاء الراشدين، ورغم ذلك قال ابن عمر: إني موافق على ما تجتمع عليه أمة محمد ﷺ مما أثلج صدر معاوية فقال له: يرحمك الله، لكنه اشترط الإجماع على بيعة يزيد حتى يبايعه ورفض أخذ الدراهم على البيعة لأنها من باب الرشوة.

أما عبدالرحمن بن أبي بكر فقال إنه يمانع بيعة يزيد وطلب أن يكون الأمر شورى وتوعد معاوية بالحرب فطلب منه معاوية أن لا يعلن رفضه أمام أهل الشام فيقتلوه.

أما عبدالله بن الزبير، فاتهمه معاوية بأنه وراء ما حدث من ابن عمر وابن أبي بكر فردّ ابن الزبير وطلب منه أن يتنحى عن الإمارة إن كان ملّها ثم طلب من معاوية أن يضع يزيد خليفة بدلاً منه فيبايعه مستدلاً بحديث لرسول الله ﷺ «لا يجوز مبايعة اثنين في آنٍ واحد» ويتبين لنا أنهم يمانعون البيعة لأن في ذلك مخالفة لنص الحديث الصريح بالمبايعة لاثنين في آنٍ واحد.

وهناك أسباب لترشيح معاوية لابنه يزيد منها:

- الحفاظ على وحدة الأمة والخوف من وقوع خلاف في الأمة بعد وفاته ويتجدد القتال من جديد.
- قوة العصبية القبلية: الطاعة والمحبة من أهل الشام لمعاوية والموافقة الجماعية على مبايعة يزيد.

(١) التاريخ الصغير للبخاري ١/ ١٠٣ بإسناد حسن.

- محبة معاوية لابنه يزيد وقناعته به لما يتميز به من القوة والشجاعة، الحزم والفطنة والفصاحة، الكرم والحلم وحُسْن الرأي. ورغم هذه الصفات الحميدة ففي الصحابة من هو أفضل من يزيد.

الأيام الأخيرة في حياة معاوية

- لما حضرت معاوية الوفاة سنة ٦٠هـ، دعا صاحب الشرطة الضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عقبة المري فأوصى إليهما قائلاً - كان يزيد غائباً - «بلّغا يزيد وصيتي الآتية: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم، وتعهد من غاب منهم، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل. فإن عزل عامل أحبّ إليّ من أن تُشهَر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم».
- قال معاوية من آخر خطبة له عندما اشتد مرضه واقتربت وفاته: أيها الناس إني من زرع وقد استحصد وإني قد وُليتكم، ولن يليكم أحد بعدي إلا من هو شرٌّ مني، كما كان من وليكم قبلي خيراً مني ويا يزيد إذا وفّى أجلي فولِّ غسلي رجلاً لبيباً فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، فإذا أدرجتموني في جريدتي ووضعتموني في حفرتي فخلّوا معاوية وأرحم الراحمين.
- أوصى معاوية أن يرد نصف ماله إلى بيت المال، ولما أغمي عليه في سكرات الموت ثم أفاق قال لأهله: اتقوا الله، فإن الله يقي من اتقاه، ولا يقي من لا يتقي، وقال ﷺ بعد أن وضع خده على الأرض ثم يُقلب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكي ويقول: اللهم إنك قلت في كتابك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] اللهم اجعلني ممن تشاء أن تغفر له[1]. ومن دعائه ﷺ في هذا اليوم «اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرجُ غيرك،

---

(١) البداية والنهاية، ١١/ ٤٥٧.

فإنك واسع المغفرة، ليس لذي خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك» ثم فارق الحياة، بعد أن قال: «اللهم إني قد أحببت لقاءك فاحبب لقائي»[1].

- توفي معاوية ﷺ يوم الخميس لثمان بقين من شهر رجب سنة ٦٠هـ وصلّى عليه الضحاك بن قيس الفهري حيث كان ابنه يزيد غائباً، عن عمر ٧٨ سنة وحكم من سنة ٤١هـ إلى سنة ٦٠هـ حوالي عشرون سنة إلا أشهراً.

(١) تاريخ ابن خلدون، ٣/ ٢١.

الفصل الثاني

الخليفة عبدالملك بن مروان بن الحكم

(٧٣-٨٦هـ)

اسمه ونسبه وكنيته:

يعتبر عبدالملك المؤسس الحقيقي للدولة الأموية، واسمه عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص، ويُكنى «أبو الوليد»، وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة ابن أبي العاص بن أمية.

وُلد هو ويزيد بن معاوية بالمدينة سنة ٢٦هـ وكان ﷺ قبل توليه الخلافة من العبّاد الزهاد الفقهاء الملازم للمسجد، وهو أقرب إلى القصر، أبيض ليس بالنحيف ولا البادن، أشهل وكبير العينين، مشرق الوجه، أبيض الرأس واللحية، حسن الوجه.

عبادته وعلمه قبيل الخلافة:

قال نافع: رأيت المدينة، ما فيه شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبدالملك بن مروان.

قال الأعمش: كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، عروة بن الزبير، قبيصة ابن ذويب، عبدالملك بن مروان قبل الخلافة.

وقال ابن عمر في حقه، ولد الناس أبناء وولد عبدالملك أباً، أي كان يفوق سنّه ويعلو فوق أقرانه. وقال الشعبي: ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه، إلا عبدالملك بن مروان فإنني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه.

كان ﷺ معظماً لاسم الله تعالى، كثير التسبيح والتفكير في الأسفار وقال لمعلم أولاده إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وكان محبوباً مرغوباً من عمومته كبار بني أمية.

موقفه من عبدالله بن الزبير:

أ- **قبل الإمارة**: قال عنه عبدالملك، أما والله لو جئته نهاراً لوجدته صائماً، ولئن جئته ليلاً لوجدته قائماً، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبّهم الله جميعاً في النار.

ب- **بعد الإمارة**: كان موقف عبدالملك من ابن الزبير عكس ما كان قبل الإمارة تماماً، حيث جهّز جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف وبعث به لابن الزبير الذي كان يتحصن بالكعبة وظل يحاصره حتى قُتل.

حياته السياسية قبيل الخلافة:

شهد استشهاد عثمان بن عفان وهو ابن عشر سنوات، وأول منصب تولاه كان في خلافة معاوية حيث عيّنه عاملاً على هجر ثم ولآه ديوان المدينة بعد وفاة زيد بن ثابت.

خرج سنة ٤٢هـ على رأس حملة ضد الروم، كما غزا إفريقيا مع معاوية بن حَديج، وكانت علاقته جيدة مع عروة بن الزبير وفي عهد والده مروان بن الحكم تولى فلسطين فأناب عنه روح بن زنباع وبقي في دمشق قريباً من إدارة الدولة لمساعدة والده، وتولى إمرة دمشق عند ذهاب والده لفتح مصر، بايعه القلة من العلماء بينما بايع الكثرة عبدالله بن الزبير.

من أهم الأحداث التي شهدها قبيل الخلافة وخلالها:

أ- **حركة التوابين ومعركة عين الوردة سنة ٦٥هـ**: اضطربت أمور العراق بعد وفاة يزيد بن معاوية وفرار عبيد الله بن زياد، تحرك أنصار الحسين بن علي للثأر لدمه، عقد الشيعة اجتماعاً برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي وغلب على هذه الاجتماعات التوبة والغفران، خرج هؤلاء (التوابون) من معسكرهم في النخيلة سنة ٦٥هـ وذهبوا إلى

كربلاء، بعد يوم وليلة من البكاء عند قبر الحسين، أخذهم الحماس وقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد الذي أمر بقتل الحسين، استقبل أمير مدينة قرقيسياء زفر بن الحارث الكلابي جيش التوابين بحماس واقترح عليهم توحيد صفوفهم مع أنصار عبدالله بن الزبير وهو أحدهم فاعتذروا وطلبوا التزود بما يحتاجونه والتقى التوابون مع الجيش الأموي في عين الوردة شمال غرب صفين سنة ٦٥هـ، ودارت معركة ضارية غير متكافئة انتهت بهزيمة التوابين ومقتل زعمائهم باستثناء رفاعة بن شداد الذي تراجع بمن بقى معه إلى الكوفة. وكان التوابون يتمتعوا بصدق إيمانهم وشجاعة نادرة وصبر أمام عشرين ألفاً من أهل الشام والتساؤل هنا أين كان هؤلاء الأبطال عند استشهاد الحسين حيث تركوه يواجه الموت هو وأهل بيته دون أن يتحركوا لنصرتهم.

ب- **حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي**: من كبراء ثقيف، اتصف بالشجاعة والدهاء وقلة الدين، ادعى أن الوحي يأتيه وأنه يعلم الغيب، ظهر على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، انقلب من العداء الشديد لآل البيت إلى ادّعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين، وأراد أن تكون له كلمة في دولة ابن الزبير لكنه لم يجد تجاوباً منه فانصرف عنه إلى الكوفة، ادّعى أن لديه تفويضاً من محمد بن علي بن أبي طالب «ابن الحنفية» ولم يكن صادقاً في ذلك بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان. قوي مركزه وكثر أتباعه بعد هزيمة التوابين في عين الوردة وازداد قوة بانضمام أحد زعماء الكوفة له وهو إبراهيم بن الأشتر النخعي، أعدّ المختار جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لمقاتلة عبيد الله بن زياد، التقى الجيشان عند نهر الخازر قرب الموصل، حلّت الهزيمة بجيش ابن زياد والذي قُتل في المعركة سنة ٦٧هـ في يوم عاشوراء وبعث ابن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار.

سيطر المختار على شمال العراق والجزيرة، انضم إليه عدد كبير من الموالي لبُغضهم لبني أمية ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية أخرى، وكانت نهاية المختار بقتله على يد مصعب بن الزبير والي عبدالله بن الزبير على البصرة وبعث برأسه مع البريد لأخيه عبدالله ويعود فشل حركة المختار لأسباب منها:

١- نفور أشراف عرب الكوفة من المختار وتوجههم إلى مصعب بن الزبير في البصرة بعد اكتشافهم لكذبه.
٢- إصابته بالغرور فقد طرد عمر بن علي بن أبي طالب فذهب عن مصعب في البصرة وقاتل معه كما انضم المهلب بن أبي صفرة لجيش مصعب وتخلى محمد بن الحنفية عنه وقوله على باب الكعبة أنه كان كذاباً.
٣- ابتداع المختار لأمر غريب وهو اتخاذه الكرسي كما اتخذ بنو إسرائيل التابوت.
٤- حاجة ابن الزبير للعراق أن تكون معه بعد ضياع الشام ومصر منه وكون العراق مصدراً للمال والرجال.

ج- حركة عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) ومقتله: كان من مقررات مؤتمر الجابية أن تكون الخلافة بعد مروان بن الحكم لعمرو بن سعيد الأشدق وخالد بن يزيد بن معاوية، لكن مروان تجاوز عمرو وبايع بالخلافة لابنه عبدالملك ثم لابنه عبدالعزيز مما أثار غضب ونقمة الأشدق. أما خالد فانصرف للعلم لا سيما الكيمياء[1].

عندما خرج عبدالملك بجنوده إلى قرقيسيا سنة ٦٩هـ لمحاصرة زفر بن الحارث، استخلف على دمشق عمرو بن سعيد الأشدق والذي تحصن بدمشق وأخذ ما في بيت المال من الأموال وقيل إنه خرج مع عبدالملك والذي لم يجده عندما أصبح فرجع إلى دمشق ودارت بينهما معركة استمرت ١٦ يوماً، ثم تصالحا على أن يكون لعمرو الخلافة بعد عبدالملك وأن يكون مستشاراً لعبدالملك في كل صغيرة وكبيرة وأن يوليه الديوان وبيت المال.

بعد عودة عبدالملك لدمشق بأربعة أيام أرسل لعمرو بن سعيد أن يأتيه، فلما ذهب عمرو لبس درعاً بين ثيابه وتقلد سيفه، وكان رأي زوجته وبعض المقربين منه أن لا يذهب، مضى إلى عبدالملك في مائة من عبيده فلما وصل أدخل الحاجب عمرو ثم أغلق الباب دون من مع عمرو، رحب عبدالملك بعمرو وأجلسه معه على السرير وتحدثا

---

(١) تاريخ خلافة بني أمية، د. نبيه عاقل، ص١٥٢.

طويلاً، ثم أمر عبدالملك غلامه بأخذ السيف من عمرو قائلاً له أو تطمع أن تتحدث معي متقلداً سيفك وأخذ الغلام السيف ثم تحدثا ساعة، ثم قال له عبدالملك: يا أبا أمية، قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: إنك حيث خلعتني، آليت بيميني إن ملأتُ عيني منك، وأنا مالك لك أن أجمعك في جامعة فقال بنو مروان ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، ثم أطلق وما عسيت أن أفعل بأبي أمية؟ فقال بنو مروان أبرّ قسم أمير المؤمنين فقال عمرو: فأبرّ قسمك يا أمير المؤمنين، فأخرج عبدالملك من تحت فراشه جامعة فطرحها إليه ثم قال: يا غلام قم فاجمعه فيها. فقام الغلام فجمعه فيها، فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني منها على رؤوس الناس فقال عبدالملك: أمكراً يا أبا أمية عند الموت؟ لاها الله إذا ما كنا لنخرجنك في جامعة على رؤوس الناس، ولما تخرجها منك إلا صعدا (مشقة) ثم اجتذبه اجتذابةً أصاب فمه السرير فكسر ثنيته، فقال عمرو أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك كسر عظمي إلى ما هو أعظم من ذلك فقال عبدالملك: والله لو أعلم أنك إذا بقيت تفي لي وتصلح قريش لأطلقتك ولكن ما اجتمع رجلان قط في بلد على ما نحن عليه إلا إذا أخرج أحدهما صاحبه[1].

كلّف عبدالملك أخاه عبدالعزيز بقتل عمرو عند خروجه لصلاة العصر، فلما رجع وجد أن أخاه لم يقتله فسبّه ولامه فأتى عبدالملك بسيفه ثم أمر عمرو فصُرع فجلس عبدالملك على صدره ثم ذبحه ثم رفع برأسه إلى الناس وألقاه بين أظهرهم، ثم خرج عبدالعزيز ومعه صرر من المال تخاطفها الناس وقيل إن الذي قتل عمرو هو مولى عبدالملك «أبو الزعيزعة».

د- **مصالحة عبدالملك للروم وتضييقه على الجراجمة:** اضطر عبدالملك لمصالحة الروم بسبب الاضطرابات الداخلية فدفع لهم ٣٦٥ ألف قطعة ذهبية و٣٦٠ عبداً و٣٣٠ جواداً أصيلاً كل سنة وأن يقتسم عبدالملك والبيزنطيين خراج قبرص وأرمينيا، وارتهن منهم رهائن وضعها في بعلبك وفي المقابل يسحب ملك الروم الجراجمة إلى وسط الدولة البيزنطية وصالح عبدالملك الجراجمة في جبل اللكام على أن يدفع لهم ألف دينار كل جمعة،

---

(١) البداية والنهاية، ١١/ ١١٧.

وعقد الصلح معهم ثم تمكن قائده سحيم بن المهاجر من قتل القائد البيزنطي الذي كان على رأس الجراجمة فهرب أصحابه وأمّن الباقين.

هـ- كسب زفر بن الحارث الكلابي لصف عبدالملك: حرص عبدالملك على تحقيق التوازن بين القبائل اليمنية والقيسية فجعل ولاته على الأمصار من القيسية بينما موظفي بلاطه من اليمنية.

تمكن عبدالملك من كسب زفر الموالي لابن الزبير والمتحصن مع ثابت بن قيس في قرقيسيا، سار إليه بجيشه الذي أعده لحرب مصعب بن الزبير في العراق، أبدى جماعة زفر إعجاب عبدالملك بهم نظراً لصمودهم أمامه فقال في حقهم: إن قتلهم لذل، وإن تركهم لحسرة ثم لجأ عبدالملك إلى أسلوب المسالمة، فكتب إلى زفر يدعوه إلى طاعته ويرغبه فيها ويهدده إن لم يقبل بذلك وبعد مفاوضات أرسل إليه زفر يجيبه لطلبه بشرط أن يبق له الخيار في أن يظل مخلصاً لابن الزبير أو أن ينضم لعبدالملك، وافق عبدالملك على شرطه وأعطاه الأمان وابنه وقائده الهذيل بن زفر وجميع أتباعهم واختتم الوفاق بزواج مسلمة بن عبدالملك برباب ابنة زفر بن الحارث وأمر زفر ابنه الهذيل بالانضمام لجيش عبدالملك المتجه لحرب مصعب بن الزبير.

و- ضم العراق لعبدالملك والقضاء على مصعب بن الزبير: بعد أربع سنين من القضاء على المختار عزم عبدالملك على استعادة العراق بنفسه سنة ٧١هـ من البيعة لابن الزبير.

بعد أن وطّد عبدالملك حكمه في الشام وانضمام زفر وابنه الهذيل لطاعته وسيطرته على إقليم الجزيرة وقضائه على ابنة عمته، عمرو بن سعيد الأشدق، جعل على مقدمة جيشه أخاه محمد بن مروان والذي نزل بمسكن فلما علم مصعب بمسير عبدالملك أرسل إل مسكن مقدمة جيشه بقيادة إبراهيم بن الأشتر، بدأ عبدالملك بمكاتبة زعماء أهل العراق من جيش مصعب، يعدهم ويُمنيهم فكتب إلى إبراهيم بن الأشتر قائد جيش مصعب فرفع الكتاب إلى مصعب فإذا فيه يدعوه إلى نفسه ويجعل له ولاية العراق.

استدعى مصعب قائده المهلب بن أبي صفرة يستشيره فقال له: اعلم أن أهل العراق قد كتبوا لعبدالملك وكاتبهم فلا تبعدني عنك، فقال له مصعب: إن أهل البصرة قد أبوا أن

يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج قبل بعض من كاتبهم عبدالملك التخلي عن مصعب والانضمام إليه، كان عبدالملك حريصاً على ألا يقاتل مصعب بن عمير لما بينهما قديماً من المودة والصداقة، لذا أرسل إليه رجلاً من كلب وقال له: اقرئ ابن أختك السلام حيث كانت أم مصعب كلبية - وقل له يدع دعاءه إلى أخيه وادع دعائي إلى نفسي ويجعل الأمر شورى فقال له مصعب: قل له السيف بيننا[1].

حاول عبدالملك محاولة أخرى مع مصعب فأرسل إليه أخاه محمد ليقول له: إن ابن عمك يعطيك الأمان فقال له مصعب: إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً[2].

لما دارت المعركة بين الطرفين بدأت خيانات أهل العراق بالظهور، انهزم عتاب بن ورقاء بالناس وكان في جيش ابن الأشتر، فلما انهزم عتاب صبر ابن الأشتر حتى قُتل وكان مقتله خسارة كبرى لمصعب لأنه كان مخلصاً له غاية الإخلاص.

لما اشتد القتال على مصعب، وأصبح موقفه حرجاً، صاح قائلاً: «يا إبراهيم ولا إبراهيم لي يوم» حيث تخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه، ولم يبقَ معه إلا سبعة رجال ورغم ذلك ظل يقاتل حتى أثخنته الجراح حتى قتله زياد بن ظبيان عند دير الجاثليق في جمادى الآخرة سنة ٧٢هـ فلما بلغ عبدالملك مقتل مصعب قال: واروه فقد والله كانت الحرمة بيننا قديمة، ولكن هذا المُلك عقيم ثم دخل عبدالملك الكوفة وبايعه أهلها وعيّن عبدالملك أخاه بشراً والياً على الكوفة.

ترجع هزيمة مصعب ﷺ إلى أسباب من أهمها:

١- عدم مشاركة المهلب بن أبي صفرة في القتال لانشغاله بقتال الخوارج.
٢- خيانة قادة الفصائل من جيش مصعب بن الزبير بناءً على الأماني التي مناهم بها عبدالملك.

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٣/ ٥٢.
(٢) تاريخ الطبري، ٧/ ٤٥.

٣- عدم إغداق أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير الأموال على أعيان وأشراف العراق عندما جاءوا إلى مكة مع مصعب.
٤- غضب بعض الشيعة لمقتل المختار الذي أخذ بثأر الحسين.
٥- قلة الخبرة العسكرية عند مصعب رغم شجاعته وإخلاصه.
٦- كان جيش الزبيريين منهكاً لكثرة المعارك التي خاضها في العراق، بينما جيش الأمويين كان مرتاحاً.
٧- عدم إرسال أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير بالقوات والمدد لأخيه مصعب فضياع العراق يعني فقدان الموارد المالية وبداية الانهيار السياسي.

لما وضع رأس مصعب بين يدي عبدالملك بكى وقال: ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له حتى دخل السيف بيننا ولكن الملك عقيم.

الصراع بين عبدالملك بن مروان وعبدالله بن الزبير:

أولاً: محاولات الأمويين إخضاع الحجاز قبل حصارهم الأخير لابن الزبير: أهم الحملات والمناوشات بينهما:

أ- **حملة حبيش بن دلجة القيني:** بدأت في نهاية حكم مروان بن الحكم وانتهت في خلافة ابنه عبدالملك، انتصر عبدالله بن الزبير على هذه الحملة.

ب- **حملة نائل بن قيس الجذامي:** تمكن عبدالملك من القضاء على نائل عند أجنادين بفلسطين وقتله سنة ٦٦هـ.

ج- **حملة عروة بن أنيف:** بعثها عبدالملك في ستة آلاف إلى المدينة وأمر قائداه بعدم النزول على أحد وألا يدخل المدينة إلا للضرورة عسكر عروة بالعرضة قرب المدينة، هرب عامل ابن الزبير على المدينة الحارث بن حاطب، دخل عروة المدينة الجمعة للصلاة بالناس ثم العودة لمعسكره الذي مكث فيه شهراً دون المواجهة مع جيش ابن الزبير، عاد عروة للشام بأمر من عبدالملك.

د- **حملة عبدالملك بن الحارث بن الحكم:** عسكر ابن الحارث بوادي القرى في أربعة آلاف، ثم أرسل فرقة قوامها خمسمائة رجل بقيادة ابن القمقام إلى عامل ابن الزبير على

خيبر وفدك سليمان بن خالد الذي حاول الهرب لكن أدركوه وقتلوه، ثم أرسل ابن الزبير حملة هزمت أبي القمقام في خيبر بقيادة أبي بكر بن أبي قيس.

هـ- حملة طارق بن عمرو: هي آخر حملة على الشام هدفها السيطرة على المنطقة بين أيلة ووادي القرى لتكون عائقاً أمام تحركات ابن الزبير، أمدّ والي البصرة ابن الزبير بألفي رجل بقيادة ابن رواسي لحماية المدينة وأمره ابن الزبير بالمسير لملاقاة طارق، انتصر طارق ثم عاد لوادي القرى ملتزماً بمهمته.

ثانياً: الحصار الثاني وسقوط خلافة ابن الزبير: كان انتصار عبدالملك على مصعب ابن الزبير وقتله في معركة دير الجاثليق إيذاناً بانتهاء خلافة عبدالله بن الزبير والذي انحصر حكمه على الحجاز فقط.

اختار عبدالملك الحجاج بن يوسف للقضاء على ابن الزبير فتوجه بجيشه إلى الحجاز واستقر في الطائف، وبدأ بإرسال بعض الفرق العسكرية إلى مكة ويرسل ابن الزبير إليه بمثلها فيقتتلون ثم تعود كل فرقة إلى معسكرها.

أمر عبدالملك قائده طارق بن عمرو المرابط بوادي القرى الانضمام إلى جيش الحجاج فتوجه طارق بخمسة آلاف رجل ومن خطوات عبدالملك ضد ابن الزبير:

أ- الحصار الاقتصادي: أوكل الحجاج إلى خالد بن ربيعة بقطع الميرة عن ابن الزبير وأهل مكة مما أدى إلى إصابة الناس بمجاعة شديدة، مما اضطر ابن الزبير إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه. ومن نتائج هذا الحصار بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير مما شجع الحجاج على إعطاء الأمان لكل من يكف عن القتال وينسحب من جيش عبدالله بن الزبير.

ب- نصب الحجاج للمنجنيق على جبال مكة: بدأ الحجاج بضرب ابن الزبير ومن معه داخل الحرم ضرباً متواصلاً مما اضطر أعيان مكة وعلى رأسهم عبدالله بن عمر الطلب من الحجاج بالكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم: والله إني لكاره لما ترون، ولكن ماذا أصنع وقد لجأ هذا إلى البيت؟ وفي هذا الوقت كانت قوافل الحجيج قد جاءت إلى مكة

من كل فجّ عميق، وقد منعهم القصف من الطواف حول البيت لتعرضهم للخطر، لذا كتب ابن عمر للحجاج قائلاً: «اتقِ الله وإنك في شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الرحمن من أقطار العالم ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً، فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو الكف عن استعمال المنجنيق حتى ينتهي الناس من تأدية حجّهم». وقال لهم: «والله إني لكاره لما ترون ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت الحرام، وبعد انتهاء الناس من أداء فريضة الحج نادى الحجاج بالناس بمغادرة مكة إلى بلادهم وأن القتال سيستأنف ضد ابن الزبير، لم يمنع كبر ابن الزبير وخذلان من حوله من الثبات على المبدأ الذي قاتل من أجله لأنه يعتقد أنه هو على الحق».

ج- **دور أسماء ابنة الصديق فيما يحدث:** بعد مغادرة الحجيج إلى بلادهم زاول الحجاج ضرب الكعبة بالمنجنيق، فأصبح ابن الزبير في موقف حرج خاصة وأن جماعته وأنصاره بدأوا ينفضون عنه ومنهم ولديه حمزة وحبيب اللذين ذهبا للحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما وفي هذا الموقف الحرج دخل عبدالله بن الزبير على والدته أسماء فقال لها: «يا أمة خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبقَ معي إلا اليسير، ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني من الدنيا ما أردت فما رأيك؟» .

قالت أسماء: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامضي له فقد قُتل عليه أصحابك، لا تمكن من رقبتك يتلعّب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن قلت كنت على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك في الدنيا، القتل أحسن، فدنا ابن الزبير من والدته فقبّل رأسها وقال: «هذا والله رأيي، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتين فانظري يا أمة فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلّمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد منكر ولا عملاً بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ... فقالت له أمه، إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي، أخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك، قال جزاك الله يا أمة خيراً، فلا تدعي

الدعاء لي قبل وبعد»، فقالت: لا أدعْه أبداً، فمن قُتل على باطل فقد قُتلت على حق ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبرّه بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، وتعينت بما قضيت فأثبني في عبدالله ثواب الصابرين الشاكرين. فتناول يديها ليقبلها فقالت: هذا وداع فلا تبعد، فقال لها: جئت مودعاً لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا. قالت: امضِ على بصيرتك، وادن مني حتى أودعك[1].

د- **استشهاد عبدالله بن الزبير ﷺ والبيعة لعبدالملك:** ثبت عبدالله بن الزبير وما ضعف وما استكان على المبادئ التي استشهد من أجلها وفي آخر يوم من حياته صلى ركعتي الفجر، ثم تقدم وأقام المؤذن للصلاة فصلى في أصحابه وقرأ فيهم «ن والقلم» حرفاً حرفاً، ثم سلّم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة بليغة ثم قال لصحبه: احملوا على بركة الله حتى بلغ بهم الحجون فرُمي بآجّرة فأصابته في وجهه ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته قال:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم قاتل ربع الحجاج قتالاً شديداً فتعاونوا عليه وقتلوه الثلاثاء من جمادى الآخرة وله من العمر ٧٣ سنة. وحمل رجل من مراد رأسه إلى الحجاج ثم صُلب وظهرت منه رائحة المسك.

مرّ عليه بعد صلبه عبدالله بن عمر فأثنى عليه ومدحه قائلاً: «ما علمت صواماً وقواماً وصولاً للرحم مثلك» ولما أجمع الناس على البيعة لعبدالملك كتب عبدالله بن عمر لعبدالملك: «أما بعد: فإني قد بايعت لعبدالملك «أمير المؤمنين» بالسمع والطاعة على سنّة الله ورسوله فيما استطعت وأن بنيّ قد أقروا بذلك».

كتب عبدالملك للحجاج بألا يخالف عبدالله بن عمر في الحج لفضله وفقهه وبقي الحجاج والياً على مكة بعد مقتل ابن الزبير وكان ابن عمر بترك المدينة ويأتي مكة حاجاً أو معتمراً ويسمع من الحجاج وأفعاله وأقواله ما يخالف الشرع فيأمره بالمعروف وينهاه عن

(١) تاريخ الطبري، ٧/ ٧٦.

المنكر ويرد عليه بكل جرأة وشجاعة. وخلال هذه الفتن والأحداث العِظام كان لا بن عمر بحق مدرسة مليئة بالدروس المفيدة والحكم البالغة والآداب الجمّة التي اهتدى بها الكثير من الناس في عصره.

ومن أبرز ما يميز منهج ابن عمر في التعامل مع الأحداث والفتن:

١- تجنب القتال والحرص على حقن دماء المسلمين.
٢- الحث على السمع والطاعة للإمام القائم ونهيه عن إثارة الفتنة وتفريق الكلمة.
٣- استجابته لكل من دعاه إلى خير وتعاونه مع أطراف الخلاف فيما يخدم المصلحة.
٤- لم يدع إلى وجوب الخضوع المطلق للسلطان أو جواز البيعة القهرية وكان دائماً أحد الأطراف الرئيسية في المعادلة السياسية في العهد الأموي لأسلوبه في الحوار واللجوء إلى الشورى والابتعاد عن الاقتتال واختار أن يكون محايداً وأن يعتزل القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً لحرصه على حقن دماء المسلمين.

أسباب سقوط خلافة عبدالله بن الزبير:

١- اتخاذه الحجاز مقراً لخلافته وعدم صلاحية مكة كموقع عاصمة له لبُعدها عن الشام والعراق ولعدم توفر الموارد الاقتصادية فيها ولهجرة الكثير من القبائل العربية إلى الأقاليم المفتوحة وتركزها في العراق والشام ومصر، لذا لم يتمكن ابن الزبير من تكوين جيش قوي للهجوم أو لصدّ الهجوم الآخر.
٢- لسياسته الإدارية والمالية: لم يوفق في اختيار الولاة المناسبين وخاصة للعراق وضعف الصلة بينه وبين ولاته وبالنسبة للمال كان ابن الزبير يرى أنه حق للمسلمين ولا يجوز أن يُصرف إلا في أوجهه الشرعية فلم يسخر المال في توطيد حكمه كما عمل الأمويون ولكسب الأنصار والأعوان والمؤيدين فخسر الكثير منهم وتمكن الأمويون من استمالتهم وإغرائهم خاصة الأعيان والشعراء.
٣- عدم قدرته ومرونته لاستيعاب زعماء العراق وعدم استماعه لأخيه مصعب عندما حضر عنده ومعه زعماء أهل العراق بعد القضاء على ثورة المختار وقتله فلم يغدق عليهم المال مكافأة لجهدهم.

٤- عدم مبايعة زعماء بني هاشم له ومعارضتهم لدولته فلم يبايعه عبدالله بن عباس ومحمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) كما أنه لم يعاملهم بالرفق بل اشتد عليهم أحياناً.

٥- إسراف أخيه مصعب في سفك الدماء بعد القضاء على ثورة المختار.

٦- تهاون ابن الزبير في أمر الأمويين فلم يمنعهم من الخروج من المدينة إلى الشام وخاصة مروان بن الحكم وابنه عبدالملك.

٧- إهماله عامل الدعاية والإعلان فلم يكرم الشعراء وهم خير الدعاة للخليفة في ذلك الوقت.

٨- استخدامه الشدة والقوة مع أخيه عمرو بن الزبير بعدما وقع في الأسر مما جعل الناس ينظرون إليه أنه رجل تنقصه العاطفة والشفقة وكان بإمكانه حبسه ويطلب مما أدعو عليه بأنه ظلمهم أن يسامحوه ويصفحوا عنه ويغفروا له خطأه فاتهمه البعض بأنه طالب سلطة ودولة.

٩- تفوق خصوم ابن الزبير عليه فقد كان بنو أمية أكثر من ابن الزبير خبرة ودراية بالأمور ومعالجتها فتفوقوا عليه عسكرياً وإدارياً وقيادةً.

١٠- الظروف الصعبة التي أحاطت بنشأة حركة ابن الزبير من ظهور التيارات والاتجاهات المذهبية والقبلية وانعدام الاستقرار السياسي، فقد شغله الخوارج كثيراً كما أخذت حركة المختار من جهده ووقته ورجاله مما أشغله عن التفكير في تنظيم دولته.

أهم الأحداث الداخلية في خلافة عبدالملك قبل البدء في الفتوحات:

أصبح عبدالملك الخليفة الشرعي بعد مقتل ابن الزبير وهو انتزعها بالقتال وقوة السيف مما أثر مستقبلاً على الفقه السياسي رغم مبايعة الكثير له، وقد أجاز الكثير من الفقهاء طريقة الاستيلاء بالقوة من باب الضرورة مع إجماعهم على حُرمتها مراعاة لمصالح الأمة ومحافظة على وحدتها وأصبح الواقع يفرض مفاهيمه على الفقه والفقهاء.

أثبت عبدالملك كفاءة عالية في إدارة الدولة وسياستها فاعتبر بحق المؤسس الحقيقي للدولة الأموية، اتصف بالجرأة والشجاعة بمضي إلى هدفه بعزيمة ثابتة، ولا يتردد عن

قيادة المعارك بنفسه، واستطاع بعد جهود جبارة أن يعيد اللحمة ويجمع شمل الأمة الإسلامية وأن يقضي على الثورات وتصفية خصومه الواحد بعد الآخر بالصبر والجلد والمثابرة كما سيمر بنا لاحقاً، وعمل على توطيد دعائم دولته، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً واستحق بذلك وعن جدارة أن يلقب بالمؤسس الثاني بل والحقيقي للدولة الأموية بعد مؤسسها الأول معاوية بن أبي سفيان.

وإليك أخي القارئ والمتابع أهم الأحداث والفتن التي قضى عليها عبدالملك:

المبحث الأول: القضاء على حركة الخوارج

وصل عدد فِرَق الخوارج إلى أكثر من ثلاثين فرقة أشهرها فرقتان هما:

أ- **الأزارقة**: من أشد الفرق وهم أتباع نافع بن الأزرق وهو أول من أحدث الخلاف بين الخوارج لتطرفه فقال بكفر من لم يهاجر إليه، كما أباح أموال ودماء مخالفيه ويقول بتكفير مرتكب الكبيرة وخلوده في النار ومن أهم ما تميزت به فرقته:

١- الانفصال الكامل عن المجتمع المسلم.
٢- إيمانهم بمبدأ التعرض للناس بالقتل والنهب.
٣- تكفير من لم يهاجر إليهم.

قاومهم المهلب بن أبي صفرة حوالي عامين ثم استدعاه والي البصرة مصعب بن الزبير للمشاركة في حرب المختار الثقفي سنة ٦٧هـ وبعد هزيمة المختار عيّنه مصعب والياً على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينيا ثم استدعاه مصعب ثانية لقتال الخوارج من جديد وخلال مقاومة المهلب للخوارج في الأهواز سيطر عبدالملك بن مروان ﷺ على العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير فولى أخاه بشر بن مروان على العراق وأمره بإبقاء المهلب على حرب الخوارج ومساعدته.

لما أصبح الحجاج والياً على العراق سنة ٧٥هـ جدّ في مساعدة المهلب في حربه للخوارج حتى تمكن من القضاء على خطرهم بعد انقسامهم إلى قسمين الأول بقيادة عبد

ربه والذي قضى عليه المهلب نهائياً والثاني بقيادة قطري بن الفجاءة الذي رحل إلى طبرستان حتى تمكن المهلب من القضاء عليه سنة ٧٧هـ بمساعدة الحجاج وقد استمرت حركة الأزارقة من سنة ٦٥-٧٨هـ.

ب- **الخوارج الصفرية**: ينسبوا إلى زياد بن الأصفر أو ابن عبدالله بن صفار وسموا بهذا الاسم لأن وجوههم اصفرت من كثرة العبادة.

بدأت خطورة أمرهم من الصالحية على يد صالح بن مسرح التميمي، وكانت سمته الصمت والهدوء، ظل يعلم الناس في هدوء وسكينة عشرين سنة وموطنه بين نصيبين ومساروين ومن أشهر أتباعه شبيب بن يزيد الشيباني الرجل المقدام الذي دوخ جيوش الحجاج وموطنه صحراء الكوفة، بدأ أمرهم بالظهور بعد محاولة الشيباني اغتيال عبدالملك في موسم الحج حيث وصله الخبر فأخذ الحذر وانتهى موسم الحج بسلام.

وقد بدأت هذه الفرقة بالخروج على دولة الخلافة وعددهم كما يقول الطبري مائة وعشرون، بدأوا من الموصل حيث تمكن شبيب بن يزيد من هزيمة العديد من جيوش الحجاج الكبيرة بأعدادهم القليلة، وتمكن القائد شبيب من دخول الكوفة بعد أن قتل خمسة من قادة الحجاج وقد نذرت زوجته غزالة أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ فيها البقرة وآل عمران، وَفّت بنذرها فكانت شجاعة مقدامة، غادر شبيب الكوفة بعد أن قتل عدداً من أشرافها ثم عاد إليها ثانية وحاصرها وهزم جيشاً كبيراً للحجاج وقتل قائده عتاب بن ورقاء فطلب عندها الحجاج المدد من الشام وقاد الجيش بنفسه وهزم شبيب لأول مرة فانهزم للأهواز، فأتبعه الحجاج بجيش التقى به هناك ولم تكن النتيجة حاسمة، لكن شبيب غرق عند عبوره أحد الأنهار وقال عندها: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦] ثم غرق وهكذا تخلص منه الحجاج بعد تكبيده للدولة الكثير من الأموال والأرواح[١].

ومن أسباب فشل ثورات الخوارج في عهد عبدالملك:

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٣/ ١٢٣.

١- خروجهم في أعداد قليلة وفي أوقات متباعدة مما سهّل القضاء عليهم.
٢- طغيان مذهب التشيع على أهل الكوفة وكراهتهم للخوارج وكذلك وقوف أهل البصرة ضد الخوارج للمحافظة على تجارتهم.
٣- تفرق الخوارج إلى فرق متعددة مما أضعفهم.
٤- ما قاموا به من أعمال تخريبية وقتلهم للنساء والأطفال ومخالفيهم وإحراقهم للقرى وقطعهم للطرق مما أدى لكره الناس لهم.

المبحث الثاني: ثورة عبدالرحمن بن الأشعث

ظل الحجاج والياً على العراق من سنة ٧٥هـ-٩٥هـ وخلال حكمه صبر على مضض على تجاوزات ملك سجستان رتبيل على الدولة وامتناعه عن دفع الجزية، أرسل إليه الحجاج جيشاً بقيادة عبيد الله بن أبي بكرة سنة ٧٩هـ وأمره بالتوغل في بلاد رتبيل ودكّ حصونهم وقلاعهم، بدأ رتبيل بالتراجع ليلحق به جيش المسلمين حتى وصلوا قريباً من مدينته العظمى فأغلق الطرق على المسلمين وحاصرهم وقتل عامة جيش المسلمين.

أرسل الحجاج بعد ذلك جيش الطواويس إلى سجستان بقيادة عبدالرحمن بن الأشعث لتأديب رتبيل وبالغ الحجاج من تجهيز الجيش بالخيول الروائع والسلاح الكامل وبلغ من ضخامة الجيش وتجهيزاته أن سمّاه الناس جيش الطواويس وأسند القيادة لابن الأشعث رغم أن عم ابن الأشعث إسماعيل حذر الحجاج بأن لا يبعث ابن الأشعث لأنه يخاف خلافه.

ما أن جاز ابن الأشعث جسر الفرات لم ير لأحد من الولاة عليه طاعة وسلطان وكان الحجاج قد قال: هو لي أهيب وفيّ أرغب من أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي.

مضى ابن الأشعث بجيشه الضخم لتأديب ملك سجستان رتبيل عن أعماله ضد جنس المسلمين السابق فلما وصلت أخبار هذا الجيش الضخم إلى رتبيل كتب إلى ابن الأشعث يعتذر له عما حلّ بالمسلمين في بلاده وطالباً منه الصلح، لم يقبل ابن الأشعث الصلح وأخذ بالتوغل في البلاد وحاول رتبيل تكرار ما عمله مع ابن أبي بكرة فأخذ

بإخلاء البلاد والحصون أمام ابن الأشعث ليوقعه في شراكه، فطن ابن الأشعث لذلك ولم يستمر في التوغل واكتفى بما سيطر عليه من البقر والغنم والغنائم، ثم كتب للحجاج بما حققه من فتوحات وبخطته التي سينفذها، لكن الحجاج ودون استشارة من أهل الحرب رفض خطة ابن الأشعث بل استهجنها وكتب إليه ثلاثة كتب على التوالي سفّه فيها رأيه وهدده بالعزل إن لم يفعل ما يأمره به الحجاج.

وكان من نتائج هذا التصرف الأحمق من الحجاج أن تمرد عبدالرحمن بن الأشعث بجيشه على الحجاج وأثارت كتب الحجاج حفيظة ابن الأشعث وحركت ما يدور في نفسه من كره للحجاج فجمع الناس وخطبهم مبيناً نصحه لهم ومعرضاً برأي الحجاج، وطلب رأيهم فثاروا وقالوا: «بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نُطيع، ثم تكلم الشاعر الخطيب عامر بن واثلة الكناني والذي دعا الناس لخلع الحجاج ومبايعة ابن الأشعث، بايعهم ابن الأشعث على خلع الحجاج والقتال معه حتى بنفي الله الحجاج من العراق ولم يذكروا خلع الخليفة عبدالملك».

تعتبر ثورة ابن الأشعث من أخطر الثورات ضد الدولة الأموية، فهددت كيانها بالزوال واضطرت الخليفة عبدالملك لمساومة أصحابها وأراد ابن الأشعث الذهاب للعراق قاصداً الحجاج بعد أن انضم إليه خلق كثير، لما وصلت هذه الأخبار للحجاج أصيب بالهلع والذعر فكتب للخليفة يخبره بالأمر ويطلب منه المدد وتوالت الكتب بينهما وتوال وصول المدد من عبدالملك للحجاج.

ما موقف المهلب بن أبي صفرة مما حدث؟

نهى المهلب ابن الأشعث عما فعله وقال له: «الله الله فانظر لنفسك لا تهلكها ودماء المسلمين فلا تسفكها والجماعة فلا تفرقها والبيعة فلا تنكثها فإن قلت: أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه عليها من الناس، فلا تعرضها لله في سفك دم ولا استحلال محرم».

كما كتب المهلب إلى الحجاج مما يجب عليه أن يفعله في مواجهة ابن الأشعث، لم يكترث ابن الأشعث لنصح المهلب ولم يُعره أي اهتمام.

أما الحجاج فنظر إلى نصح المهلب من منظوره المتشكك فيمن حوله فعده غشاً من المهلب.

تقدم ابن الأشعث نحو العراق وفي منتصف الطريق أقدم ابن الأشعث ومن معه على حظوة خطيرة حمقاء عندما أعلن خلع عبدالملك والسعي إلى تنحيته[1].

معركة الزاوية «قرب البصرة»:

قرر الحجاج مواجهة ابن الأشعث ومن معه قبل وصولهم إلى العراق فبدأ بإرسال كتائب متتالية، لكنها لم تستطع إيقاف زحف ابن الأشعث والذي تمكن من هزيمتها واستمر في تقدمه حتى دخل البصرة التي فرّ منها الحجاج ومن معه من أهل الشام ونزل بالزاوية وعندها أيقن الحجاج بمدى إخلاص المهلب في نصحه له فقال: «لله، أبوه، أي صاحب حرب هو ! أشار علينا بالرأي فلم نقبل ووقتها انضم لابن الأشعث جموع كثيرة من أهل البصرة والتقى الجيشان عند الزاوية وتتالت الهزائم بجيش الحجاج، لكن تمكنت إحدى فرقه المقاتلة من هزيمة إحدى فرق ابن الأشعث، استغل الحجاج نصره هذا وكثف الهجوم على خصمه، مما اضطر ابن الأشعث للتراجع وتوجه نحو الكوفة تاركاً البصرة، بايعه أهل الكوفة ولحق به أهل البصرة وانضم إليه أهل المصالح والثغور حتى بلغ من معه مائة ألف ومعهم مثلهم من مواليهم الذين أجبرهم الحجاج على دفع الجزية رغم إسلامهم»[2] وحرمانه لهم من الأعطيات والأرزاق عند اشتراكهم في الفتوح وحرمانهم من المساواة وظُلم بعض الولاة لهم.

لما رأى أهل الشام قوة ابن الأشعث، أشاروا على عبدالملك بعزل الحجاج وقالوا: «إن كان إنما يرضى أهل العراق أن تنزع عنهم الحجاج فانزعه عنهم نخلص لك طاعتهم فإنه عزله أيسر من حرب أهل العراق».

---

(١) الطبري ٧/ ٢٣٤.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي، ص٩.

عندها أرسل عبدالملك ابنه عبدالله وأخاه محمد بالجيش إلى العراق وأمرهم أن يعرضوا على أهل العراق بنزع الحجاج عنهم وإجراء العطاء لهم، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد شاء من العراق ويكون والياً عليه فإن قبلوا فيكون أخاه محمد والياً على العراق بدل الحجاج وإن رفضوا فيبقى الحجاج أمير الجميع ومسؤول القتال.

رفض أهل العراق وبقوة فكرة الخليفة، بينما قبل بها ابن الأشعث وحثّ الناس على قبولها، لكنهم لم يوافقوا بل جددوا خلع الخليفة عبدالملك وأن الفرصة معهم للتخلص من الحكم الأموي، لكن يبدو أن الحس السياسي عند زعماء ثورة ابن الأشعث كان غائباً وأن مبايعتهم لابن الأشعث جاءت في لحظات عاطفية ثورية.

المعركة الحاسمة (دير الجماجم) سنة ٨٣ هـ :

سلم عبدالله بن عبدالملك ومحمد بن مروان أمر قيادة الجيوش الأموية إلى الحجاج وقالا له: «شأنك بعسكرك وجندك، فاعمل برأيك فإنا قد أمرنا أن نسمع ونطيع لك».

بدأ الاستعداد للقتال وجرى بينهما أكثر من ثمانين موقعة أشهرها موقعة دير الجماجم والتي استمرت مائة يوم، انتهت بهزيمة ابن الأشعث في ٤ جمادى الآخرة سنة ٨٣هـ وتبعتها معركة في مسكن شعبان سنة ٨٣هـ انتهت بهزيمة ابن الأشعث وهروبه إلى سجستان حيث تصالح مع ملكها رتبيل على أن يسقط عنه الخراج إن ظفر وإن هُزم يلجأ إليه فيحميه.

هدّد الحجاج رتبيل إن لم يُسلم إليه ابن الأشعث بأنه سيغزوه في مائة ألف مقاتل، رضخ رتبيل للتهديد وعزم على تسليم ابن الأشعث فلما أحسّ ابن الأشعث بغدر رتبيل ألقى بنفسه من فوق القصر الذي كان يقيم فيه فمات مباشرة فأخذ رتبيل رأسه وأرسلها إلى الحجاج سنة ٨٥هـ.

شارك عدد من العلماء في ثورة ابن الأشعث منهم: أنس بن مالك، عبدالرحمن بن أبي ليلى، الإمام الشعبي سعيد بن جبير الذي قتله الحجاج سنة ٩٤هـ مما يدل على بغض الناس والعلماء للحجاج وكان للعلماء في جيش ابن الأشعث كتيبة خاصة تسمى كتيبة القرّاء.

من الأسباب التي ساهمت في فشل ثورة ابن الأشعث:

١- عدم تمكن العلماء من السيطرة على مسار الحركة خاصة بعد خلع الثائرين للخليفة.
٢- تحكم أصحاب الدوافع الإقليمية والمذهبية في مسارها.
٣- عدم امتلاك الثورة للرؤية الواضحة
٤- شخصية ابن الأشعث وطبيعة جيشه.
٥- كانت القيادة بيد ابن الأشعث وليس العلماء وعدم وجود تنظيم قوي في توجيه الثوار.
٦- ذكاء الخليفة عبدالملك وصلابته ودعمه المستمر للحجاج بالإمدادات.
٧- لم تتوفر في شخصيته الصفات القيادية وغدر ملك سجستان رتبيل به.

المبحث الثالث: النظام الإداري في عهد عبدالملك

لِمَ اعتبر الكثير من المؤرخين أنّ عبدالملك يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الأموية؟ اعتُبر كذلك لأنه قام بإصلاحات إدارية كثيرة فطوّر مؤسسات الدولة وسار على نهج الخليفة معاوية في ذلك. ومن أهم ما قام به عبدالملك من إصلاحات إدارية هو تعريبه للإدارة والنقد، لكنه يختلف نوعاً ما عن معاوية لأنه تفرد بالسلطان والحكم فلم يُشعر ولاته بشيء من الاستقلالية والحرية في القول والرأي، لذا نظم عبدالملك دولته على هذا الأساس من التمسك بالسلطان والسيادة والانفراد فنظم وسائل حكمه تنظيماً أبرز أنه السيد المتفرد في دولته.

أهم معالم التطوير الإداري في عهد عبدالملك:

أولاً: تطوير الدواوين وزيادتها: ومن أهمها:

أ- ديوان الرسائل: تطور بشكل كبير وخاصة أثناء ولاية الحجاج على العراق لكثرة الثورات والخارجين على الدولة. كانت تصدر الرسائل من الديوان بشكل مستمر إلى من يهمه الأمر لمعالجه كل جديد فراسل قادة الحركات المتمردة على حكمه ليفت من عضدهم فراسل مصعب بن الزبير وابن الأشتر، كما كان يرسل التوجيهات الإدارية والعسكرية إلى ولاته وقادته وخاصة مع الحجاج واختار عبدالملك لهذا الديوان أهل الثقة والأمانة عنه.

ومن أشهرهم: قبيصة بن ذؤيب وكان يطلع على الكتب الواردة إلى الخليفة قبل عرضها على الخليفة نفسه ومن كتاب ديوان الرسائل المشهورين روح بن زنباع وكان على جانب كبير من العلم والأمانة الذي تمتع بفقه أهل الحجاز ودهاء أهل العراق وطاعة أهل الشام.

ب- **ديوان العطاء (الجند)**: ارتبط العطاء بالنواحي العسكرية والسياسية، لذا اضطر عبدالملك تحت ضغط بعض الظروف الطارئة إلى زيادة العطاء وإدخال أناس آخرين في الديوان.

استخدم عبدالملك سلاح زيادة العطاء عند تمرد الجراجمة في لبنان وضد عبدالله بن الزبير فنادى أحياناً الحجاج في جنده قائلاً: قاتلوا على أُعطيات عبدالملك. تطور هذا الديوان في ولاية الحجاج على العراق بسبب تقاعس الجند عن الخروج لقتال الخوارج تطور على أساس المقدرة والكفاءة وإعطاء العطاء ثم التوجه لجهات القتال استخدم عبدالملك العطاء وسيلة للقضاء على الفتنة. وكان عبدالملك يُكرم كل من أسدى بخدمة عسكرية للدولة أو أظهر بطولة وشجاعة في جبهات القتال، فقد كرّم عبدالملك موسى بن نصير عندما حرر إفريقيا سنة ٨٣هـ كما كرّم الحجاج المهلب بن أبي صفرة وأصحابه بعد قضائهم على الخوارج الأزارقة.

من أشهر من تولى إدارة هذا الديوان سرجون بن منصور الذي تولى ديواني الجند والخراج في دمشق.

ج- **ديوان الخراج**: كان صاحب الخراج يحصل على أموال طائلة من عمله ويساعده عدد من الموظفين ومن أشهر أصحاب الخراج: أثيناس في مصر وزادان فروخ في العراق وخلفه صالح بن عبدالرحمن.

د- **ديوان الخاتم**: نظمه عبدالملك حيث أنشأ داراً للمحفوظات في دمشق ولا يولي عبدالملك هذا المنصب إلا أوثق الناس عنده.

هـ- **ديوان الطراز (التطريز)**: وهذا الديوان مسؤول عن ملابس الخليفة والأمراء ورجال الحاشية وما يليه من التطريز وأشرطة من الكتابة وتطور مدلول الطراز فأصبح

يطلق على المصنع والمكان الذي تصنع فيه مثل هذه المنسوجات ولما بدأت تظهر مظاهر الترف والأبهة أنشأ الأمويون عدداً من المصانع عُرفت باسم «دور الطراز».

و- **ديوان البريد:** أظهر عبدالملك اهتماماً خاصاً به لأنه وسيلة مهمة من وسائل ضبط الدولة وانتظام أمورها. وتطور هذا الديوان فلم يعد وسيلة لنقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولايات بواسطة تبادل الخيل وحسب، بل أصبح وسيلة مهمة في العمليات العسكرية: نقل الأشخاص المهمين باستخدام الرحلات السريعة والمنظمة وتطور ليصبح عيناً للخليفة فينقل أخبار الأقاليم والعُمّال وشكاوى الناس على عُمّالهم وموظفي الدولة عندهم. وحتى يكون العمل سريعاً قام عبدالملك بتنظيم طرق البريد وتحديدها وتثبيتها فقام ببناء الأميال في الطرقات كعلامات دلالة للطرق وتحديد مسافاتها.

أفاد عبدالملك من هذا الديوان في الجوانب العسكرية (نقل أخبار المعارك والتحركات والإمدادات العسكرية) ولأهمية هذا الديوان جعل عليه عبدالملك أخص خاصته وهو قبيصة بن ذؤيب، وأمر عبدالملك حاجبه أن لا يحجب صاحب البريد، والبريد متى جاء من ليل أو نهار وبه أصبح الخليفة يطلع بشكل يومي على تفاصيل الأحداث، وكان الحجاج يتسمع أخبار ولاته وقادته الميدانيين بواسطة البريد، لذا بنى الحجاج المناظر والمنائر على المرتفعات حيث تُنقل الإشارات بواسطتها عن طريق إشعال النار أو الدخان

ثانياً: تعريب عبدالملك الدواوين (الأسباب والنتائج): بدأت عملية التعريب في عهد عبدالملك وأكملها من جاء بعده من الخلفاء حيث تحولت الدواوين من اللغات الفارسية، اليونانية، القبطية إلى اللغة العربية كان لعملية التعريب أسباب ونتائج.

أسباب التعريب:

١- دخول شعوب مختلفة اللغات والديانات إلى الإسلام ولرغبتهم في التفقه في الدين وقراءة القرآن دون لحن ثم وضع النقاط على الحروف.

٢- لتحقيق وحدة الدولة وتماسكها وإنهاء التأثيرات الشعوبية ولتأكيد سيادة الدولة سياسياً على البلاد المفتوحة.

٣- حتى لا تنافس اللغات الأجنبية لغة القرآن العربية ولتنظيم جهاز الدولة الإداري وتحقيق سيادة الدولة واستقلالها.

٤- كان للعامل الاقتصادي أثر هام في تعريبها لأن من تولاها سابقاً كان يحصل على أموال طائلة من عمله.

أما نتائج تعريب الدواوين، فقد حقق آثاراً عظيمة في جميع الميادين ومن أهمها:

١- تحقيق سيادة الدولة ولغة القرآن الكريم والسنّة النبوية وتعزيز مكانتها أمام اللغات الأجنبية في الدولة، لذا انتشرت وطغت الثقافة العربية على الثقافات الأخرى.

٢- ظهور فئة مهمة من الكُتّاب العرب أو الموالي حلّوا محل الكُتّاب من الفرس والروم في إدارة دواوين الدولة.

٣- ظهور حركة الترجمة من اللغات الأخرى إلى العربية وكانت حركة تعريب الدواوين أول عملية ترجمة منظمة وممن اهتم بالترجمة من أمراء بني أمية خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥هـ وهو أول من قام بنقل بعض كتب الكيمياء والطب من اليونانية إلى العربية.

٤- كان تعريب الدواوين عاملاً مهماً في انتشار اللغة العربية وتعلمها من غير العرب.

٥- مكّن تعريب الدولة من تحقيق الإشراف المباشر والعام على النواحي المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات الضرائب.

٦- توجه الموالي لتعلم اللغة العربية لأنها الطريق إلى الوظائف والمناصب العالية في الدولة فانتشر اللحن وشاع الخطأ فتعلم الموالي النحو ودراسته فحدثت نهضة لغوية واسعة وكان لوالي العراق الحجاج دور بارز في ذلك فظهر علماء كبار من الموالي في العصرين الأموي والعباسي.

٧- ومن النتائج المهمة لحركة التعريب إيجاد نظام إداري موحد يشمل كافة الأقاليم.

ثالثاً: إدارة الأقاليم في عهد عبدالملك وأهم هذه الأقاليم: اهتم عبدالملك بتنظيم الأقاليم وإداراتها فأعاد النظر في تقسيمها وترتيبها نظراً لتغير الحياة وتطورها. كان يرأس كل إقليم أمير يكون تعيينه وعزله من الخليفة مباشرة ويملك هذا الأمير سلطات واسعة

منها: تعيين العُمّال على الولايات والمدن التابعة للإقليم - تعيين الموظفين - تنظيم الجند - تجهيز الحملات العسكرية ويقودها بنفسه أو من ينوب عنه - الإشراف على سك النقود - إدارة الشؤون السياسية ويساعده صاحب الخراج الذي يتولى إدارة الشؤون المالية وهو بمثابة الرقيب على الوالي وقد يحدث صدام بينهما.

أما مساعدي الأمير من الموظفين فأهمهم: القاضي، صاحب الشرطة، رئيس الحرس، الكاتب، الحاجب.

الأقاليم الكبرى في خلافة عبدالملك :

أ- بلاد الشام وفيها عاصمة الدولة: وتضم أجناد:

١- جند دمشق والحاضرة دمشق.
٢- جند حمص والحاضرة حمص ومن مدنها تدمر.
٣- جند قنسرين والحاضرة قنسرين ومن مدنها حلب ومرعش.
٤- جند فلسطين والحاضرة اللد ومن مدنها تبوك.
٥- جند الأردن والحاضرة طبريا ومن مدنها عكا.

عيّن عبدالملك على الأجناد ولاة خاصين بها أما جند دمشق فتحت إدارة الخليفة مباشرة.

ب- إدارة الحجاز وأواسط الجزيرة العربية واليمن:

١- المدينة: جمعها عبدالملك سنة ٧٣هـ للحجاج بن يوسف وكان يستخلف على المدينة عند ذهابه لمكة عبدالله بن قيس بن مخرمة الذي ولاّه قضاء المدينة ولمكانة الحجاز الدينية استخدم عبدالملك في إدارتها سياسة حكيمة واستجاب لمطالب الناس في عزل الحجاج عن الحجاز فحصل بذلك على بيعة كبار أهله عزله من ولاية الحجاز سنة ٧٥هـ وولاه العراق وولى على المدينة عمه يحيى بن الحكم ثم إبان ابن عثمان سنة ٧٦هـ وعزله سنة ٨٢هـ وولى مكانه هاشم بن سهيل المخزومي استمر حتى وفاة عبدالملك.

٢- مكة: ولى عبدالملك عليها بعد مقتل عبدالله بن الزبير ابنه مسلمة وفي السنة نفسها جمع عبدالملك كما قلنا سابقاً الحجاز واليمن للحجاج حتى سنة ٧٥هـ وبعد عزله

عيّن عبدالملك على مكة الحارث بن خالد المخزومي فكانت مدة ولايته قصيرة، اهتم عبدالملك بتعمير الكعبة وسلامتها.

٣- **أواسط الجزيرة العربية**: من أهم مناطقها اليمامة والبحرين، ولى عبدالملك عليها بعد قضائه على دولة النجدات يزيد بن هبيرة المحاربي ثم عزله وعين مكانه إبراهيم بن عربي وظل حاكمها حتى مات عبدالملك.

٤- **اليمن**: كان عليها والٍ واحد هو شقيق الحجاج محمد بن يوسف الثقفي، لم يكن حسن السيرة مع أهلها.

ج- إدارة العراق والمشرق الإسلامي:

١- **العراق**: بايع أهل الكوفة عبدالملك بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ وعين عبدالملك والياً عليها بشر بن مروان وأمره باللين لأهل الطاعة والشدة على أهل المعصية.

وولى عبدالملك على البصرة خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد، ولما فشل في قتال الخوارج عزله وجمع البصرة للكوفة (العراق) تحت ولاية بشر بن مروان سنة ٧٤هـ وفي سنة ٧٥هـ وبعد عزل الحجاج عن ولاية الحجاز عينه عبدالملك والياً على العراق وظل عليها حتى مات عبدالملك.

٢- **ولايات تابعة للعراق في شرق الجزيرة العربية**: وأهمها البحرين وعُمان وأمير العراق هو الذي يعين ولاتها.

٣- **خراسان والمشرق الإسلامي**: بعد مقتل مصعب بن الزبير وخضوع العراق لعبدالملك بدأ يخطط لاسترجاع خراسان وفي سنة ٧٨هـ ضم عبدالملك خراسان وسجستان والمشرق الإسلامي إلى ولاية العراق تحت حكم الحجاج. فولى الحجاج على خراسان سنة ٧٩هـ المهلب بن أبي صفرة لجهوده في القضاء على الخوارج الأزارقة وعين الحجاج على سجستان عبدالله بن أبي بكرة.

د- إدارة الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان: كانت الموصل جزءاً من ولاية الجزيرة الفراتية كما ذكر البلاذري، اهتم بها عبدالملك لمواجهة الخزر والبيزنطيين وشجع العرب

على استيطان هذه المناطق وأقطعهم الأراضي ونقل بعض القبائل العربية من البصرة للموصل وعين على إدارتها أخاه محمد بن مروان سنة ٧٣هـ وكلفه بمقاتلة الخزر والبيزنطيين وفتح المناطق المجاورة للجزيرة.

هـ- إدارة مصر: عيّن عبدالملك على ولاية مصر أخاه عبدالعزيز بن مروان وأوضح له كيفية اختيار موظفيه وقال له: «انظر حاجبك فليكن من خير أهلك، وإذا انتهى إليك شكل فاستظهر عليه بالمشاورة، وإذا سخطت على أحد فأخّر عقوبته». ثم امتدت ولاية عبدالعزيز إلى إفريقيا وهو الذي يعين عليها الولاة ويعزلهم فقد عزل الحسان بن النعمان سنة ٧٨هـ وولى مكانه موسى بن نصير، توفي عبدالعزيز سنة ٨٦هـ بعد أن ولي مصر عشرون عاماً.

و- إدارة إفريقيا: من أشهر ولاتها في عهد عبدالملك حسان بن النعمان الغساني ثم موسى بن نصير، كانت إدارتها مضطربة بسبب ارتداد زعيم البربر كسيلة عن الإسلام ودخوله القيروان ثم استقرت بعد هزيمة كسيلة وقتله.

رابعاً: الخطوط العامة لسياسة عبدالملك في إدارة شؤون الدولة: اتبع عبدالملك في إدارته لشؤون دولته سياسة حكيمة ومرنة فقد اتبع ﷺ في سياسته في إدارة شؤون الدولة ما يلي:

١- المشاورة: وهو القائل «المشاورة تفتح مغاليق الأمور» فقد استشار أصحابه في المسير لمحاربة مصعب بن الزبير في العراق، كما قبل مشورة روح بن زنباع في تولية الشعبي قضاء البصرة. ومن أكبر مستشاري عبدالملك وخاصته في الأمور المهمة: ربيعة الجرشي، روح بن زنباع، عمه يحيى بن الحكم (يشاوره ويخالفه).

٢- الاعتماد على أهل الشام: أخلصوا له فقال لهم: «أنتم الجبة والرداء وأنتم العدة والجداء» لقد قام ملك بني أمية على أكتاف قبائل الشام وجنودها.

٣- وضع الشخص المناسب في المكان المناسب: من مزايا عبدالملك أنه كان يوكل المهمات لأصحابها فقد وبّخ واليه على البصرة خالد بن عبدالله سنة ٧٢هـ عندما قال له

«قبّح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلب بن أبي صفرة إلى جنبك يجني الخراج» وكان عبدالملك رغم ذلك يُحسن معاملة قادته وحاشيته ويكرمهم ويمنّ عليهم ويزورهم في مرضهم.

٤- **متابعة أخبار العُمّال والولاة:** كان ﷺ حريصاً على نزاهة عُمّالة واستقامة أخلاقهم وابتعادهم عن الشبهات وكان يعاتب ولاته الذين يقبلون الهدايا قائلاً: «وما أتيت أمر لا تخلو فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مصطنع» ويعزله عن عمله لقبوله الهدية دون مبرر.

٥- **تقديم الأقرباء في المناصب وحفظ التوازن القبلي:** كان عبدالملك يحبذ تولية أقاربه في المناصب، لكنه كان يراقبهم مراقبة شديدة، ويعزل من أظهر عجزاً في عمله واستخدم ولاته على الأقاليم في الأغلب من قبائل عرب الشمال من مصر، بينما اختار موظفي إدارته غالباً من قبائل عرب الجنوب (اليمنية).

٦- **تسامحه مع أهل الكتاب:** سمح عبدالملك لأهل الكتاب بممارسة طقوسهم الدينية بحرية، كما شغل بعضهم مناصب عالية في إدارة الدولة لثقة الخليفة بهم[1].

٧- **التحقيق مع العُمّال المشتبه بهم ومقاسمة أموالهم:** عيّن عبدالملك الضحاك بن عبدالرحمن الأشعري مسؤولاً عن مراقبة ومتابعة القضايا المالية في الأقاليم، كما قاسم عبدالملك كاتب خراج مصر أثيناس أمواله وكان يحقق مع الجباة وعُمّال الخراج المشكوك في أمانتهم عند اعتزالهم العمل ويسمى مكان التحقيق مع أمثال هؤلاء «دار الاستخراج»[2].

٨- **الإحسان لم تدم وبايع ابن الأشعث:** كتب عبدالملك لواليه على العراق الحجاج بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث «ادع الناس إلى البيعة، فمن أقرّ بذنبه وندم على فعله فخلِّ سبيله» كما أمره بإعطاء الناس عطاءهم. وقال عبدالملك إنما يجب طاعتنا عليهم بأن نعطيهم حقوقهم.

(١) تاريخ القدس، عارف العارف، ص٥٢.

(٢) النظم الإسلامية، د. حسن إبراهيم، ص١٩٦.

٩- احترام وتقدير الشخصيات البارزة في المجتمع: حين بايع محمد بن الحنفية لعبدالملك أعطاه عبدالملك ميثاقاً قضى حوائجه وكتب للحجاج «لا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه» كما عزز عبدالملك الصلات مع آل العباس فأكرم علي بن عبدالله بن العباس كما أمره ألا يسيء إلى عروة بن الزبير.

١٠- تحجيمه للولاة إذا أرادوا تجاوز الخطوط الحمراء: عندما أساء الحجاج لأنس ابن مالك وكتب أنس لعبدالملك كان رد عبدالملك عليه قاسياً قال أنس لعبدالملك عن إساءة الحجاج إليه: «قال لي هُجْراً وأسمعني نُكراً، ولم أكن لذلك أهلاً، فخُذْلي على يديه، فإني أمَتُّ بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه والسلام عليك» قرأ عبدالملك كتاب أنس وهو يبكي وبلغ به الغضب ما شاء الله ثم كتب للحجاج بكتاب غليظ فكتب الحجاج كتاب اعتذار ولم يزل أنس مكرماً حتى مات.

١١- محاسبته للمداهنة والنفاق بين الناس: لم يسمح عبدالملك لأحد أن يداهنه أو ينافق إليه أو يضيع وقته فيما لا يفيد. وقد قيل إن رجلاً طلب من عبدالملك أن يخلو به فقال له عبدالملك: «احذر في كلامك ثلاثاً: إياك أن تخدعني فأنا اعلم بنفسي منك أو أن تكذبني فإنه لا رأي لكذوب، أو أن تسعى إليّ بأحد من الرعية فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب منهم إلى جوري وظلمي».

١٢- مفهوم السياسة عند عبدالملك: أدركها بدقة واستوعب دروسها وأدرك السبل العملية لسياسة الناس ومن مختلف منازلهم وقال لابنه الوليد عندما سأله ما السياسة؟ قال: «هيبة الخاصة مع صدق مودتها واقتياد قلوب العامة بالإنصاف واحتمال الهفوات».

١٣- سيرة أبي بكر وعمر ورعيتها: قال عبدالملك لرعيته: «انصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر؟ إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه» وكلام عبدالملك هذا لا يسلم به على إطلاقه لأن المطلوب من السلطان أن يسير مع القرآن الكريم وهدي النبي محمد ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين ويعمل على نشر سير الصالحين ويقتدي بهم ومنهاج الخلافة الراشدة فيضيق عليه الخناق، والعودة إلى

صفاء الحياة في عصر الخلفاء الراشدين ليس أمراً مستحيلاً ولا بد من تحقق القدر من التوافق بين الراعي والرعية وطريق ذلك طويل وشاق يحتاج حالياً إلى بذل الجهد في تربية الرعية على معاني الإيمان وإعطاء القدوة والمثل في ذلك.

خامساً: من أهم ولاة عبدالملك بن مروان **«الحجاج بن يوسف الثقفي»**: الحجاج من الشخصيات المرموقة في العهد الأموي وكان له باع طويلة في تثبيت حكمهم وتثبيت الاستقرار والأمن بعد جهد كبير من القتال وكان شديداً في سياسته. كرهه الكثير من الناس ولكنه أخلص لبني أمية فمن هو الحجاج هذا؟

اسمه الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي ويُكنى بـ «أبي محمد» علّم مع والده الغلمان في الطائف ثم قدم دمشق، أشار روح بن زنباع على الخليفة عبدالملك أن يولي الحجاج أمر الجيش وتم ذلك له فأصبح لا يتأخر أحد من الجيش في النزول والرحيل وبصرامته وشدته بسط سيطرته على الجيش.

كان خطيباً وقافاً عند النصوص الشرعية، رغم قسوته وجبروته، دعا الحجاج أعرابياً للغداء معه فقال له الأعرابي: دعاني من هو خير منك، قال له الحجاج: ومن هو؟ قال: الله دعاني إلى الصوم فأجبته، قال: في هذا الحر الشديد؟ قال: نعم، صمت ليوم هو أشد حراً منه، قال: فافطر وصم ليوم غد، قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد، قال: ليس ذلك إليّ، قال الأعرابي: فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه؟ قال الحجاج: إن طعامنا طيب.. قال: لم تطيبه أنت ولا الطباخ، إنما طيبته العاطفة.

كان الحجاج محباً لأهل البيت ويكرمهم، تزوج الحجاج من ابنة عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ورغم طلاقه لها ظل واصلاً لوالدها حتى مات.

قال عنه الإمام الذهبي، كان ظلوماً، جباراً، خبيثاً، سفاكاً للدماء، شجاعاً مقداماً ذو مكر ودهاء وفصاحة وبلاغة وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه.

أما ابن كثير فقال عنه: «كانت فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق (هلاك وظلم) كان يغضب غضب الملوك ويتشبه بزياد ابن أبيه وعمر بن الخطاب فيما يزعم، كان نقمة على

أهل العراق، كان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة، كان يكثر من قراءة القرآن، ويتجنب المحارم، لكنه يتسرع في سفك الدماء، لا نكفره ولا نمدحه ولا نسبّه».

الحجاج والشعراء:

كان يقرب الحجاج الشعراء منه، يستمع لشعرهم وينقده بملكة الأديب، كان يحفظ الكثير من جيد الشعر وقيل في الحجاج قصائد مدح من عيون الشعر للشعراء جرير، ليلى الأخيلية، الفرزدق، الأخطل وغيرهم.

من مظالم الحجاج بالنسبة للعلماء قتله للمقرئ المفسر الفقيه سعيد بن جبير وهو أعلم التابعين بالطلاق، قتله الحجاج وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر لعلمه، قال الحسن يوم قتله: اللهم اعنْ على فاسق ثقيف، والله لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتله لأكّبهم الله في النار.

قال سعيد بن جبير عندما علم أن الحجاج أمر بقتله: اللهم لا تحل له دمي، ولا تمهله من بعدي وبعدها أصيب الحجاج بفزع عظيم وجعل يقول: ما لي ولك يا سعيد بن جبير، وكان في جملة مرضه كلما نام رأى سعيد آخذاً بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيمَ قتلتني فيستيقظ مذعوراً قائلاً: ما لي ولابن جبير.

مرض الحجاج وموته:

كان موته بالأكلة في بطنه (مثل السرطان اليوم) سوّغه الطبيب لحماً في خيط فخرج مملوءاً دوداً، وأصابه الله بالبرد فكانت النار تظل مشتعلة تحته حتى تكاد تحرق ثيابه وهو لا يحس بها.

شكا الحجاج ما به للحسن البصري فقال له البصري: ألم أكن نهيتك أن تتعرض للصالحين فلججت، فقال له: يا حسن، لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني ولكني أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي، فبكى الحسن بكاءً شديداً، وظل الحجاج على وضعه هذا خمس عشرة يوماً، فلما أُخبر الحسن بموته سجد شكراً وقال: «اللهم كما أمته أَمتْ سنته»[1].

---

(١) شذرات الذهب، ١/ ٣٨١.

من أقوال الحجاج عند وفاته: «اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل»، فرح أهل العراق بموت الحجاج وسموا ذلك اليوم «عرس العراق».

كان موته ليلة ٢٧ رمضان سنة ٩٥هـ وله من العمر ٥٣ أو ٥٥ سنة وترك خلفه ثلاثمائة درهماً ومصحفاً وسيفاً وسرجاً ورجلاً ومائة درع موقوفة.

حزن على موته الخليفة الوليد بن عبدالملك حتى دخل عليه الشاعر الفرزدق فرثا الحجاج رثاءً أرضى الوليد وأقرّ عينه.

كان الحسن البصري لا يجلس مجلساً يُذكر فيه الحجاج إلا ودعا عليه حتى رآه ذات ليلة في منامه فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: قتلتُ بكل قتيل قتلته ثم عُزلت مع الموحدين وبعدها أمسك الحسن عن شتمه والدعاء عليه[1].

ما قاله بعض العلماء في وفاة الحجاج:

١- ابن طاووس: قرأ قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥].

٢- النخعي: بكى من شدة الفرح.

٣- الحسن البصري: سجد شكراً لله وقال: «اللهم أمته فاذهب عنا سنته».

٤- عمر بن عبدالعزيز: خرّ لله ساجداً حينما بلغه وفاة الحجاج.

المبحث الرابع: النظام المالي في عهد عبدالملك

امتاز عهد عبدالملك في بدايته بكثرة القلاقل والثورات مما أجهد ميزانية الدولة، تنوعت مصادر الدخل وزادت النفقات وضعفت الحركة الزراعية والتجارية بسبب الحروب والاضطرابات وحتى نطلع على الوضع المالي في عهد عبدالملك فإليك الآتي:

(١) البداية والنهاية، ١٢/ ٥٥٤.

أولاً: مصادر دخل الدولة:

تكونت المصادر لبيت المال من:

١- **الزكاة**: على المسلمين القادرين.

٢- **الجزية**: على أهل الذمة كما فرضت بعض الوقت على من أسلم منهم في عهد الحجاج.

٣- **الخراج**: المفروض منه على الأراضي القريبة أكثر منه على الأراضي البعيدة «ضريبة ناتج الأرض المفتوحة».

٤- **الصوافي**: الضريبة على الأراضي التي أُقطعت للأشراف والأراضي التي توفي أصحابها ولم يكن لهم ورثة وعلى هذه الأراضي ضريبة العشر ورفع عنها ضريبة الخرج، وهي كالمكافأة التي يحق للخليفة أن يأمر بها وهذا من الانحرافات في مصادر الدولة المالية.

٥- **خمس الغنائم والعشور على التجارة.**

ثانياً: النفقات العامة:

تنوعت فشملت:

١- **النفقات العسكرية**: زادت عطاءات الجنود العرب لحثهم على القتال حتى بلغ حدها الأدنى (١٢٠٠) درهماً والأوسط (١٦٠٠) درهماً والأعلى (١٨٠٠) درهماً وخاصة في ولاية العراق.

٢- **نفقات الصناعات الحربية**: وخاصة في تطوير سلاح البحرية.

٣- **النفقات الإدارية**: تشمل رواتب الولاة، القضاة، الكُتّاب، موظفو الدولة.

ثالثاً: تطور القطاع الزراعي:

تطور القطع الزراعي في الجانب الغربي للدولة بينما تدهور في الجانب الشرقي ويرجع تطوره في الجانب الغربي إلى:

١- الاستقرار السياسي والاستقرار النقدي وعدم تعرضه للغش مثل الدراهم الفارسية.
٢- أصحاب الدخول فيها مرتفعة بينما منخفضة في الجانب الشرقي (الموالي).
٣- استبدال الضرائب العينية في كل من الجزيرة والشام بضرائب نقدية خلال عملية المسح للأراضي فزاد الطلب النقدي لساكني المدن على السلع الزراعية ومنتجات الريف.

ومن مظاهر التطور الزراعي في المنطقة الغربية: زيادة حصيلة خراج منطقتيْ الجزيرة والشام ولتطور نظام الري من خلال توزيع المياه بين الأنهار الفرعية مما زاد من إنتاجية الأراضي الزراعية.

أما في المنطقة الشرقية فتدهور الإنتاج الزراعي هناك لأسباب منها:

١- الاضطراب السياسي وفقدان الأمن مما انعكس على مستوى الإنتاجية الزراعية.
٢- تركز الثروة في يد قلة من سكان المنطقة وترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة مما أضعف حركة التبادل فساد الكساد.
٣- قرار بيع الأراضي الخراجية وإرسال ثمنها لبيت المال لمواجهة النقص في إيرادات الدولة فتحولت الأراضي الخراجية إلى أراضي عشرية فكان لذلك آثار عكسية مستقبلاً على إيرادات الدولة.
٤- إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية فكان لذلك نتائج سلبية على اقتصاد الدولة.
٥- المواجهة العسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالي والدولة الأموية.

وحتى يعالج عبدالملك هذا الخلل قام بالإجراءات والمشاريع الآتية:

نقل الأيدي العاملة الزراعية من خطة إلى أخرى فنقل الحجاج عدداً كبيراً من مزارعي السند مع أهلهم وجواميسهم وإسكانهم في الأرض الموات لإحيائها وتم نقل رؤوس الأموال إلى المناطق الفقيرة لتنميتها.

رابعاً: تطور التجارة:

شهدت الفترة الأولى من خلافة عبدالملك ضعفاً في حركة التجارة الداخلية بسبب: كثرة الفتن والقلاقل الداخلية، نقص السيولة النقدية، صعوبة دفع أثمان الصفقات التجارية الكبيرة، وارتفاع نسبة الضرائب على التجارة ووصلت أحياناً إلى ٣٣٪.

لكن مع بداية سنة ٧٧هـ بدأت التجارة الداخلية بالازدهار لأسباب منها:

١- زيادة السيولة النقدية الداخلية بعد صك العملة الإسلامية الجديدة والموحدة للدولة.

٢- حدوث استقرار وهدوء نسبي داخل الدولة بعد قمع الثورات والفتن الداخلية التي سبق ذكرها.

٣- قيام إصلاحات تجارية مثل: توحيد وحدة الكيل والميزان، تنظيم الأسواق وتطوير نظام الحسبة، وتوفير خدمات لراحة التجار مثل: الخانات (الفنادق) والحمامات داخل الأسواق.

أما بالنسبة للتجارة الخارجية:

أ- العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية: مرت بمرحلتين الأولى مرحلة نمو وقوة وازدهار أثناء فترة القلاقل والاضطرابات في المنطقة الشرقية للدولة وحدوث استقرار أمني في المناطق الغربية مما ساعد على هجرة رؤوس الأموال من مناطق التوتر في الشرق إلى مناطق الهدوء في إقليم الشام.

أما المرحلة الثانية فشهدت تدهوراً في المبادلات التجارية بسبب تدهور العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية وحدوث استقرار نسبي في الأقاليم الشرقية بعد القضاء على الخوارج وثورة ابن الأشعث. ولتطوير التجارة الإسلامية مع دول الشرق الأقصى عن طريق الخليج العربي.

ب- العلاقات التجارية مع دول المشرق الأقصى: بواسطة طرق الخطوط البرية عن طريق بلاد السند وبواسطة التجارة عن طريق الخطوط البحرية وذلك بالقضاء على قراصنة البحار وتحصين المدن التجارية وتطوير السفن التجارية.

خامساً: الحرف والصناعات:

أ- **صناعة المنسوجات:** بُني لها مصانع خاصة (دور الطراز) والتي تنتج الملابس الخاصة بموظفي الدولة الكبار من ولاة وأمراء وقضاة.

ب- **التشييد وصناعة مستلزمات البناء:** الاهتمام بالعمران وبناء المساكن وزخرفتها والمساجد مثل المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة كما ظهرت **صناعة** قطع الرخام.

ج- **الصناعات الحربية:** تطورت في عهد عبدالملك فتم بناء داراً لصناعة السفن الحربية في تونس، ووضع تنظيم خاص لإمدادها بالعُمّال المتخصصين من مصر، وتوفير الأخشاب اللازمة من الغابات الإفريقية الداخلية بواسطة جماعات من البربر أصحاب الخبرة في ذلك. ومن أشهر الولاة الذين طوروا صناعة السفن والي تونس الحسان بن النعمان الغساني والذي شق قناة بين الميناء والمدينة بطول ١٢ ميلاً تحتوي على أحواض لبناء السفن وتطورت صناعة السفن التجارية في العراق في عهد الحجاج بن يوسف ومن أماكن صناعتها: البحرين، واسط.

د- **صناعة البردي في مصر:** كان ورق البردي يستخدم في المكاتبات وأعمال الدولة قبل ظهور صناعة الورق. وفي عهد عبدالملك استبدلت العبارات البيزنطية على البردي بعبارات دينية إسلامية.

هـ- **صناعات أخرى متنوعة:** مثل: الحدادة، الصناعات الخشبية، صناعة الحلي والمجوهرات.

سادساً: دور صك العملة وتعريب النقد:

كان العالم الإسلامي قبل خلافة عبدالملك يتعامل مالياً بالعملة الفارسية والرومية من دراهم ودنانير وتناقصت هذه العملة بعد انهيار الدولة الفارسية على يد المسلمين واضطراب أوضاع الدولة البيزنطية ولم يعد المتوفر منها يكفي لتغطية النشاط التجاري والاقتصادي والاحتياجات المالية للدولة الإسلامية.

قام الخليفة عبدالملك بن مروان بتعريب العملة وأنشأ داراً لسكها وجعلها تحت إشرافه واستغنى عن الدنانير الآتية من بلاد الروم بعد خلافه معهم على الكتابة عليها ودخل في أمر صك العملة وزن النقود وشكلها. وهناك أسباب دينية وسياسية واقتصادية لعبت في عملية صك العملة منها:

١- حرص الخليفة على صبغ الدولة الأموية بصبغة إسلامية.
٢- الحرص على إنهاء التبعية الاقتصادية للدولة البيزنطية.
٣- توقف حجم السيولة النقدية لدولة الخلافة على ما يصلها من الدولة البيزنطية مما عرضها لأزمات اقتصادية خاصة أثناء الحروب بينهما.
٤- لتسيطر دولة الإسلام على مصادر عرض النقود لتخليصها من الغش وكسب ثقة الناس بها وحاجتها لعملة موحدة داخلية.
٥- إصدار الدولة للنقود هو تعبير عن السيادة وعدم التبعية والتحرر من النفوذ الأجنبي.
٦- صك النقود الإسلامية الموحدة في أرجاء الدولة يمثل الاتجاه نحو الدولة المركزية فيتحقق بذلك ضبط جهازها المالي.
٧- لتوفر كمية كبيرة من الذهب والفضة لدى المسلمين في البلاد المفتوحة.

وكان لهذه العملة الإسلامية خصائص معينة (وزن الدينار، سعر الصرف بين الدرهم والدينار) وتم تحديد وزن الدينار بـ ٢٢ قيراطاً إلا حبّة بينها الدرهم يمثل ١٥ قيراطاً أو ستة دوانق وتحدد إصدار هذه العملة بالتاريخ الهجري المتسلسل، وتابع الخلفاء معاقبة من يقوم بتزييف العملة.

سابعاً: العمارة والبناء في عهد الخليفة عبدالملك:

شهدت خلافة عبدالملك بن مروان بناء عدد من المدن والمساجد المشهورة ومن أهمها:

أ- بناء مدينة واسط: اختطها الحجاج بن يوسف في أرض كسكر، تبعد عن الكوفة أربعين فرسخاً، وكذلك عن المدائن والأهواز والبصرة متوسطة لمدن العراق الكبرى كما ورد في فتوح البلدان للبلاذري.

بدأ الحجاج عملية البناء سنة ٨٣هـ وأتمها سنة ٨٦هـ وأنفق على بنائها بموافقة عبدالملك خراج العراق كله لخمس سنوات. اشتملت مدينة واسط على: دار الإمارة، المسجد الجامع في وسطها، الأسواق، لعبت دوراً سياسياً في عهد الحجاج فمنها تتحرك الجيوش وفيها تصك العملة وبها محلات تجارية تقدمت زراعياً وكانت تمثل عاصمة العراق في عهد الحجاج.

ب- **بناء مدينة تونس**: بناها القائد الحسان بن النعمان الغساني سنة ٨٢هـ لتكون قاعدة عسكرية بحرية ضد البيزنطيين، بُنيت على أنقاض قرية ترشيش وسميت بتونس في الإسلام لأن جيوش المسلمين كانت تنزل حول صومعة الراهب فتأنس لصوته، تبعد عن الساحل عشرة أميال فحفر حسان قناة تصلها بالبحر لتكون ميناءً بحرياً ومركزاً للأسطول الإسلامي بعد إنشاء داراً لصناعة السفن فيها.

بنيت تونس للحد من اعتداءات الروم البحرية وللقيام منها بغزو وفتح جزر البحر المتوسط، أرسل لتونس شقيق عبدالملك وواليه على مصر عبدالعزيز بن مروان ألفي قبطي من الصنّاع المهرة في صناعة المراكب البحرية، ولتحقيق الهدف الاقتصادي الاجتماعي من بنائها تم إنشاء المسجد الجامع ودار الإمارة وثكنات الجند ومكاناً لتدوين الدواوين وتنظيم الخراج ولدعوة البربر للإسلام ولتكون مركز إشعاع فكري وعلمي وثقافي وببنائها حمى عبدالملك البلاد من غارات الروم.

ج- **بناء مسجد قبة الصخرة المشرفة في بيت المقدس**: أوكل عبدالملك عملية البناء إلى رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام اللذين جمعا الصنّاع من أطراف البلاد ورُصد لبنائه أموالاً طائلة، وبنوا للمسجد قبة جاءت على أحسن ما يكون من الجمال وفرشاها بالرخام الملون وأقاما لها سدنة وخداماً غمروها بأنواع الطيب والمسك والعنبر وماء الورد والزعفران وتبخيرهم للقبة والمسجد من الليل وفرشاها بأنواع البسط الملونة وعلقا فيها قناديل الذهب والفضة ولم يكن لصخرة بيت المقدس نظيراً على وجه الأرض بهجة وجمالاً فهي تحفة فنية سابقاً ولاحقاً وحتى الآن.

وهناك سؤال يطرح نفسه، ما سبب بناء هذا المسجد وبهذا الإتقان والإبداع وخاصة لتزامنه مع سيطرة عبدالله بن الزبير على الحجاز وبيت الله الحرام؟

روى اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤هـ وهو مؤرخ شيعي إمامي، كان يعمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية وذكر هذا المؤرخ الذي يكره بني أمية أن عبداللك أمر بهذا البناء الضخم والمثمن الشكل ليحج إليه الناس بدل مكة أمام سيطرة ابن الزبير على المسجد الحرام وهي رواية خارجة عن الإطار المقبول إسلامياً، لأنه لا يعقل لرجل بمستوى عبدالملك المتصف بالدهاء والمكر والعقل الراجح والفقيه في أمور الدين أن يضع نفسه موضع شبهة الكفر فيصد الناس عن الحج إلى بيت الله الحرام، هذا كما يقول المؤرخ الصلابي من ناحية العقل والمنطق. أما من ناحية السند فيقول الصلابي، لم نسمع أحداً من خصوم الأمويين أورد مثل هذا الكلام في مطاعنهم على عبدالملك – سوى الشيعة – وحديث الزهري «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد ...» ليس فيه الدعوة إلى الحج إلى قبة الصخرة والطواف حولها بدل الكعبة كما يدّعي بعض المفترين ونسف هذه الشبهة رئيس هيئة علماء المسلمين في العراق الآن د. حارث الضاري في كتابه القيم «الإمام الزهري وأثره في السنّة» عن عبدالملك بن مروان.

المبحث الخامس: النظام القضائي والشرطة

أولاً: القضاء:

كان استمراراً لما كان عليه من قبل، فضلاً عن إسهاماته في تنظيم جوانب متعددة ويعتبر عبدالملك أول من أقر ديواناً للمظالم، كما أمر بقراءة عهود القضاة أي أوامر تعيينهم في المسجد الجامع أولاً ثم التوجه لدار الأمير حيث يُتلى أمامه عهد تولية القاضي.

كان عبدالملك يختار قضاته ممن يتصفون بالتقوى والنزاهة ومن أشهر قضاته: أبو إدريس الخولاني سنة ٧٤هـ وعامر الأشعري وعبد بن عامر اليحصبي وعبدالله بن قيس وسليمان المحاربي ومعظمهم من الفقهاء.

كان عبدالملك يراقب قضاته ويمنع زوجاتهم من التدخل في القضاء وكانت رواتبهم عالية تصل إلى عشرة آلاف درهماً وثلاثمائة جريب. وقد حدد عبدالملك مهور النساء وجعل حدها الأعلى (٤٠٠ ديناراً).

يعتبر عبدالملك أول من أفرد يوماً للنظر في مظالم الناس، فإذا وقف على أمر مشكل رده إلى قاضيه الخولاني فعبدالملك الآمر والخولاني هو المباشر وكان يلبس عبدالملك عند نظره في مظالم الناس الجبة والرداء ويقام على رأسه بالسيوف من الحماة والأعوان وهو أول من أسس ديواناً للمظالم.

ثانياً: الشرطة:

كان عبدالملك يختار لمنصب صاحب الشرطة من توفرت فيه شروط معينة وأول من عينه عبدالملك على شرطته عبدالله بن هاني الودي ثم استبدله بيزيد بن كبشة السكسكي وغيرهم، ومن أعمال صاحب الشرطة: ضبط الجناة واللصوص، تنظيم وضبط نزول جيوش الخلافة ورحيلها أثناء الحملات العسكرية.

توجد قوة الشرطة في كافة أقاليم الدولة وتتبع إدارياً للولاة، كما اتخذ عبدالملك حرساً خاصة لحمايته والمحافظة على سلامته في حلّه وترحاله وكان معظم حراس عبدالملك من الموالي.

المبحث السادس العلماء والشعراء في عهد عبدالملك

أولاً: العلماء:

اختلف موقفهم من عبدالملك فمنهم:

أ- من خرج على عبدالملك مثل: عبدالرحمن بن أبي ليلى، سعيد بن جبير.

ب- من ابتعد عن عبدالملك رغم مبايعته له منهم الحسن البصري.

ج- قريب من عبدالملك وناصح له مثل قبيصة بن أبي ذؤيب وهو من علماء المدينة انتقل للشام وأصبح من خاصة عبدالملك، يمتاز بروح مرنة تراعي الأحوال وتوازن بين المصالح، تسلم عدة مهام في عهد عبدالملك فكان على الخاتم والبريد، وكاتباً لعبدالملك

ومن مكانته عند عبدالملك أن عبدالملك قال لحاجبه: «لا يُحجب قبيصة، أي ساعة جاء من ليل أو نهار» وكان بالنسبة لعبدالملك مستشاراً ووزيراً له وساعده الأيمن في إدارة الدولة وكان ملازماً لعبدالملك في سفره وإقامته.

وكان قبيصة صادقاً في النصيحة مراعياً المصلحة العامة لذا نهى عبدالملك من خلع أخيه عبدالعزيز عن ولاية العهد لابنه الوليد، لكن عبدالملك عقد البيعة لابنه الوليد بعد وفاة أخيه عبدالعزيز ولأخيه سليمان من بعده وبعث إلى البلدان لأخذ البيعة لهما، فدعا والي المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي أهلها للبيعة فبايعوا عدا العالم سعيد بن المسيب فضربه هشام وطاف به ثم سجنه وبعث لعبدالملك يخبره بما حدث، فقال قبيصة لعبدالملك: يا أمير المؤمنين يقتات عليك هشام بمثل هذا؟ يضرب ابن المسيب ويطوف به! والله لا يكون سعيد أبداً أمحل وألج (مقاوم) منه حين يضرب سعيد، لو لم يبايع ما كان يكون منه؟ ما سعيد مما يخاف فتقه ولا غوائله على الإسلام وأهله، وإنه لمن أهل الجماعة والسنّة. وقال قبيصة لعبدالملك: اكتب إليه يا أمير المؤمنين في ذلك، فقال عبدالملك: اكتب أنت إليه عني تخبره برأيي فيه ومخالفتي من ضرب هشام إياه. فكتب قبيصة إلى سعيد بذلك، فقال سعيد عندما قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني وكتب كتاباً لوالي المدينة باسم عبدالملك: سعيد كان والله أحوج إلى أن نصل رحمه من أن نضربه وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف، وهكذا نرى أثر قبيصة الفعال في إطفاء الفتن وحسن معالجته للأمور بحكمة تتم عن بُعد نظر ومعرفة بعواقب الأمور، وكان لهذا العالِم الناصح محاولات تستهدف إصلاح بطانة عبدالملك بتقريب العلماء له وجعلهم ضمن جلسائه ليكثر بذلك سوادهم عنده ويكون لهم أثر أقوى وأنفع في إصلاحه. لذا قرّب منه الإمام الزهري حتى أصبح من أصحابه وفرض له العطاء ثم عاد للمدينة لمواصلة طلب العلم فانقطع عن عبدالملك. قال مكحول عن قبيصة: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة، وقد توفي ﷺ سنة ٨٦هـ أو سنة ٨٧هـ.

عبدالملك وعطاء بن أبي رباح ونصيحته له:

دخل عطاء على عبدالملك بمكة في وقت حجه في خلافته وهو جالس على السرير وحوله الأشراف فلما بَصُر عبدالملك بعطاء قام إليه فسلم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد

بين يديه وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين اتقِ الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتقِ الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم. واتقِ فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونهم بابك، فقال له عبدالملك: أفعل، ثم نهض وقام فقبض عليه عبدالملك وقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها فما حاجتك؟ فقال عطاء: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد.

وكان بنو أمية في عهدهم يأمرون منادياً يصيح في الحج: لا يُفتي الناس إلا عطاء بن رباح فإن لم يكن فعبدالله بن أبي نجيح، وكان المسجد فراش عطاء عشرين سنة.

ثانياً: عبدالملك والشعر والشعراء:

امتاز أمير المؤمنين عبدالملك بأنه راوٍ للشعر وناقد له وكثير الاستشهاد به في المناسبات. اهتم عبدالملك بالشعراء لأنهم ذو أثر إعلامي واضح في ذلك الزمان في كسب الأنصار والهجوم على الخصوم، لذلك أكرمهم بالأعطيات وأجزل لهم العطاء. ومن أشهر الشعراء في خلافة عبدالملك:

١- **الأخطل**: هو غياث بن غوث التغلبي وهو نصراني وهو شاعر الدولة الرسمي، أجزل له عبدالملك العطاء، مدح الكثير من خلفاء بني أمية، من مدحه لهم:

تمت جدودهم والله فضّلهم ... وجد قوم سواهم خامل نكد

وأنتم أهل بيت لا يوازنهم ... بيت إذا عُدّت الأحساب والعدد

٢- **الفرزدق**: اسمه همام بن صعصعة بن مجاشع، ومن شعره في مدح عبدالملك:

فالأرض لله ولاّها خليفته ... وصاحب الله فيها غير مغلوب

دعوْا ليستخلف الرحمن خيرهم ... والله يسمع دعوى كل مكروب

فأصبح الله ولي الأمر خيرهم ... بعد اختلاف وصدع غير مشعوب

٣- **الراعي**: هو أبو جندل عبيد بن حصين النميري ولكثرة وصفه للإبل في شعره لُقِّب بالراعي ومن مدحه لعبدالملك:

إني حلفــت عــلى يمــين بــرَّه لا أكــذب اليــوم الخليفــة قــيلا

٤- جرير: هو جرير بن عطية التميمي البصري، مدح عبدالملك ووصفه بأنه ركن الدين والحفيظ على أحكام الشرع ويقول إن الله قد فضّل بني أمية على غيرهم من أهل البدع، ومن شعره:

لــولا الخليفــة والقــرآن يقــرأه مــا قــام للنــاس أحكــام ولا جمــع

أنــت الأمــين أمــين الله لا سرف فــيما وُليــت ولا هيابــه ورع

أنــت المبــارك يهــدي الله شــيعته إذا تفرقــت الأهــواء والــشيع

يــا آل مــروان إن الله فــضلكم فــضلاً عظــيماً عــن مــن دينــه البــدع

المبحث السابع: الفتوحات في عهد الخليفة عبدالملك

أولاً: الفتوحات في بلاد الروم:

بعد قضاء عبدالملك على الفتن والثورات الداخلية، وبعد مقتل عبدالله بن الزبير تطلع عبدالملك للجبهة الشمالية المواجهة للبيزنطيين، فعيّن أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة وأرمينيا وامتنع عن إرسال المال إلى الإمبراطور البيزنطي مما أغضبه وأعلن الحرب وقدم بجيش كبير لغزو بلاد المسلمين من ناحية أرمينيا فخرج محمد بن مروان لملاقاة الغزاة البيزنطيين وهزمهم هزيمة شنيعة رغم كثرة عددهم ففر الإمبراطور البيزنطي وانفض عنه معظم جنده سنة ٧٤هـ مما زعزع مكانة الدولة البيزنطية وبعدها عاد عبدالملك لإرسال حملات الصوافي والشواتي والتوغل داخل الأراضي البيزنطية القريبة لإرهاقهم.

وفي سنة ٨١هـ أرسل عبدالملك ابنه عبدالله على رأس حملة فتحت مدينة قاليقالا وفي سنة ٨٤هـ فتح عبدالله مدينة المصيصة في آسيا الصغرى وبنى فيها حصناً ووضع فيها حامية قوامها ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس وبنى فيها مسجداً.

بعد قضاء عبدالملك على الفتن والثورات وعودة الوحدة السياسية للدولة أثبت عبدالملك أن لديه القدرة على تحقيق النصر على البيزنطيين، وتحقق له ذلك على يد ابنه

مسلمة بن عبدالملك والذي برز كقائد فذ وعظيم وخاصة في عهد أخويه الوليد وسليمان ضد البيزنطيين.

كان مسلمة في كل سنة يفتح بلداً أو حصناً من حصون الروم وقد مدحه والده وأوصى به بني أمية قائلاً وهو على فراش الموت «انظروا مسلمة، فاصدروا عن رأيه ... فهو قائد من قواد الفكر وقائد من قادة الجهاد بالنسبة لبني أمية، لا يُخالفون له رأياً ولا يعصون له أمراً ويلجأون إليه في أيام المحن والحروب».

ثانياً: الفتوحات في الشمال الإفريقي:

كان لاستشهاد القائد زهير بن قيس وأصحابه أمام البربر والبيزنطيين أثر عظيم في نفسية الخليفة عبدالملك، لذا لما انتهى من حربه مع ابن الزبير ومقتله وعودة الوحدة للجبهة الداخلية، جهز عبدالملك جيشاً كبيراً قوامه أربعون ألفاً معظمهم من مقاتلي بلاد الشام وعيّن قائداً عليهم الحسان بن النعمان الغساني الملقب لورعه وتقواه «الشيخ الأمين» وطلب منه عبدالملك التحرك من مصر إلى جهاد البيزنطيين في الشمال الإفريقي وكانت البداية سنة ٧٤هـ حيث تمكن حسان من استعادة القيروان التي كان قد احتلها زعيم البربر كسيلة بعد مقتل عقبة بن نافع في معركة نهودة احتلها دون مقاومة تذكر ثم توجه إلى قاعدة البيزنطيين على الساحل «قرطاجنة» فاحتلها عنوة ثم عاد للقيروان ليعاود الروم والبربر استعادة قرطاجنة فعاد حسان لفتحها ثانية كما احتل بنزرت في تونس لكنه لم يتبع الروم المنهزمين الذين تحصنوا في مدينة باجة كما تحصن البربر في مدينة بونة ثم عاد حسان إلى القيروان للراحة لكثرة الجراح في أصحابه. ثم التفت حسان إلى البربر وسأل عن زعيمهم فقيل له زعيمتهم امرأة تُعرف بالكاهنة فالتقى بها حسان عند نهر يدعى نيني فانتصرت الكاهنة وقُتل من المسلمين خلق كثير، وانسحب حسان إلى قابس فسيطرت الكاهنة على المغرب كله بعد حسان بخمس سنين، وخوفاً من عودة المسلمين إليهم أمرت قومها بتخريب البلاد فقطعوا الشجر وهدموا الحصون ونتيجة لما أحدثته الكاهنة من خراب كبير فرّ الأهالي طلباً للمساعدة ضد ما نزل بهم من الكاهنة.

تمكن إمبراطور بيزنطة ليونتوس من تجهيز حملة كبيرة بقيادة البطريق يوحنا الذي أعدّ أسطولاً كبيراً لنقل الجند فتمكن من استعادة قرطاجنة سنة ٧٨هـ دون مقاومة تذكر

واضطر نائب حسان «أبو صالح»الانسحاب من قرطاجنة فدخلها البطريق يوحنا وأقام حسان في منطقة طرابلس عند سرت خمس سنين حتى استقرت الأوضاع في المشرق، فأرسل عبدالملك المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى إفريقيا في أواخر سنة ٨١هـ.

وعلى مقربة من قابس دارت المعركة بين حسان والكاهنة انتهت بنصر كبير للمسلمين ومقتل الكاهنة عند بئر سمي «بئر الكاهنة» وبعدها عاد حسان للقيروان سنة ٨٢هـ ومنها زحف إلى قرطاجنة وأعاد فتحها من البيزنطيين وبهذا النصر المزدوج خلصت أرض إفريقيا للمسلمين. وبعدها حدث استقرار للانطلاق ثانية لفتح ما تبقى من المغرب.

ومن سياسة حسان مع البربر:

١- إدخالهم في قيادة الجيوش لتأليفهم فاكتسب ولاءهم وإخلاصهم وكان قد رحّب بولدي الكاهنة وولى أكبرهم قيادة الجيش في منطقة الأوراس مما أدى لإسلام الكثير من البربر.

٢- عمل حسان على المساواة بين البربر والعرب المسلمين فمنحهم نصيبهم من الغنائم واهتم حسان بالتنظيم الإداري مدة إقامته هناك ٨٢-٨٥هـ فأنشأ ديوان الجند ونظم ديوان الخراج.

٣- قام حسان ببناء داراً لصناعة السفن وبنى مدينة تونس كما مرّ معنا سابقاً واهتم بالقيروان وجدد بناء مسجدها واهتم بتعليم البربر الإسلام فترك معهم ١٣ رجلاً من علماء التابعين لتعليمهم.

عزل والي مصر عبدالعزيز بن مروان حسان عن ولاية إفريقيا سنة ٨٥هـ لخلافهم على ولايتي برقة وطرابلس فشكى حسان عبدالعزيز للخليفة عبدالملك وخلفه موسى بن نصير سنة ٨٥هـ على الأرجح.

ثالثاً: فتوحات المشرق:

بناءً على توصية من عبدالملك كوفئ المهلب بن أبي صفرة على إخلاصه وتفانيه في محاربة الخوارج عُيِّن أميراً على خراسان سنة ٧٨هـ فنزل إلى مرو وبدأ في إعادة الهدوء والأمن والنظام إلى البلاد.

عبر المهلب بنفسه سنة ٨٠هـ نهر بلخ (سيحون) باتجاه بلاد التركمان فأرسل حملات إلى سمرقند وبخارى وطخارستان وبست وكلما فتح فتحاً أخرج الخُمس لبيت المال وأرسله إلى الحجاج وتقسيم الباقي بين المجاهدين. وكان في المقدمة أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف والمهلب في خمسة آلاف كما وجه المهلب ابنه يزيد إلى بلاد الختل وملكها الشبل بترغيب من ابن عم الملك فما كان من الملك إلا أن قتل ابن عمه وأجبر يزيد الشبل إلى المصالحة ودفع الفدية بعد أن هزمه عسكرياً كما أرسل المهلب بابنه الآخر حبيب إلى رابنجن فهرب أهل بخارى وعاد حبيب إلى أبيه منتصراً. هذا وقد توفي المهلب رحمه الله سنة ٨٢هـ في ولاية خراسان وكان رحمه الله سيداً جليلاً نبيلاً شجاعاً فقيهاً، وكان على جانب كبير من السخاء والكرم، خلف المهلب ابنه يزيد على خراسان والذي قام في سنة ٨٤هـ بفتح قلعة باذنجن بعد خروج حاكمها ينزك منها واستولى على الكثير من الأموال والذخائر منها. وعزل الحجاج يزيد وعيّن مكانه أخوه المفضل سنة ٨٥هـ الذي غنم الكثير وخلفه سنة ٨٦هـ قتيبة بن مسلم.

وفي سنة ٧٩هـ غزا عبيد الله بن أبي بكرة الملك رتبيل ودخل بلاده وأصاب منها الغنائم وهدم الحصون وهرب أتباع رتبيل من الترك أمام جحافل المسلمين حتى اقتربوا من عاصمتهم كابل فأغلق الترك على المسلمين الشعاب والمسالك مما دفع بن أبي بكرة إلى مصالحة رتبيل ليمكن المسلمين من الخروج من أرض الترك سالمين.

ولكي يعيد الحجاج الهيبة للدولة ومكانتها جهز سنة ٨٠هـ جيشاً قوياً من أهل الكوفة بلغ تعداده أربعون ألفاً من الكوفة والبصرة أعطاهم الحجاج أعطياتهم مسبقاً وأنجدهم بالخيل والسلاح وسمى هذا الجيش «جيش الطواويس» وكان الجيش بقيادة عبدالرحمن بن الأشعث والذي وصل سجستان وسبق الحديث عن ذلك عندما تكلمنا عن ثورة عبدالرحمن بن الأشعث والذي أكمل الفتوح في هذه المناطق في خلافة الوليد بن عبدالملك القائد الشاب والشجاع قتيبة بن مسلم كما سيمر معنا لاحقاً.

أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد عبدالملك:

١- انتصر المسلمون على أعدائهم بِقيمٍ ومُقومات ومُثل كثيرة تعلموها وتربوا عليها من القرآن والسنّة ومن أبرزها: عقيدة سليمة، عبادة صحيحة، كتاب منير، أسوة حسنة،

شريعة عادلة، أخلاق حميدة، تربية صالحة، جهاد في سبيل الله، بطولة في المواقف وصمود في وجه الأعداء.

٢- دخول الإسلام للبلاد المفتوحة: فالإسلام دين عالمي ورسالته للبشرية كافة، المعاملة السمحة الكريمة حيث اتصف القادة والجنود بالأخلاق الحميدة والقيم السامية مما كان له الأثر الكبير في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام ولوفاء المسلمين بكل ما التزموا به.

٣- إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم واحتفظ المسلمون بمناصب القضاء والشرطة والحسبة بينما أسهم أبناء البلاد المفتوحة في الإدارة ووصولهم لأعلى المناصب الإدارية في ظل الحكم الإسلامي والتي كانوا محرومين منها في ظل حكوماتهم السابقة.

٤- قيام حركة التعريب بين شعوب البلاد المفتوحة فهجر الأهالي لغاتهم الأعجمية وحلّت العربية لغة القرآن مكانها كما هاجرت بعض القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة واندمجوا مع أهلها كما عمل عبدالملك على تعريب الدواوين مما ساعد على تعريب اللسان نشر الخط العربي في البلاد المفتوحة وأدى تفوق الحضارة الإسلامية إلى انتشار اللغة العربية في ربوع العالم.

٥- الحرص على سلامة الجيوش بالحذر واليقظة وإقامة الحرس وجمع الأخبار عن العدو عن طريق العيون وأبناء البلاد المفتوحة والتجار.

٦- أهمية الشورى في إدارة الصراع وقد أوصى عبدالملك أخاه عبدالعزيز والي مصر بأنه إذا انتهى إليك مشكل فاستظهر عليه بالمشورة فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة ولن يهلك امرؤ عن مشورة

٧- الاهتمام بالحدود البرية وبناء الحصون والقلاع وترميم المدن والأسوار، وبناء القواعد العسكرية تتوسط المدن الكبيرة كقاعدة واسط التي بناها الحجاج تتوسط بين الأهواز والبصرة والكوفة والمدائن وقد عملت هذه القواعد دوراً مهماً في عملية الإمداد لثغور المشرق والاهتمام بحملات الصوافي والشواتي لتأمين حدود الدولة ضد هجمات الأعداء.

٨- كان للفتوحات آثار اقتصادية واجتماعية، فظهر التجار المرافقين للعسكر لشراء بعض ما يغنمونه من العدو فنشطت حركة التجارة وازدهرت. وكان بعض الولاة كعبدالعزيز بن مروان يقومون بعملية الإطعام فكان له بمصر ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره ومائه جفنه يطاف بها على القبائل من أجل الإطعام.

وفاة أمير المؤمنين عبدالملك ودفنه:

عندما حضرته الوفاة قال لبنيه ارفعوني، حتى شمّ الهواء وقال: يا دنيا ما أطيبك ! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير وإن كنا بك لفي غرور.

ولما احتضر دخل ابنه الوليد فبكى فقال له عبدالملك: ما هذا؟ إذا متُّ فشمر واتزر والبس جلد النمر وضع الأمور عند أقرانها واحذر قريشاً واتق الله فيما استخلفك فيه واحفظ وصيتي، إياكم والاختلاف والفرقة، فإنه بها هلك الأولون قبلكم وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه وأكرموا الحجاج.

مات بدمشق سنة ٨٦هـ يوم الجمعة وقيل الأربعاء وله من العمر ستين عاماً وقيل ٦٣ وقيل ٥٨ ودفن بين باب الجابية وباب الصغير ومنقوش على خاتمه (آمنت بالله مخلصاً) وصلى عليه ولده الوليد بن عبدالملك ولي عهده وكانت مدة حكمه ٢١ سنة وشهراً ونصف كما ورد في كتاب مروج الذهب للمسعودي.

الفصل الثالث

خلافة الوليد بن عبدالملك بن مروان

(٨٦-٩٦هـ)

من هو الخليفة الوليد؟ هو أبو العباس، الوليد بن عبدالملك بن مروان بن الحكم، كان دمياً ومترفاً، قليل العلم، مغرم بالبناء، أنشأ الجامع الأموي والمسجد النبوي، فتح بوابة الأندلس وبلاد الترك وغزا بلاد الروم عدة مرات، اتصف بالتعسف والجبروت، لكنه ضبط الأمور وقام بأمر الخلافة وشهدت البلاد في عهده حركة فتوح واسعة.

من مواليد سنة ٥٠هـ وأمه ولادة بنت العباس العبسي.

اختاره والده عبدالملك ولياً لعهده ومن بعده أخاه سليمان بعد أن كان أخاه عبدالعزيز بن مروان ولياً للعهد فطلب منه الخليفة عبدالملك أن يتنازل عن ولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان لكنه رفض وقال: يا أمير المؤمنين إني وإياك قد بلغنا سناً لم يبلغهما أحد من أهل بيتك، وإني لا أدري ولا تدري أيّنا يأتيه الموت أولاً، فإن رأيت ألا تغثث علي بقية عمري فافعل، فردّ عبدالملك، لعمري لا أغثث عليه بقية عمره. وقال عبدالملك لولديه: إن يرد الله أن يعطيكموها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك، لكن موت عبدالعزيز قبل عبدالملك حسم الخلاف بينهما فعقد عبدالملك بيعة ولاية العهد لولديه الوليد وسليمان من بعده وأمر ولاته في الأقاليم بأخذ البيعة لهما.

رفض العالِم الرباني سعيد بن المسيب أمر والي المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي بالمبايعة لوجود النهي في سنّة رسول الله ﷺ عن البيعة لاثنين في آنٍ واحد فما كان من والي

المدينة - كما مر معنا - إلا أن ضربه وطاف به ثم سجنه وأنهى هذا الإشكال العالِمِ الفقيه المقرب من عبدالملك قبيصة بن ذؤيب والذي لامَ الخليفة على ما فعله واليه هشام بابن المسيب وتم إخلاء سبيله وسعيد هذا هو الذي رفض تزويج ابنته من ابن الخليفة عبدالملك (الوليد) وزوّجها لأحد تلاميذه ابن أبي وداعة. وهكذا يجب على العالِمِ أن يقول كلمة الحق للسلطان وإظهار رأيه والحكم الشرعي مهما يعرضه ذلك من أضرار، لكن سعيد رحمه الله التزم بآداب عامة مع بني أمية منها:

١- رغم خلافه مع بني أمية اعترف بإمامتهم وشرعية خلافتهم ورغم ما فعله به والي المدينة هشام فإنه كان يُصلي خلفه رغم إساءته إليه وقوله: الله بيني وبين من ظلمني.
٢- لم يُشغل نفسه بسب بني أمية أو ولاتهم أو إثارة الناس عليهم.
٣- لم يدفعه كرهه لبني أمية أن يضع يده مع معارضيهم نكاية بهم.
٤- رغم قرب قبيصة بن ذؤيب والزهري من بني أمية فلم يمتد كرهه لهذا العمل من العلماء وتقويمه بل كان يقدر لهم عملهم واجتهادهم فقد قال في الزهري: ما مات من ترك مثلك.

الأعمال الحضارية والإنسانية للخليفة الوليد :

أولاً: توسيعه للمسجد النبوي في المدينة: نظراً للاهتمام الكبير من الخليفة الوليد في البناء والعمران لُقِّب بمهندس بني أمية. صمم ﷺ على توسعة المسجد النبوي بإدخال حُجر أمهات المؤمنين وحجرة فاطمة وعائشة رضي الله عنهن جميعاً في المسجد وبعث بذلك إلى واليه على المدينة ابن عمه وزوج أخته عمر بن عبدالعزيز فجمع عمر فقهاء المدينة العشرة ووجوه الناس ليخبرهم بما أمر به الخليفة الوليد. ومن هؤلاء الفقهاء العشرة عروة بن الزبير، سالم بن عبدالله بن عمر وأخوه عبيد الله وخارجة بن زيد بن ثابت وأبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث.

أنكر الفقهاء والوجوه ذلك وكرهوه لأنهم رأوا أن بقاء بيوت النبي ﷺ على حالها أدعى للعبرة والعظة لأن في رؤية الحُجاج والمسافرين لهذه البيوت أدعى إلى الزهد في الدنيا.

كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة، لكنه أرسل إليه يأمره بتجديد البناء كما طلب. وأنكر سعيد بن المسيب إدخال حجرة عائشة في المسجد خشية أن يتخذ القبر مسجداً، لكن تدرج الحال إلى إدخال جميع الحجر في المسجد ثم البناء عليها وبناء القبة ثم اتخاذها مصلى والوقوع فيما حذّر منه ﷺ في قوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» البخاري.

كما كتب الخليفة الوليد لعمر بن عبدالعزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة والتي يستقى منها أهل المدينة وأجرى إليها الماء وأمره أيضاً بحفر الآبار وتسهيل الطرق والثنايا وتم هدم حجر جميع زوجات النبي ﷺ عدا حجره عائشة التي فيها قبر الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجعل عمر شكلها مخمساً حتى لا يستغلها الناس.

ثانياً: بناء المسجد الأموي: بدأ التخطيط له في عهد عبدالملك وتكامل البناء في عهد الوليد سنة ٩٦هـ وأصل المكان عبارة عن معبد بناه اليونان الكلدانيون ثم حوله النصارى إلى كنيسة.

قام الوليد بالتفاوض مع النصارى وإرضائهم مقابل عروض مغرية، جاء إلى الوليد أساقفة النصارى وقساوستهم بعد إحضاره لآلات الهدم وقالوا: «يا أمير المؤمنين، إنا نجد في كتبنا، أن من يهدم هذه الكنيسة يُجن» فقال ﷺ : أنا أحب أن أجن في الله، والله لا يهدم فيها أحد شيئاً قبلي، ثم صعد المنارة ثم إلى أعلى مكان من الكنيسة وضرب بها في أعلى حجر فألقاه فبادر الأمراء إلى الهدم وورد هذا الكلام في البداية والنهاية لابن الأثير. هدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى من المذابح والأبنية ثم شُرع في البناء.

استعمل الخليفة الوليد في عملية البناء خلقاً كثيراً من الصنّاع والمهندسين والعُمّال وأشرف على عملية البناء أخوه وولي عهده سليمان بن عبدالملك.

أنفق الوليد على عملية البناء أربعمائة صندوق، في كل صندوق أربعة عشرة ألف ديناراً وفي رواية أخرى في كل صندوق ٢٨ ألف ديناراً.

نقل بعض الناس للوليد قول البعض عنه أنه أنفق في عملية البناء أموال بيت المال في غير حقها فصعد بعد ذلك الوليد المنبر وقال للناس: إنه بلغني عنكم أنكم قلتم الوليد

أنفق بيوت المال في غير حقها، ثم قال: يا عمر بن مهاجر، قم فأحضر أموال بيت المال فحُملت على البغال إلى الجامع وبُسطت الأنطاع وأفرغ عليها المال ذهباً وفضة حتى صارت كوماً حتى كان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الآخر ووزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله على نعمائه وقال الوليد لأهل دمشق: إنكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي جامعكم هذا فاحمدوا الله تعالى وانصرفوا داعين شاكرين لخليفتهم ولم يكن على وجه الأرض أحسن بناء منه واستغرق بناؤه عشر سنين.

ثالثاً: المستشفيات: أمير المؤمنين الوليد يعتبر أول من أسس مستشفى خاصاً بالمجذومين سنة ٨٨هـ وأحضر الأطباء المهرة، وأجرى عليهم الأرزاق وأمر بعزل هؤلاء المرضى عن الأصحاء خشية العدوى، ويقول السيد أحمد عيسى بكر أن الخليفة الوليد أول من عمل البيمارستان بالشام للمرضى واستخدم لهم الخدام وأجرى عليهم الصدقات. ويعتبر الوليد أول من أنشأ دار الضيافة سنة ٨٨هـ.

رابعاً: كفالة الدولة للمحتاجين وتطوير الطرق: خصص الوليد ﷺ الأرزاق للفقهاء والضعفاء والفقراء وأجرى عليهم ما يكفيهم وقد عيّن لكل مُقعد خادماً ولكل ضرير قائداً، كما اهتم الوليد بتعبيد الطرق وخاصة المؤدية للحجاز لتيسير سفر الحجاج إلى بيت الله الحرام، لذا كتب الوليد إلى عمر بن عبدالعزيز والي المدينة آنذاك بتسهيل الثنايا وحفر الآبار وقام بحفر الفوارة في المدينة كما سبق أن ذكرنا.

ديوان المستغلات :

ينظر هذا الديوان في أموال الدولة غير المنقولة (من أبنية وعمارات وحوانيت) وذكر اسم هذا الديوان لأول مرة في عهد الخليفة الوليد عندما قلد نفيع بن ذؤيب منصب ديوان المستغلات، ويشرف هذا الديوان على جباية واردات الدولة من هذه الأملاك للدولة من أبنية وعمارات ومحلات تجارية.

الوليد والقرآن الكريم :

شبّ أمير المؤمنين كغيره من خلفاء بني أمية على حب القرآن وتلاوته وحث الناس على حفظه ومنحهم الإجازة وقيل عنه ﷺ أنه كان يختم القرآن في ثلاث وقيل في سبع وأنه قرأ وختم في أحد الرمضانات القرآن سبعة عشرة مرة ومن تشجيعه على حفظ القرآن أنه كان يقضي الدَّيْن عمن يحفظ القرآن.

وكان عروة بن الزبير - من أئمة المدينة - وأحد الفقهاء السبع فيها كما ورد في سير أعلام النبلاء يقرأ القرآن كل يوم في المصحف نظراً ويقوم به الليل ولم يترك قراءته إلا ليلة قطع أحد رجليه بسبب - الغرغرينا - حيث رفض شرب المرقد (البنج).

ولما جاءه رجل يعزيه بابنه الذي قتلته قوائم خيل اصطبل الخليفة قال له عروة إن كنت تعزيني برجلي فقد احتسبتها، فقال له الرجل بل أُعزيك بابنك محمد، فقال: اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء وأخذت ابناً وتركت أبناء. قال الخليفة الوليد في حقه: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا وتوفى عروة عن ٦٧ سنة في سنة ٩٣هـ.

الخليفة الوليد يطلب من الحجاج أن يكتب له سيرته :

لما طلب الوليد من الحجاج كتابة سيرته كتب إليه الحجاج قائلاً: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، وأدنيت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلّدت الخراج المُوفر لأمانته وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً يعطيه حظاً من نظري ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى المريب المسيء والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المذنب صولة العقاب وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

أم البنين زوجة الوليد:

هي ابنة عبدالعزيز بن مروان وأخت الخليفة الورع عمر بن عبدالعزيز وهي من فضليات النساء في عصرها. كانت دائمة الذكر لله سبحانه وتعالى موصولة القلب بكتابه الكريم تقرأه صباح مساء وتسابق زوجها الوليد في تلاوة القرآن الكريم ومن أهم صفاتها:

١- خشيتها لله تعالى ومن ورعها كانت تُعتق كل يوم جمعة رقبة وتحمل على فرس في سبيل الله وترفض كل هدية تأتيها من مصدر غير مشروع.

٢- جودها وكرمها: كانت تدعو النساء لبيتها فتكسيهن الثياب الحسنة وتعطيهن الدنانير وتقول عن البخل «والله لو كان ثوباً ما لبسته ولو كان طريقاً ما سلكته».

٣- موقفها من الحجاج: عندما دخل الحجاج على الوليد بعمامته السوداء بعثت لزوجها تقول له: من هذا الأعرابي المتسلح عندك، فقد راعها منظره وأوجست منه خيفة في نفسها وقالت: «والله لئن يخلو بك ملك الموت، أحبّ إليّ من أن يخلو بك الحجاج وقد قتل الخلق وأهل الطاعة ظُلماً وعدواناً فلما عرف الحجاج رأي أم البنين فيه قال للوليد: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة، وليس بقهرمانة، ولا تُطلعن على أمرك أو سرك ولا تستعملهن لأكثر من زينتهن وإياك ومشاورتهن فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تُطل الجلوس معهن، فإن ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك». فلما أخبرها الوليد بما قاله الحجاج فطلبت من زوجها أن تسلم عليه غداً ففعل. طلب الوليد من الحجاج أن يسلم على أم البنين، فطلب إعفاءه من ذلك لكنه صمم على أن يقابلها فأسقط في يد الحجاج لأنه يعلم رأيها فيه وفي أخيه محمد فلما جاء لمقابلتها حجبته طويلاً ثم أذنت له وتركته قائماً ولم تأذن له بالجلوس ثم قالت له: أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟ ثم عددت له فظائعه وأنكرت عليه قوله لزوجها بالأمس بالنساء وذكرت له قبح منظره وسوء خُلقه ثم قالت تُعرّض به: قاتل الله الذي يقول وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك:

أسـدٌ علـي وفي الحـروب نعامـة ربـداء تنفـر مـن صـغير الـصافر

ثم أمرت أم البنين جاريتها فأخرجته مقبوحاً مذموماً ومدحوراً، فلما دخل على الوليد سأله قائلاً: ما كنت فيه يا أبا محمد؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحبّ إليّ من ظهرها فضحك الوليد قائلاً: يا حجاج إنها ابنة عبدالعزيز بن مروان.

المراسلات بين الوليد وملك الروم:

كتب ملك الروم إلى الوليد بعد هدمه للكنيسة في دمشق: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كان صواباً فقد أخطأت وإن كان خطأً فما عذرك؟ كتب إليه الوليد قائلاً: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

ولما قرر الوليد فتح القسطنطينية أرسل القيصر له سفيراً (دانيا حاكم سينوب) للتباحث مع الخليفة حول عقد هدنة بين الطرفين وكانت بينهما مراسلات وتبادل هدايا، عندما قرر الوليد بناء الجامع الأموي طلب أن يستفيد من خبرات الروم في صناعة الفسيفساء والبناء والعمران. كما كانت بينها مراسلات متعلقة بالأسرى والرهائن بين الطرفين.

محاولة الوليد نزع ولاية العهد من أخيه سليمان:

أراد الوليد خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وأخذ البيعة لابنه عبدالعزيز وذلك قبل مرضه الذي مات فيه، رفض سليمان البيعة كما رفض أن يجعله من بعده وعرض عليه أموالاً كثيرة فأبى ولما كتب الوليد لعماله لمبايعة ابنه عبدالعزيز لم يجبه أحد إلا الحجاج وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس كما ذكر ذلك الطبري في تاريخه كما امتنع عمر بن عبدالعزيز وقال للوليد في أعناقنا بيعة لسليمان مما أغضب الوليد والذي حاول خنقه.

أصر الوليد على مبايعة ابنه عبدالعزيز وخلع أخيه سليمان وطلب إليه القدوم عنده فأبطأ فاعتزم الوليد المسير إليه على أن يخلعه، لكنه مرض ومات قبل أن يسير إلى سليمان وكانت وفاته يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ وهو ابن ٤٥ أو ٤٦ سنة وكان له من الأبناء ١٩ ابناً بين ولد وبنت وصلى عليه عمر بن عبدالعزيز «كان منقوشاً على خاتمه (يا وليد إنك ميت)».

ومن حسنات الوليد ﷺ :

١- استعانته بمن أعاد سيرة السلف، وهو ابن عمه عمر بن عبدالعزيز وزوج أخته فاطمة فولاّه المدينة سنة ٨٧هـ وعمره ٢٥ سنة وجمع حوله عشرة من فقهاء المدينة ليستشيرهم.

٢- كان يُحسن معاملة العلماء وخاصة سعيد بن جبير.
٣- هو أبو الفتوحات في الشرق والشمال والغرب فانتشر الإسلام في خلافته.
٤- الإكثار من قراءة القرآن والإحسان للضعفاء والفقراء وقد بنى داراً للعجزة.

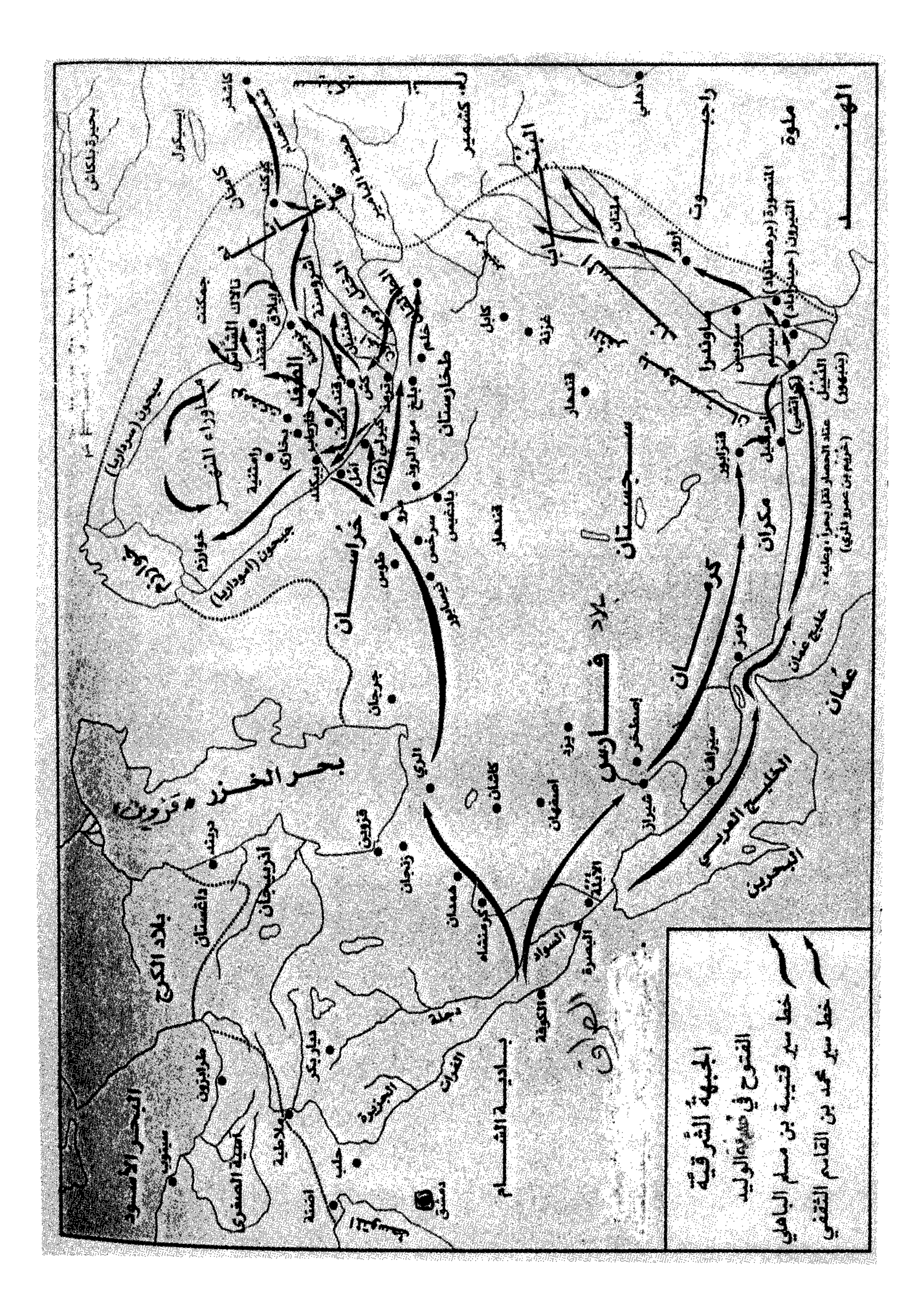
الفتوح في خلافة الوليد بن عبدالملك

شهد عهد أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك ظهور قادة عِظام قاموا بالفتوح العظمى في المشرق والمغرب والأندلس والشمال كما شهد عهده كما مر بنا حركة إصلاح داخلي حضارة عظيمة تعتبر تاجاً وعزة في جبين الدولة الأموية.

خلف الوليد عن والده خزانة عامرة ودولة هادئة مستقرة مجتمعة الكلمة، ضعفت خلال حكمه شوكة الخوارج وقلّ مناصريهم كما أن شيعة آل البيت لم يحركوا ساكناً ولم يوقظوا فتنة في عهده.

ومن القادة العِظام الذين شهدهم عصر الوليد وكان لهم الدور البارز في حركة الفتوح الكبرى أربعة عِظام هم:

١- محمد بن القاسم الثقفي.
٢- قتيبة بن مسلم الباهلي.
٣- موسى بن نصير.
٤- مسلمة بن عبدالملك بن مروان.



الفتوح الأموية في المشرق وخاصة في خلافة الوليد بن عبدالملك

فتوحات المشرق

أولاً: فتوحات محمد بن القاسم الثقفي في بلاد السند (٨٩-٩٦هـ):

كان محمد بن القاسم أميراً على ثغر الهند من قِبَل الحجاج بن يوسف، رأى الحجاج مدى الإهانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على تصرفات ملك الهند «داهر» واعتداءاته وقرصنته البحرية واعتدائه على سفن تحمل نساءً مسلمات، اختار لهذه المهمة القائد البطل والفارس المغوار محمد بن القاسم الذي كان بفارس فعقد الحجاج له ثغر السند وكان تحت إمرته ستة آلاف من جند الشام وأمره الإقامة بشيراز حتى يكمل حشد قواته. مضى محمد بن القاسم إلى مكران فأقام بها أياماً ثم أتى مدينة قنزيور قرب الديبل ففتحها، وتقدم حتى أتى الديبل (كراتشي الآن) يوم جمعة حيث وافته سفنه التي تحمل الرجال والسلاح والعتاد وخندق قرب الديبل ونصب منجنيقاً ضخماً يقال له «العروس» يعمل على تشغيله خمسمائة من الرجال الأشداء الأكفاء فدك هذا المنجنيق بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر (البد) ثم حاصر محمد الديبل وقاتل حماتها فخرجوا إليه، فهزمهم وردهم ثم نصب السلالم وصعد عليها الرجال وفتحوا الديبل عنوة واستباحها محمد ثلاثة أيام، وهرب عامل ملك السند عليها فانزل محمد فيها أربعة آلاف من المسلمين وبنى فيها «الجامع» ثم تقدم محمد بن القاسم إلى النيرون (على بُعد ٧٥ ميلاً من مكران) فصالحه أهلها ثم تقدم محمد حتى عبر نهراً دون مهران (موضع على نهر السند) فأتاه أهل سربيدس فصالحوه ففرض عليهم الخراج ثم سار نحو سهبان على نهر السند ففتحها ثم سار إلى نهر مهران فنزل في وسطه ثم وصل خبر وصوله لملك السند داهر وهو على فيل وحوله الفيلة واشتد القتال وترجل داهر وقاتل حتى قُتل عند المساء، فانهزم أصحابه وقتلهم المسلمون شر قتله. وبعد مقتل داهر تغلب محمد بن القاسم على بلاد السند وفتح مدينة راور الكبيرة عنوة وقتلت زوجة داهر نفسها حرقاً وجواريها وجميع ما لها ثم تقدم المسلمون شمالاً حتى وصلوا برهمنا باذ (على نهر السند) وكان قد تجمع فيها أصحاب داهر المنهزمون ففتحها وقتل بها الكثير ثم خربها ثم تقدم محمد بن القاسم حتى لقيه أهل ساوئدري فسألوه الأمان فأمّنهم وأسلم أهلها

واستضافوا المسلمين. كما صالح بسمد ثم انتهى إلى الرور، حاصرها شهوراً ثم فتحها صلحاً ثم فتح السكة في منطقة الرور ثم عبر نهر بياس من روافد نهر السند حتى وصل مدينة الملتان أعظم مدن السند الأعلى واستمر في حصارها وقطع عنهم مصدر الماء فنزلوا على حكم محمد بن القاسم فقتل مقاتلتهم وسبى الذراري وسدنة صنمهم الأعظم البد وهم ستة آلاف وغنمن الكثير حتى سميت الملتان فرج بيت الذهب وكان بُد الملتان تُنذر له النذور ويحج إليه أهل السند ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده. وكانت نفقات هذه الحملة على بلاد السند ستين ألف ألف درهم أنجز محمد بن القاسم فتوحه هذه بين سنة ٨٩ إلى سنة ٩٤هـ كما ورد في تاريخ اليعقوبي. انظر الخريطة.

بينما كان محمد بن القاسم يستعد لفتح إمارة قنوج (أعظم الإمارات في شمال الهند) جاءه خبر وفاة الخليفة الوليد سنة ٩٦هـ وتولي أخيه سليمان من بعده. وكان من ألّد أعداء الحجاج فعين على العراق رجلاً من أعداء الحجاج هو صالح بن عبدالرحمن وكان الحجاج قد توفى فأراد عبدالرحمن الانتقام من أقرب الناس إلى الحجاج وهو محمد بن القاسم فاتح السند فعزله عن السند وولى مكانه رجلاً من صنّاعة وهو يزيد بن أبي كبشة الذي قبض على محمد بن القاسم وأرسله إلى صالح فحبسه في واسط في رجال من آل عقيل وقيل إنه مات تحت التعذيب وقيل إنه أُطلق سراحه ثم قُتل بدسائس من أتباع الملك داهر الذين اتهموه زوراً وبهتاناً بالاعتداء على ابنه الملك داهر وقال الشاعر في حقه:

إن الـــشجاعة والـــسماحة والنـــدى ... لمحمـــد بـــن القاســـم بـــن محمـــد
قـــاد الجيـــوش لـــسبع عـــشرة حجـــة ... يـــا قـــرب ذلـــك ســـؤدداً مـــن مولـــد

لم يختاره الله إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كل لسان وفي كل قلب، رمزاً للجهاد الصادق والتضحية العظيمة والصبر الجميل، رحم الله محمد بن القاسم الشاب الذي ظلمه أعداؤه من بني جلدته الأمير العادل والإداري الحازم، لقد بكاه أهل السند من المسلمين لعدله وبطولته، نشر الإسلام في ربوع السند بسبب السلوك الحسن للمسلمين وقائدهم الشاب الذي اهتم بإقامة المساجد وأداء الشعائر مما كان له الأثر الكبير في إقبال أهل السند على الإسلام. ولم تقم فتوحات في هذه المنطقة بعد محمد بن القاسم وإنما حافظ المسلمون على ما فتحوه. وثبتوا أقدام المسلمين في إقليم السند.

ثانياً: فتوحات قتيبة بن مسلم:

تولى قتيبة إمارة خراسان من قِبَل الحجاج بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦هـ، وهو من الأبطال الشجعان ذوي الحزم والرأي والدهاء، وهو من أعظم القادة الفاتحين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ بني أمية خاصة، ولي خراسان عشر سنين وخلالها فتح أقاليم واسعة وهُدى على يديه خلق كثير وعندما ولي خراسان جمع الناس وخطب فيهم قائلاً: إن الله أحلكمْ هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو ذلاً ووعد نبيه ﷺ يحدث صادق وكتاب ناطق فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده. وبخطبته الموجزة والرصينة أهاب بالمسلمين أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقة في سبيل الله وقد أعاد ﷺ بجده وإخلاصه فتح خوارزم وبخارى وسمرقند بعد ارتدادهم ونقضهم للعهد ففتح فرغانة وبلاد الترك سنة ٩٥هـ وتم له فتح منطقة ما وراء النهر وعبر نهر سيحون وفتح الكثير من الأقاليم حتى وصل إلى كاشغر على حدود الصين وتلخص مراحل الفتوح التي قام بها كما يلي:

المرحلة الأولى: استعادت الطالقان والصغانيان وطخارستان: كلها في نواحي خراسان. لما كان قتيبة بالطالقان أتاه دهاقين بلخ وقطع بهم نهر جيحون فتلقاه ملك الصغانيان بالهدايا ومفاتيح من الذهب (نياز) ودعاه إلى بلاده وسلمها إليه وصالحه ملك شومان وآخرون فيها وراء نهر جيحون على فدية أدوها له ثم انصرف عائداً إلى مرو بخراسان واستخلف على جنده أخاه صالح بن مسلم والذي فتح كاشان وأخيكت وهي (مدينة قرغانة).

المرحلة الثانية: فتح إقليم بخارى (٨٧-٩٠هـ): كانت أول مدينة غزاها قتيبة في هذا الإقليم هي مدينة بيكند سنة ٨٧هـ وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر وقبلها قدم إليه ملكهم نيزك وصالحهم قتيبة على أهل بادغيس على أن لا يدخلها.

عندما وصل قتيبة إلى بيكند، استنصر أهلها بالصغد وبمن حولهم واستمر القتال بين قتيبة وأعدائه حتى أنزل الله النصر عليهم وانهزم العدو عنهم، وركب المسلمون

أكتاف العدو الذي اعتصم عدد قليل ممن دخل المدينة فيها فلما رأوا أن قتيبة بدأ بهدمها سألوه الصلح فصالحهم، وولى عليهم أميراً من بني قتيبة، لكنهم سرعان ما نقضوا الصلح وقتيبة على بُعد خمسة فراسخ منهم فعاد إليهم وقتل من كان في المدينة وغنم الكثير ثم رجع قتيبة إلى مرو. واستمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى بصفة منظمة كل سنة في فصل الصيف وفي الشتاء يعود (لمرو) وفي سنة ٨٨هـ ترك قتيبة أخاه بشاراً على مرو وعبر النهر ففتح نومشكت ورامثنة من أعمال بخارى صلحاً ولكنه هاله تكون حلف من أهل فرغانة والصغد في مائتي ألف عليهم ابن أخت ملك الصين (كورمغايون) ولكن الله نصر قتيبة وجنده على هذا الحلف ثم عاد قتيبة لمرو وفي سنة ٨٩هـ استأنف قتيبة فتوحاته وقصد هذه السنة بخارى بأوامر من الحجاج فتصدى له ملك بخارى (وردان خذاه) فلم يتمكن قتيبة من الاستيلاء عليها فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج يخبره فطلب منه الحجاج أن يصورها له فبعث إليه بصورتها فنصحه الحجاج وأمده بالجند وأمره بالمسير إليها فسار إليها سنة ٩٠هـ فاستغاث وردان بالصغد والترك لمساعدته في التصدي لقتيبة، لكنه وبعون الله وقدرته تمكن قتيبة من الانتصار عليهم بعد معارك شرسة. وتم له الاستيلاء على بخارى واستكمل بذلك فتح إقليم بخارى كله خلال ثلاث سنوات وكتب بذلك للحجاج يخبره بالفتح وقد هابه أهل الصغد وطلبوا منه الصلح فصالحهم على فدية يؤدونها.

المرحلة الثالثة: من سنة ٩٠-٩٣هـ «فتح سمرقند»: هي المرحلة التي فرض فيها قتيبة السيادة الإسلامية على حوض نهر جيحون وتوج عمله العظيم هذا باستيلائه على مدينة سمرقند أعظم مدن بلاد الصغد ورغم أن قتيبة قد صالح ملك الصغد طرخون سنة ٩٠هـ ورجوع قتيبة إلى مرو إلا أنه في سنة ٩١هـ كان غدر نيزك - صاحب قلعة بادغس - وتأليبه ملوك طخارستان وملك سجستان رتبيل على المسلمين فما كان من رتبيل إلا أن طلب الصلح فصالحه قتيبة وعاد إلى مرو وترك عبد ربه بن عبدالله الليثي عاملاً على سجستان، وتوج قتيبة فتوحاته في هذه المرحلة بفتح سمرقند بعد أن نقض ملكها طرخون الصلح مع قتيبة الذي أبرمه معه سنة ٩٠هـ وامتناعه عن دفع الفدية، لذا جهز قتيبة أخاه عبدالرحمن بن مسلم في عشرين ألف مقاتل وأمره بالسير أمامه ثم تبعه

ومعه أهل خوارزم وبخارى وضرب الحصار على سمرقند فلما رأى أهل سمرقند أن مدينتهم قد حوصرت طلبوا الغوث من ملوك الشاش وفرغانة وتحريضهم على قتال المسلمين والذين حاولوا مفاجأة قتيبة في معسكره مستغلين انشغاله بحصار سمرقند، لكن قتيبة كان يقظاً فعلم بخبرهم عن طريق عيونه وأرسل لهم فرقة من جنده بقيادة أخيه صالح فبدد شملهم وقتلهم وغنم المسلمون أمتعتهم وأسلحتهم، فلما رأى الصغد ما حل بهؤلاء انكسروا فضيق قتيبة عليهم الخناق ونصب المنجنيق صوب مدينتهم وأحدث ثلمة فيها وصاح صيحة الأسد: حتى متى يا سمرقند يعشعش فيك الشيطان وفي الصباح قاتلوهم فاشتد القتال وأمر قتيبة جنده أن يبلغوا ثلمة بالمدينة ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا فأرسل الصغد إلى قتيبة فقالوا له: انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غداً، فقال لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة فصالحهم من الغد على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس وأن يخلو له المدينة فلا يبقى فيها مقاتل وبنى فيها مسجداً. دخل قتيبة سمرقند وحطم ما فيها من الأصنام دون خوف أو وجل من هرائهم بأنها ستهلكهم الأصنام إن دمروها وقال لهم قتيبة: أنا أحرقها بيدي وأمر بإشعال النار ثم كبر وأحرقها، وبعد هذا الفتح العظيم عاد قتيبة إلى مرو للراحة ليستعد لجولته الأخيرة لفتح المناطق السيحونية واستخلف على سمرقند عبدالله بن مسلم ومعه عدد كبير من الجند.

المرحلة الرابعة: فتح أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر (سنة ٩٤-٩٦هـ): في صيف سنة ٩٤هـ سار قتيبة ومعه عشرون ألفاً من أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم وجه قسم من جيشه إلى الشاش وتوجه قتيبة بالقسم الآخر إلى فرغانة ودار بينه وبين الترك قتال عنيف حول مدينة خجندة، ثم توجه قتيبة إلى كاشان دون أن يحسم فتح خجندة حيث أتاه جنده الذين كان قد أرسلهم إلى الشاش، أرسل قتيبة إلى الحجاج طالباً المدد بعد وجوده مقاومة شرسة من الأتراك، أرسل إليه الحجاج جيشاً من العراق كما طلب من محمد بن القاسم أن يوجه إليه مدداً من السند وبهذا المدد الميمون نجح قتيبة بالفعل وفتح أقاليم الشاش وفرغانة سنة ٩٥هـ وبعد أن أتم قتيبة فتحه الكبير جاءه خبر وفاة الحجاج فحزن لذلك وعاد إلى مرو بعد أن ترك حاميات من جنده في بخارى وكش ونسف، وقد

أرسل الخليفة الوليد لقتيبة بعد موت الحجاج رسالة تشجيع وثناء وتزكية قال فيها: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد أعداء الإسلام، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك. فاتمم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك.

وقد أحدثت رسالة أمير المؤمنين الوليد أثراً طيباً في نفسية قتيبة فتوجه من مرو لمواصلة فتوحاته فقصد مدينة كاشغر «أدنى مدائن الصين» حيث وصله خبر وفاة أمير المؤمنين وهو في فرغانة، ورغم ذلك واصل سيره إلى كاشغر حتى فتحها وجاءته رسالة من ملك الصين يطلب منه أن يرسل له وفداً ليعرف مطالبهم فاختار قتيبة لذلك عشرة من خيرة رجاله برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي قال لهم ملك الصين مهدداً: انصرفوا إلى صاحبكم، وقولوا له ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، فرد عليه رئيس الوفد بنفس المؤمن الشجاع وعزة المسلم قائلاً: كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه، ولا نخافه، مما أرجع ملك الصين إلى صوابه وتوازنه وأيقن أنه أمام قوم لا يجدي معهم التهديد ولا الوعيد فقال لهبيرة فما الذي يرضي صاحبكم؟ قال إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويُعطى الجزية، قال فإننا نخرجه من يمينه، فبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها، فدعا الملك بصحائف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكه، فقدموا بها بعث به فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب كما ورد في تاريخ الطبري وبهذا فرض قتيبة سيادة الإسلام على ملك الصين، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. وكان قتيبة ﷺ قائداً عسكرياً فذاً، وبطلاً سياسياً بارعاً، قهر الصعاب وتغلب على كل المشاكل التي واجهته من وعورة الطرق وقسوة المناخ ساهم قتيبة بن مسلم في نشر الإسلام فقام ببناء المساجد في المدن والقرى وزودها بالعلماء والفقهاء لتربية الناس وتعليمهم الإسلام، ومن ترغيبه لأهل بخارى بالإسلام أمر بمناداة المسلمين لأداء صلاة الجمعة في مسجد بخارى الجامع وأن كل من يأتي لصلاة الجمعة يُعطى درهمين وفيه تأليف للقلوب، لذا

كان في جيش قتيبة مجموعة من العلماء كمحمد بن واسع والقاضي يحيى بن يعمر والضحاك بن مزاحم الذين ساهموا في نشر الإسلام وتعليمه لأهل البلاد المفتوحة والذين بدأوا بتعلم العربية والقرآن والحديث، فأصبحت بخارى وسمرقند وخوارزم من مراكز الثقافة العربية ونشر الإسلام في آسيا الوسطى، وكذلك مرو ونيسابور في خراسان.

نهاية قتيبة ﷺ سنة ٩٦هـ: انتهت حياة قتيبة ﷺ نهاية حزينة مؤلمة، كانت العلاقة بين الخليفة سليمان والحجاج ورجاله ومنهم قتيبة غير حسنة وقيل لأنهم وافقوا الوليد على خلع أخيه وتوليه ابنه عبدالعزيز أرسل قتيبة رسائل للخليفة سليمان يعزيه في الوليد ويهنئه بالخلافة، لم يعزل سليمان قتيبة بل أرسل له عهداً بولاية خراسان مع رسول خاص تكريماً له، لكن قتيبة تعجل بخلع طاعة سليمان قبل وصول العهد له فغضب الناس واستنكروا خلعه لسليمان فثار عليه جنده وقتلوه[1].

والذي قام على قتيبة رئيس تميم وكيع بن حسان والذي شدّ على قتيبة في عشرة من فرسان تميم فقتلوه في ذي الحجة سنة ٩٦هـ وكان عمره ٤٨ سنة.

بعد مقتل قتيبة بن مسلم توقفت الفتوح عند كاشغر على حدود الصين بعد تجدد ثورات الخوارج وثورة يزيد بن المهلب في عهد الخليفة يزيد بن عبدالملك من ١٠١- ١٠٥هـ وللخلافات بين العرب في خراسان والنزاعات بين أبناء البيت الأموي، مما أضعف هيبة الدولة في عيون الناس وبداية الدعوة السرية العباسية.

ثالثاً: فتوحات موسى بن نصير في الشمال الإفريقي والأندلس:

عزل والي مصر عبدالعزيز بن مروان قبيل وفاته والي إفريقيا الحسان بن النعمان وعيّن مكانه موسى بن نصير سنة ٨٥هـ والذي خطب في جيوشه قائلاً: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة فليحمد الله وليحض على مثلها ومن رأى مني سيئة فينكرها فإني أخطئ كما تخطئون وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله

(١) الكامل في التاريخ، ٣/ ٢٣٨.

عندنا قضاؤها على ما عزّ وهان مع المواساة إنشاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله - أكمل موسى استحضاراته ثم سار متجهاً إلى الغرب وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقيا تمكن من تحقيق النصر بفضل سياسته الحكيمة مع الأهالي (سياسة التعاون والاندماج) الكلي مع البربر وكان يولي عليهم رجلاً منهم ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان ولائهم وبعد اعتناقهم للإسلام كان موسى يقر زعماءهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد من المقاتلين للانضمام لمقاتلة العرب وبهذه السياسة الحكيمة تمكن موسى بتجنيد أعداد كبيرة من قبائل كتامة، وهوارّة، زناتة، مصمودة ووضعهم جميعهم في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد سنة ٩٠هـ الوالي عليها من قبل موسى بن نصير واتبع موسى بن نصير وسائل متنوعة لتأليف القلوب وضبط الأمور منها:

عتق بعض السبايا، تطبيق مبدأ المساواة بين البربر المسلمين والعرب، قام بتنظيم إداري أخضع فيه كل المغرب للحكم الإسلامي، تكوين القوة البحرية بصنع المراكب التي غزا بها صقلية، كما بدأ بصك النقود سنة ٩٥هـ.

وبأعمال موسى الطيبة وسيرته الحسنة، انتشر الإسلام بين البربر وعلمهم القرآن ومبادئ الإسلام مما أدى لانتشار الإسلام في المغرب الأقصى، وبحملات جهادية منظمة سيطر موسى على جميع الشمال الإفريقي من برقة للمحيط الأطلسي وأصبح سيد إفريقيا بدون منازع وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى وكان له حملات بحرية على جزر البحر المتوسط من أشهرها حملات الأشراف المتوجهة إلى صقلية وبلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف بقيادة ابنه عبدالله الذي حقق نصراً حاسماً وغنم غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة ديناراً ذهباً كما دعم موسى الحملات البحرية في ولاية مصر. وقد تُوجت هذه الانتصارات البحرية بفتح بلاد الأندلس بتخطيط من موسى بن نصير وتنفيذ من طارق بن زياد.

فتح الأندلس:

بعد إرساء موسى بن نصير ومن معه كلمة الإسلام في المغرب الكبير بدأ التجهيز والإعداد لفتح الأندلس بعد أن أصبح البربر في الشمال الإفريقي من أخلص الناس للإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيله لنشر تعاليمه وليس حباً في المغنم كما يدعي المستشرقون.

كانت فكرة فتح الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) فكرة إسلامية بدأت من عهد عثمان وفي ولاية عقبة بن نافع افتتح ابن موسى عبدالله سنة ٨٩هـ جزيرتي ميورْقة ومنورقة ولتنفيذ فكرة الفتح بدأ موسى الاتصال مع حاكم سبتة الإسباني يوليان وبأنصار الملك المخلوع، وقد استشار موسى الخليفة الوليد وأقنعه بفوائد عملية الفتح وقد سبق عملية الفتح إرسال الحملة الاستطلاعية المؤلفة من خمسمائة جندي بقيادة البطل طريف ابن مالك «أبو زُرعة» وهو من مسلمي البربر والذي اجتاز المضيق من سبتة بسفن من حاكمها يوليان ونزل في جزيرة بالوما التي عُرفت فيما بعد باسم جزيرة طريف وكان إبحار هذه الحملة من سبتة في رمضان سنة ٩١هـ/ ٧١٠م الذي استطلع الأخبار وعاد بأخبار مشجعة ومطمئنة لاستمرار عملية الفتح. فكانت عوناً لطارق بن زياد بنزول جيشه على الجبل.

بعث موسى بن نصير طارق بن زياد في سبعة آلاف أكثرهم من البربر والموالي والقليل من العرب ثم أمدّه موسى بخمسة آلاف، وللتمويه أحضر يوليان السفن إلى سبتة ليلاً والتي أخذت تنقل الجنود تباعاً ولم يعلم أهل الأندلس بعملية الإبحار إلا بعد وصول الحملة بسلام في رجب سنة ٩٢هـ ونزول طارق عند جبل كالبي والذي عُرف لاحقاً باسم جبل طارق ثم سار طارق بالجيش نحو الجزيرة الخضراء ففتحها وكان ملك القوط منشغلاً في شمال الأندلس في محاربة البشكنس ولما أخبره نائبه تدمير بالهجوم الإسلامي عاد مسرعاً لصدّه ومرّ في طريقه على أسرة غيطشة (الملك المخلوع) ودعاهم والقوط المخالفين له للانضمام إليه في حرب المسلمين ويقال إن لذريق عهد بقيادة ميمنة وميسرة جيشه إلى ابني غيطشة.

أرسل طارق إلى موسى يخبره بضخامة جيش العدو ويطلب منه المدد فأمده موسى بخمسة آلاف مقاتل واستبشر طارق برؤيته في نومه لرسول الله ﷺ وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه ثم استيقظ مستبشراً بالنصر فكانت معركة وادي لكة، أحسن طارق اختيار الموقع وأسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خاندا شرقاً والتي يصب فيها نهر البرياط وأسند ميسرته إلى وادي لكه غرباً وأسند مؤخرة الجيش إلى جبال رتينا العالية جنوباً

منتظراً أن يأتيه لذريق بجيشه من الشمال. وصل جيش لذريق في الأيام الأخيرة من شهر رمضان سنة ٩٢هـ وعسكر بجيشه على الجهة الشمالية للوادي والتقى الجيشان على نهر لكه من أعمال شذونة واستمرت الحرب ثمانية أيام، استشهد فيها ثلاثة آلاف من المسلمين ثم دارت الهزيمة على لذريق وجيشه ويقال بقتل معظم جيشه وغرقه في النهر وخذلان أولاد غيطشة له تركوه أمام المسلمين انتقاماً منه ثم تعقب طارق فلول الجيش القوطي الفار واستمر الجيش الإسلامي بفتح باقي مناطق الجزيرة الإيبيرية.

حين وجه موسى بن نصير طارق للأندلس، كان يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث منذ بدايتها وكان موسى منذ بعث طارقاً مكباً على الدعاء والبكاء والتضرع إلى الله والابتهال إليه أن ينصر جنده المجاهدين، ما عُلم أنه هُزم له جيش قط وموسى من التابعين، كان عالِماً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى وكان من رجال العلم حزماً ورأياً وهمة وإقداماً.

كان طارق على صلة بقائده موسى بن نصير، يخبره عن كل شيء أولاً بأول منذ بداية الفتح ويستشيره فيما يحتاج إليه وبعد سنة من عبور طارق وتوزيعه لجيشه على المناطق والمدن المفتوحة، فخاف أن يستغل القوط قلة جيشه فأرسل إلى موسى يستنجده وفي سنة ٩٣هـ تحرك موسى بجيشه من القيروان بجيش ضخم واستخلف على القيروان ابنه عبدالله وكان أول فتوحاته مدينة شذونة ثم توجه إلى قرمونة المحصنة فدخلها موسى بحيلة من أصحاب يوليان الذين دخلوا عليهم كأنهم فالّين من خيل موسى ليلاً ففتحوا لهم الباب وأوقعوا بالحرس ففتحوا المدينة، ثم توجه بعد ذلك إلى إشبيلية ففتحها بعد أن امتنعت عليه شهراً ثم توجه إلى ماردة وفتح في طريقه إليها لبْلَة وباجة ثم فتحها صلحاً بعد قتال شديد وأقام فيها شهراً يرتب أحوالها ولإراحة جنده من العناء ليستأنف بعد ذلك المسير، فوجه ابنه عبدالعزيز من ماردة إلى إشبيلية التي تجمع فيها فلول القوط وقتلوا العديد من المسلمين مستغلين انشغال موسى بحصار ماردة، أعاد عبدالعزيز فتح إشبيلية ولبلة وباجة وبدأت المدن والقرى تتساقط أمام جيش المسلمين كتساقط الأوراق في فصل الخريف.

في بداية ذي القعدة سنة ٩٤هـ توجه موسى صوب طليطلة، وطلب من طارق التوجه إليه في مجموعة من جيشه ورجح المؤرخ د. الحجي المتخصص في تاريخ الأندلس

أن لقاء موسى وطارق كان خارج مدينة طلبيرة التي تبعد ١٥٠ كم غرب طليطلة ووصل موسى وطارق إلى طليطلة في ذي الحجة سنة ٩٤هـ وأقاما فصل الشتاء بجيشهما في طليطلة لترتيب وتنظيم شؤونها وطلباً للراحة والتخطيط لفتح شمال الجزيرة الأيبيرية وكتب موسى وقادته بأخبار الفتح للخليفة الوليد، وضربت العملة الإسلامية لأول مرة في الأندلس والقيام بتعليم الناس حقائق الإسلام ودعوتهم إليه وأما حدوث خلاف بين موسى وطارق وإهانة موسى له حسداً منه فيقول عدد من المؤرخين الثقات بأن روايات ذلك ضعيفة وتافهة وإنما كان استفسار من موسى لمولاه طارق عن أسباب توغله في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضعف والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره وسارا بعد ذلك إخوة مجاهدين، ينشرون دين الله ويبلغون الناس شريعته.

بعد انتهاء الشتاء وحلول الربيع سنة ٩٥هـ تهيأ الجيش الإسلامي لترك طليطلة ثم توجه شمالاً ففتح مدن لاردة، وطركونة وبرشلونة وبلسية وطرطوشة على الساحل الشرقي للأندلس، وفي هذا الوقت وصل مبعوث الخليفة الوليد مغيث الرومي يحمل لموسى أمر الخليفة بالذهاب لدمشق، فلاطف موسى مغيث لأن فتح الأندلس لم يكن قد اكتمل وسأله انتظاره حتى يدخل بلاد جليقية وشاتوريس ويكمل فتح الأندلس فمشى مغيث في ركاب موسى إلى جليقية واشتوريس ففتحهما وتعقب موسى وطارق فلول القوط حتى اضطروا للفرار إلى جبال كنتبريه في أقصى شمال غرب الأندلس، فلما تأخرت أخبار موسى قلق الخليفة على مصير الجيش فأرسل لموسى رسولاً آخر فوصله الرسول وموسى في مدينة لكُ بحليقية يوجه السرايا والبعوث فاستجاب موسى لرسول الخليفة، وعاد إلى طليطلة ثم غادرها لقرطبة ومنها إلى إشبيلية حيث استخلف ولده عبدالعزيز والياً عليها واتخذ منها عاصمة للبلاد ثم تحولت العاصمة إلى قرطبة سن ٩٧هـ.

غادر ركب موسى وطارق الأندلس في ذي الحجة سنة ٩٥هـ إلى الشام حاملاً الأسرى والغنائم الكثيرة والهدايا الثمينة وترك ابنه عبدالملك في طنجة حاكماً لها. ثم انصرف للقيروان وأقر ابنه عبدالله عليها ثم صار من هناك إلى دمشق فوصلها في سنة ٩٦هـ قبيل وفاة الخليفة الوليد وأراد سليمان أن يؤخر دخول موسى لدمشق لبعد وفاة

الوليد لكن موسى خالف سليمان ودخلها فلما أصبح سليمان خليفة حقد على موسى وعزله وحبسه وغرّمه الكثير من المال ثم رضي سليمان على موسى بعد تدخل يزيد بن المهلب وعمر بن عبدالعزيز لصالح موسى، فعظمت منزلته وأصبح مستشاراً لسليمان في الأمور العسكرية وكان سليمان يخرج متنزهاً وبرفقته موسى بن نصير.

توفي موسى بن نصير وهو متجه إلى الحج مع الخليفة سليمان بن عبدالملك في المدينة المنورة أو في وادي القرى «العُلا الآن» أواخر سنة ٩٧هـ عن عمر ٧٨ سنة أو يزيد وصلى عليه مسلمة بن عبدالملك.

أما طارق بن زياد فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله إلى دمشق وقيل إن سليمان أعاده والياً على الأندلس.

رابعاً: الفتوحات في الشمال بقيادة مسلمة بن عبدالملك

مسلمة هو شقيق الخليفة الوليد وهو الأوْلى بالخلافة من سائر إخوته كما يقول عنه الذهبي، وهو أمير ضرغام، قائد الجيوش ويلقب بالجرادة الصفراء، وله مواقف مشهودة مع الروم، غزا القسطنطينية وحاصرها في خلافة أخيه سليمان وكان والياً على العراق ثم أرمينيا في عهد أخيه يزيد بن عبدالملك ظهرت ألمعيته مبكراً فخصه والده عبدالملك في وصيته أن يكون مستشاراً لإخوته وأن يلجأوا إليه في المحن والحروب.

شهد كيف تدار الدولة على أعلى المستويات مع أبيه عبدالملك ومع إخوته من بعده وحرص إخوانه أن يكون قريباً منهم لاستشارته، وإذا حدث ما يهدد أمن الدولة اختاروه للقضاء على الثورات وقمع الاضطرابات وكان ﷺ مخلصاً غاية الإخلاص لبني أمية ولم يطمع بتولي الخلافة، خاصة وأنه ابن أمة، لكنه راجح العقل سديد الرأي واعتبر الخلافة وسيلة من أجل خدمة الأمة لا غاية من أجل أطماع شخصية، كان بحق حسن الصورة صبيح الوجه من أجمل الناس توفي سنة ١٢٠هـ.

كان مسلمة يفتح في كل سنة بلداً أو حصناً مما أقامه الروم لتأمين سلامة بلادهم ومن الحصون التي فتحها مسلمة ومعه ابن أخيه العباس بن الوليد حصن عمورية

وهرقليه وقمونية وطوانة وسمطية ومسلمة هو الذي قاد الجيش الذي حاصر القسطنطينية في عهد أخيه سليمان، وصلت الحملة البرية إلى القسطنطينية سنة ٩٨هـ ووصلها الأسطول سنة ٩٩هـ في خلافة سليمان.

وللحق نقول إن بني أمية كان منهم لواء الجهاد مرفوعاً كيما تشيع دعوة الإسلام في الآفاق، فما كان لبني أمية إبان حكمهم إلا إعلان الجهاد والحض على قتال الظالمين والمشركين المفسدين في الأرض وبهذا علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وبرها وبحرها، واندحر سلطان الباطل وانهارت شوكة الظلم والفساد رغم ما قام به بعض ولاتهم وأمرائهم من زلات وخطايا بحجة المحافظة على الأمن واستقرار البلاد والدولة الأموية بحق هي دولة الفتوحات الكبرى في المشرق والشمال والمغرب والأندلس حتى حدود فرنسا ومحاولاتهم المتكررة لفتح القسطنطينية.

الفصل الرابع

الخليفة سليمان بن عبدالملك

اسمه وصفاته:

هو سليمان بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية «أبو أيوب القرشي الأموي» بويع بالخلافة سنة ٩٦هـ بعد وفاة أخيه الوليد بن عبدالملك وسليمان من مواليد سنة ٥٤هـ وعند مبايعته كان مقيماً بالرملة من أرض فلسطين.

ومن صفاته ﷺ : كان فصيحاً، متديناً، عادلاً، مُحباً للغزو، كان جميلاً، ذو دين، محباً للحق وأهله متبعاً للقرآن والسنّة كمَظْهر للشرائع الإسلامية.

كان ﷺ يستعين في متابعة أمور الرعية بابن عمه وزوج أخته عمر بن عبدالعزيز، كان مبغضاً للحجاج وأهله وولاته، يميل ليزيد بن المهلب عدو الحجاج، فكان من أول أعماله عزل محمد بن القاسم وتقييده وإرساله للعراق وتوليه يزيد بن أبي كبشة السكسكي لإقليم السند. كان محمد بن القاسم محبوباً من أهل السند فبكوه بعد عزله وحبس بواسط في العراق وقال:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

قال عنه ابن سيرين مادحاً: يرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلاف عمر بن عبدالعزيز من بعده وكان ﷺ ينهى الناس عن الغناء وكان تقياً ورعاً.

موقف الخليفة سليمان من قادة الفتوح في عهد أخيه الوليد:

أ- **محمد بن القاسم الثقفي والي السند**: عزله سليمان عن إقليم السند وعيّن مكانه يزيد بن أبي كبشة الذي قيّده وأرسله إلى واسط بالعراق فعذبه صالح بن عبدالرحمن في رجال من آل عقيل حتى قتلهم متناسياً خدماته في فتح البلاد ونشر الإسلام ونسيان مكانته كقائد عظيم.

ب- **قتيبة بن مسلم**: حقد عليه سليمان بعد موافقته الخليفة الوليد على عزله عن ولاية العهد وتولية عبدالعزيز بن الوليد، لما أصبح سليمان خليفة خشي قتيبة منه توليه يزيد ابن المهلب على خراسان فكتب لسليمان يهنئه بالخلافة ويُعزيه بأخيه الوليد وأن عليه ما كان لعبدالملك وابنه الوليد من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان، كما كتب إليه كتاباً آخر يُعلمه فيه فتوحه ومكانته عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم، ويذم يزيد بن المهلب وآله وأنه سيخلعه إذا عُيِّن على خراسان وأرسل بكتاب ثالث يُعلمه بخلعه ليزيد ابن المهلب وأرسل كتبه الثلاثة مع رجل باهلي.

لم يطمئن قتيبة لسليمان وأجمع رأيه على خلعه ودعا الناس إلى ذلك فرفضوا وولوا أمرهم - كما مر معنا سابقاً - وكيع سيد بني تميم الذي ثار على قتيبة وقتله وإخوته وبنيه مما أثار العجم المحبين لقتيبة فكانوا يسمونه «ملك العرب» وهكذا ضاع هذا القائد العظيم بسبب الفتنة التي تعجلها قتيبة وأثارها وكيع الذي تجنى على قتيبة في نيته خلع سليمان.

ج- **موسى بن نصير**: استدعاه الخليفة الوليد لدمشق - كما مر معنا سابقاً - فوصلها قبل وفاة الوليد بقليل فلما تولى سليمان الخلافة عزل موسى بن نصير عن جميع أعماله وحبسه وغرمه المال الكثير ثم رضي عنه وقرّبه منه بواسطة تدخل يزيد بن المهلب وعمر بن عبدالعزيز وأصبح من مرافقيه وقد مات بالمدينة عند ذهابه للحج مع الخليفة سليمان.

سياسة سليمان العامة

اتصفت سياسته بإيثاره للسلامة والعافية ونزوعه للموادعة، والأخذ برأي أهل العلم والفضل من باب العمل بمبدأ الشورى والتمسك بتعاليم الإسلام وأحكامه فكان من سياسته العامة:

١- حضّ رعيته على الرجوع إلى القرآن الكريم والتمسك به وبسنّة الرسول ﷺ .

٢- وضحّ للرعية مفهومه للخلافة: بأنها داراً لا تقوم إلا بأئمة العدل، ودعاة الحق، وأن لله عباداً يملكهم أرضه ويسوس بهم عباده ويقيم بهم حدوده وقال لرعيته: قد وليت من أمركم ما كنت له مكفياً وأصبحت خليفة وأميراً وما هو إلا العدل أو النار .. وإني غير مبطلٍ لله حداً ولا تارك له حقاً.

٣- مفهومه للشورى: قال سليمان قد عَزلتُ كل أمير تكرهه الرعية ووليت على أهل كل بلد ما أجمع عليه خيارهم، واتفقت عليه كلمتهم ولم يسر على نهج والده عبدالملك وأخيه الوليد في سياسة الدولة القائمة على بسط النفوذ والسلطة بالقوة والتضييق على الناس، لذا كان من خيار بني أمية بعد عمر بن عبدالعزيز وقال عنه المؤرخ الشيعي المسعودي «كان سليمان ليّن الجانب، لا يعجل إلى سفك الدماء ولا يستنكف عن مشورة النصحاء» ووصفه ابن كثير بقوله: «يرجع إلى دين وخير ومحباً للحق وأهله، متبعاً للقرآن والسنّة، مظهراً لشرائع الإسلام». أما ابن قتيبة فقال في حق سليمان «افتتح عهده بخير وختمه بخير لأنه ردّ المظالم إلى أهلها».

سياسة سليمان ﷺ في اختيار الولاة:

أوضح أمير المؤمنين سليمان سياسته في اختيار الولاة لحساسية الموضوع في خطبته بعد استخلافه حيث عزل كل أمير تكرهه رعيته وولى في كل بلد من أجمع عليه خيارهم وتضمنت سياسته:

أ- **استشارة العلماء والنصحاء من أهل الخبرة:** ومن أهم مستشاريه عمر بن عبدالعزيز ورجاء بن حيوة الكندي.

ب- **اختيار العلماء وأهل الصلاح كولاة:** كسب بهذا الاختيار الرأي العام لصالحه ومن العلماء الذين عينهم ولاة: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزام الأنصاري على المدينة، عروة بن محمد بن عطية السعدي على اليمن، وكان من الزهاد فخرج من اليمن وليس معه إلا سيفه ورمحه ومصحفه وقال لأهل اليمن هذه راحلتي فإن خرجت بأكثر

منها فأنا سارق، وولى على مصر من اتصف بالتدين والفقه وحُسْن السيرة عبدالملك بن رفاعة الفهمي.

ج- كانت عند سليمان مصلحة الدولة فوق كل الاعتبارات: لذا عيّن والياً على العراق سنة ٩٦هـ وأضاف إليه خراسان سنة ٩٧هـ يزيد بن المهلب الذي كان يجلس على سرير سليمان واتخذه مستشاراً له لأمور المشرق الإسلامي ووجد أنه الأنسب للعراق بعد وفاة الحجاج وذلك لمصلحة الدولة.

سياسة سليمان تجاه حركات المعارضة :

١- الخوارج: لم تكن لهم قوة تذكر في عهده وكان سليمان أقل شدة من سابقيه في تعامله مع الخوارج غير الثائرين فاكتفى بسجن من يسب منهم الخلفاء ومن مستشاريه في أمر الخوارج الرجل العدل الصالح عمر بن عبدالعزيز.

٢- الهاشميون: اتسمت علاقة سليمان بالعلويين بالمودة والهدوء فقربهم إليه وقضى لهم حوائجهم وأن رواية سمّه لعبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب سنة ٩٨هـ موضوعة لا أصل لها وأن وفاته كانت طبيعية.

٣- الزبيريون: كان ودوداً معهم يسأل عن أحوالهم ويتفقدهم فقضى الدين عن جعفر بن الزبير عندما علم به وكان يود ثابت بن عبدالله بن الزبير مكافأة لوالده عبدالله الذي كساه وجهزه إلى أبيه في الشام عندما كان غلاماً في الطائف.

إكرام سليمان للعلماء واستماعه لنصائحهم:

من العلماء الذين قربهم سليمان إليه واستمع إلى نصائحهم وكانوا مستشارين له:

أ- رجاء بن حيوة: من جلّة التابعين وهو الإمام القدوة والوزير العادل والفقيه في أمور الدين قال مسلمة بن عبدالملك «بأمثال رجاء بن حيوة ننتصر» كان على علاقة طيبة مع خلفاء بني أمية، كان له تأثير سياسي واضح على سليمان بن عبدالملك فاتخذه وزير صدق يستشيره في الكثير من الأمور والقضايا المتعلقة بسياسة الدولة وإدارتها. كان

ملازماً لسليمان في سفره ويخلوا معه في مجلسه وهو الذي أشرف على تمريض سليمان حتى توفاه الله كما قال الطبري في تاريخه.

والإمام رجاء صاحب الرأي في الإشارة على سليمان باستخلاف عمر بن عبدالعزيز من بعده وخطط بحكمة وذكاء لتنفيذ ذلك وظل رجاء يتبوأ مكانة كبيرة ومنزلة متقدمة في خلافة عمر بن عبدالعزيز فكان ملازماً وقريباً من عمر كان من خواصه وسمّاره ومستشاراً له.

ب- عالم المدينة «أبو حازم»: مرّ الخليفة سليمان على المدينة أثناء ذهابه للحج سنة ٩٧هـ فقال لمرافقيه أها هنا أحد يُذّكرنا؟ فقيل له «أبو حازم» فأرسل إليه فلما دخل على سليمان قال له يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ فرد أبو حازم قائلاً: «يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول لم يكن، ما عرفتني من قبل ولا أنا رأيتك» فقال سليمان: أصاب الشيخ وأخطأت أنا. قال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال أبو حازم: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: صدقت، فكيف إذاً القدوم على الله عز وجل غداً؟ قال أبو حازم: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه. فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما أنا عند الله؟ قال: يا أمير المؤمنين، إعرضْ عملك على كتاب الله عز وجل، قال: وأين أجده؟ قال أبو حازم ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]. قال سليمان: يا أبا حازم فأي عباد الله أفضل؟ قال: أولو المروءة والتقى، قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم، قال: فأي الدعاء أسمع؟ قال: دعوة المحسن للحسن، قال: فأي الصدقة أزكى؟ قال: صدقة السائل البائس وجهد من مقل، ليس فيها منٌّ ولا أذى، قال: فأي القول أعدل؟ قال: قول الحق عند من يخافه أو يرجوه، قال فأي الناس أحمق؟ قال رجل انحط من هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره، قال: صدقت. قال: فما تقول فيما نحن فيه؟ قال: يا أمير المؤمنين تعفيني من ذلك؟ قال: ولكن نصيحة تلقيها إليّ. قال: إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا المُلك عُنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا، حتى قتلوا عليه مقتلة عظيمة وارتحلوا عنها، فلو سمعت ما قالوا، وما قيل لهم

فغُشي على سليمان. فقال رجل من جلسائه لأبي حازم: بئس ما قلت، فقال أبو حازم: كذبت يا عدو الله، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليُبيننه للناس ولا يكتمونه، فلما أفاق سليمان قال: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح للناس؟ قال: تدع الصلف وتستمسك بالمردّة وتقسم بالسوية. قال سليمان: كيف المأخذ به؟ قال: أن تأخذ المال من حلّه وتضعه في أهله، قال له سليمان: هل لك أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله يا أمير المؤمنين، قال: ولِمَ؟ قال: أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف المهات قال سليمان: يا أبا حازم ارفعْ إليّ حوائجك: قال تنجيني من النار وتدخلني الجنة. قال: ليس ذلك إليّ؟ قال: فلا حاجة لي غيرها. قال: فادع لي الله يا أبا حازم. قال: اللهم إن كان سليمان وليّك فيسّره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى. قال سليمان: زدني. قال: يا أمير المؤمنين قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي لي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر. قال: أوصني يا أبا حازم. قال: سأوصيك وأوجز: عظّم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك من حيث أمرك ثم قام ..[1].

إكرام سليمان لأهل الوفاء

دعا أمير المؤمنين سليمان صاحب أمر الحجاج يزيد بن مسلم وهو مقيد بأغلال الحديد فلما دخل عليه ازدراه حين رآه ونبّت عنه عيناه وقال: ما رأيت كاليوم وقال له سليمان: لعن الله رجلاً أقادك رسنه وحكّمك في أمره فقال له يزيد: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، إنك ازدريتني والأمر عني مدبر وعليك مقبل، ولو رأيتني والأمر عليّ مقبل، لاستعظمت من أمري ما استحقرت واستكبرت منه ما استصغرت. فقال له سليمان: عزمت عليك يا ابن أبي مسلم لتخبرني عن الحجاج: أتراه يهوي في جهنم، أم قد قرّ بها قال: يا أمير المؤمنين: لا تقل هذا في الحجاج، وقد بذل لكم النصيحة وأخفر لكم الذمة وآلى وليّكم وأخاف عدوّكم، وإنه يوم القيامة لعن يمين عبدالملك ويسار الوليد فجعله حيث شئت، فصاح سليمان استكراهاً لكلامه وأمر بإخراجه، ثم التفت إلى جلسائه وقال:

---

(١) وفيات الأعيان، ٢/ ٤٢٣ لابن خلكان.

ثكلته أمه، ما أحسن بديهته وأحدّ قريحته وأجمل تزينه لنفسه ولأصحابه، لقد أحسن المكافآت على الصنيعة وراعى اليد الجميلة، خلّو سبيله، كما أمر بحل قيوده ولم يتعرض لمضرّته[1].

وفاء ابنه وولي عهده أيوب

قال عمر بن عبدالعزيز لأمير المؤمنين سليمان عندما رأى ابنه أيوب يحتضر وقد خنقته العبرة «الصبر أولى بك فلا يحبطنّ أجرك» وعندما غلبه البكاء قال له رجاء بن حيوة: إني لا أرى بذلك بأساً، ما لم يأت الأمر المفرط، وإني قد بلغني أن النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وقال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون» فبكى سليمان واشتد بكاؤه وكان ذلك تنفيساً لصدره ثم أمسك عن البكاء ودعا بماء فغسل وجهه وخرج يمشي أمام جنازته فلما دُفن وقف ينظر إلى قبره فقال:

وقفت على قبر مقيم بقفره ... متاع قليل من حبيب مفارق
كنت لنا أنساً ففارقتنا ... فالعيش من بعدك مرُّ المذاق

من بعض خصائصه وصفاته:

١- وصفته بعض مصادر الشيعة: بالفصاحة والتوقف عن سفك الدماء ورده للمظالم واستماعه للنصحاء وتوالي الفتوح في عهده لكنها وصفته بالشراهة وأنه أكول نهم. وفي هذا بعض المبالغات عن شرهه.
٢- كان ينهى عن الغناء ورواية الأصفهاني بأنه محب للغناء في سندها ضعف.
٣- مدحه بعض الشعراء مثل جرير والفرزدق.
٤- كان ينظر في المرآة فيعجبه حسنه ويقول أنا الخليفة الشاب ولم يمر على قوله هذا شهر حتى توفاه الله.

---

(١) الشهب اللامعة، ص٤٥٥.

٥- مات سليمان يوم الجمعة في دابق قرب حلب بسبب الحمى سنة ٩٩هـ وكان قد عهد بالخلافة لابن عمه وزوج أخته عمر بن عبدالعزيز ومن بعده يزيد بن عبدالملك وكان عمره عند وفاته ٣٩ سنة وقيل ٤٥ وهي الأقرب للصحة ،ومات كمداً على ابنه أيوب وصلى عليه عمر بن عبدالعزيز ومنقوش على خاتمه «آمنت بالله مخلصاً».

الفتوح في عهد سليمان

حصار القسطنطينية: بينما كان الوليد يمضي في استعداداته للزحف على عاصمة البيزنطيين القسطنيطينية وافته المنية سنة ٩٦هـ فخلفه أخوه سليمان الذي واصل جهوده في هذا الميدان كما يلي:

استعدادات سليمان لحصار القسطنطينية: أراد سليمان ﷺ أن يحقق حديث رسول الله ﷺ «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» مسند الإمام أحمد، كما أراد ﷺ أن يضع حداً للهجمات البيزنطية المتكررة على الشواطئ الشامية والمصرية فقد هاجم البيزنطيون ساحل جند حمص وسبوا امرأة مسلمة وجماعة معها فغضب سليمان قائلاً: والله لأغزونهم غزوة أفتح فيها القسطنطينية أو أموت دون ذلك.

إعداد الحملة: شملت الاستعدادات معظم العالم الإسلامي وتم تشكيل حملتين برية وبحرية، البرية قوامها مائة وعشرون ألفاً من الشام والجزيرة والموصل، والبحرية تتكون من ألف مركب من أهل مصر وإفريقيا، وتعود الضخامة في هذه الأعداد لمعرفتهم بحصانة موقع القسطنطينية وطول أمد الحرب وإدراكهم أن حصارها يحتاج إلى قوات كبيرة ووقت طويل وأسلحة متنوعة تناسب الصيف والشتاء فجمعوا آلات الحرب والمجانيق والنفط. هذا وقد أشار مسلمة بن عبدالملك على الخليفة سليمان بالتوجه مباشرة إلى القسطنطينية دون التعرض للمدن والحصون على جانبي الطريق، لاقى هذا الرأي قبولاً عند سليمان ومستشاريه العسكريين وكانت الخطة:

سار سليمان من القدس إلى دمشق ومضى حتى نزل بدابق وأقسم ألا يتنقل منها حتى يفتح القسطنطينية فأقام بها. تحركت الحملة بقيادة مسلمة بن عبدالملك من سوريا براً وبحراً باتجاه القسطنطينية، وصلت الحملة البرية القسطنطينية سنة ٩٨هـ ووصلها

الأسطول سنة ٩٩هـ. وبدأ الحصار للقسطنطينية وقاتل المسلمون الروم قتالاً شديداً واستمروا في ذلك حوالي السنة فشلت الحملة وخسر المسلمون خسارة كبيرة في العدد والعدة وآلت حالة الجيش في النهاية من الحصار إلى الضعف والسوء وبلغ الجوع مداه وكذلك الروم كانوا أيضاً في حالة سيئة حتى عرض بَطْريق القسطنطينية على مسلمة دفع دينار عن كل محتلم في القسطنطينية وعُقد صلح بين الطرفين على أن يحافظ البيزنطيون على المسجد الذي بناه مسلمة ولما مات الخليفة سليمان وتولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز أرسل إلى مسلمة أمراً بالعودة ومن معه من المسلمين بعد أن وجه إليهم الخيل والطعام لما هم فيه من الجوع ولأن موقفهم من الحصار كان ميئوساً منه فأمر بانسحابهم حقناً لدماء المسلمين وقد أحسن عمر بن عبدالعزيز في اتخاذ قرار الانسحاب لما أصاب جيش المسلمين من الجهد والجوع.

وهناك أسباب ساهمت في فشل هذه الحملة منها:

١- غدر وخيانة ليو الأسوري حاكم وبطريق عمورية للمسلمين الذي أظهر التحالف مع المسلمين ضد ثويدوسيوس حاكم القسطنطينية وتبين فيما بعده أنه عمل ذلك طالباً المُلك لنفسه وإنقاذ القسطنطينية من خطر المسلمين - فقد أشار ليو على مسلمة إرسال ما عنده من الغلال لأهل القسطنطينية ليروا حسن رأيهم به وانطلت الخديعة على مسلمة فقد استولى ليو على الحكم وأعلن الحرب على مسلمة في الوقت الذي أصبح فيه مسلمة في حال لا يُحسد عليه من سوء الأحوال الجوية وقلة المؤونة حتى اضطروا لأكل الدواب والجلود والميتة وورق الشجر ويُرجع المؤرخ الشهير اللواء الركن محمود شيت خطاب اللوم إلى مسلمة في معركة الحصار فلم يستفد من المبادرة وزخم الهجوم وثقته الغير محدودة بحليفه ليو فالذي يخون بلده وقومه أولى بأن يخون غير بلاده وغير قومه.

٢- ضراوة وشدة شتاء سنة ٩٩هـ فقد غطى الثلج وجه الأرض وهلك الكثير مما كان مع المسلمين من جِمال وخيل وبغال، وأكلهم ما تبقى من طعام وأصبحوا في حالة جوع وإعياء وكما قال ليو كانت أشهر كانون أول وكانون الثاني وشباط كانوا أعظم قواده (الشتاء والبرد القارص).

٣- مناعة أسوار القسطنطينية وتحصيناتها الدفاعية وأمر ليو الذي أصبح حاكماً بزيادة التحصينات وأمر حكام بيزنطة بتخزين الطعام لمدة ثلاث سنوات.

٤- استخدام البيزنطيين سلاحاً جديداً ضد مراكب المسلمين وهو النار الإغريقية التي كبدت المسلمين خسائر فادحة في الأرواح والسفن والمعدات مما أربك قيادة المسلمين وخطتهم وقدرات ليو القتالية.

٥- التيارات المائية المتجددة من البحر الأسود إلى بحر مرمرة أعاقت حركة السفن الإسلامية.

٦- المصالحة بين البيزنطيين والبلغار والخزر: تمكن بهذا ليو من حماية الجبهة الشمالية وتفرعه لحرب المسلمين.

٧- الاستعجال في تقدم المسلمين نحو القسطنطينية وضعف الإمدادات وضعف خبرة مسلمة العسكرية لصغر لسنه.

الفتوح في المشرق:

بعد مقتل قتيبة بن مسلم عين سليمان والياً على خراسان يزيد بن المهلب بن ابن صفرة سنة ٩٧هـ بالإضافة إلى العراق وكان يزيد محظياً عند سليمان حتى أنه كان يجلس على سريره وفي ولاية يزيد تم فتح دهشتان بعد حصارها طويلاً، وصالح أهل جرجان وقاتل أهل طبرستان وصالحهم أخيراً لكن أهل جرجان غدروا بعامله ثم قتلوه فعاد إليهم يزيد بن المهلب، وفتح جرجان الفتح الأخير وقتل من أهلها الكثير وكان فتحه لهذه البلاد فتحاً عظيماً بعد ردتها وقطعهم الطرق على المسلمين، غنم يزيد من بلادهم غنائم كثيرة وكان نصيب بيت المال منها ستة آلاف ألف درهماً.

الفصل الخامس

الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز ﷺ

من حياته قبل أن يصبح خليفة للمسلمين:

اسمه عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم المصري.

كان حسن الخلق والأخلاق، كامل العقل، حسن السمت، حريصاً على العدل، وافر العلم، قانتاً لله حنيفاً، زاهداً وعابداً، ناطقاً بالحق مع قلة المعين وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملّوه وكرهوه لمحاذقتهم لهم وأخذه الكثير مما في أيديهم، كان فصيحاً مفوهاً.

ظل والده عبالعزيز والياً على مصر أكثر من عشرين عاماً وكان متزوجاً من ليلى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب حفيدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

ذكر الإمام الذهبي أن ولادة عمر بن عبدالعزيز كانت في المدينة سنة ٦١هـ في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأصبح والده والياً على مصر سنة ٦٥ هـ.

كان عمر بن عبدالعزيز يُلقب بالأشج حيث ضربه فرس لوالده في اصطبل الخيل بمصر وقاله له والده وهو يمسح الدماء عن وجهه «إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً سعيد».

كان لعمر بن عبدالعزيز عشرة من الإخوة وقيل ١٤ ولداً ذكراً وثلاثة من البنات.

نشأ وترعرع في المدينة وتخلق بأخلاقها وتأثر بعلمائها وكان يقعد مع مشايخ قريش ويتجنب شبابهم. وبعد وفاة والده كفله ورعاه عمه الخليفة عبدالملك وزوّجه من ابنته

فاطمة وكانت امرأة صالحة تأثرت بزوجها عمر وصلاحه وآثرت ما عند الله على متاع الدنيا ولها منه ثلاثة أولاد إسحاق ويعقوب وموسى.

وعمر بن عبدالعزيز أسمر، رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم حسن اللحية، غائر العينين، نشأ وترعرع في المدينة وكان يأتي عبدالله بن عمر بن الخطاب لمكانة أمه منه ويقول لأمه أُحب أن أكون مثل خالي عبدالله.

لما أصبح والده عبدالعزيز والياً على مصر طلب من زوجته أم عاصم اللحاق به ومعها ابنه عمر، لكنها ذهبت لمصر وتركت عمر عند خاله عبدالله بناءً على طلب منه فنشأ بالمدينة بين أخواله متأثراً بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة، كان حريصاً منذ صغره على ملازمة مجالس العلم وحَفَظ القرآن صغيراً وتأثر به وكان يبكي لذكر الموت رغم حداثة سنّه يتأثر عند قراءته لسورة التكوير.

عاش في مجتمع ساده التقوى والصلاح وطلب العلم والعمل بالكتاب والسنّة، أمّ مرة بأنس بن مالك فقال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى (يعني عمر بن عبدالعزيز) وكان لإقامته في المدينة آثار نفسية ومعانٍ إيمانية مما صقل شخصيته العلمية والتربوية.

تربى ﷺ على أيدي كبار علماء وفقهاء المدينة، اختار له والده الشيخ صالح بن كيسان ليكون مربياً له ومن المشايخ الذين تأثر بهم عمر بن عبدالعزيز في المدينة: عبيد الله ابن عبدالله بن عتبة بن مسعود وكان عمر يجلّه ويحترمه رغم عماه وكان يتردد عليه عندما أصبح أميراً على المدينة وتوفى عبيد الله أحد فقهاء المدينة السبعة سنة ٩٨ أو سنة ٩٩هـ.

ومن شيوخه أيضاً العالِم الورع سعيد بن المسيب الذي كان لا يأتي أحداً من الأمراء عدا عمر بن عبدالعزيز. ومن شيوخه أيضاً سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب وأمه أو ولد.

مكانة عمر بن عبدالعزيز العلمية:

أطلق عليه الإمامين مالك بن أنس، سفيان بن عيينة لقب «إمام» وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه وقال عنه الإمام الذهبي: «كان إماماً فقيهاً مجتهداً،

عارفاً بالسنن، حافظاً، قانتاً لله، أواهاً منيباً، يعد في حُسْن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر بن الخطاب وفي الزهد مع الحسن البصري وفي العلم مع الزهري».

وقال فيه الإمام أحمد: لا أدري قول أحد من التابعين حجةً إلا قول عمر بن عبدالعزيز وكفاه هذا.

حياة عمر بن عبدالعزيز
في عهد الخليفتين الوليد وسليمان ابني عبدالملك بن مروان

عمر في عهد الوليد بن عبدالملك:

يحتل عمر بن عبدالعزيز مكانة متميزة في البيت الأموي، كان عبدالملك يجلّه ومعجب بنباهته أثناء شبابه، كفله وتبناه أثناء ولاية والده عبدالعزيز على مصر وقدمه على الكثير من بني أمية بل زوّجه بأحب بناته إليه فاطمة بنت عبدالملك، لم يكن له مشاركات سياسية في عهد عمه عبدالملك لصغر سنه وانشغاله بطلب العلم في المدينة، ومن أهم الأعمال التي شغلها في خلافة ابن عمه الوليد بن الملك:

أ- **ولايته على المدينة**: ولاّه الوليد ﷺ إمارة المدينة في ربيع الأول من سنة ٨٧هـ وضمّ إليه الطائف سنة ٩١هـ وأصبح والياً على الحجاز كلها واشترط على الخليفة لقبوله إمارة المدينة:

- أن يعمل في الناس بالحق والعدل وألا يظلم أحداً.
- أن يُسمح له بالحج في أول سنوات ولايته لأنه لم يحج بعد وأن يسمح له بالعطاء أن يُخرجه للناس في المدينة.

ب- أنشأ مجلس شورى عمر ومجلس فقهاء المدينة العشرة ولما دخلوا عليه بعد دعوته لهم قال لهم: إني دعوتكم لأمر تُؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم وطلب منهم إبلاغه عن أي ظلامة تقع عليهم كما حدد عمر صلاحيات مجلس الشورى في أمرين:

- أنهم أصحاب الحق في تقرير الرأي ولا يقطع أمراً إلا برأي «مجلس العشرة».
- جعلهم مفتشين على العُمّال، رقباء على تصرفاتهم.

وكان هذا المجلس يُستشار في جميع الأمور دون استثناء. وهنا نرى أهمية دور العلماء الربانيين وهيبتهم وعلو مكانتهم ومشاورتهم في أمور الرعية.

ج- حادث مؤسف في ولاية عمر على المدينة: طلب الخليفة الوليد من واليه على المدينة عمر بن عبدالعزيز بجلد خبيب بن عبيدالله بن الزبير مائة سوط ثم حبسه وكان من نتائج هذا الإجراء وفاة خبيب، فلما سمع عمر بما حدث لخبيب سقط على الأرض فزعاً ثم رفع رأسه يسترجع .. واستعفى من المدينة وامتنع من الولاية.

ومن دلائل تقواه وصلاحه ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبي بكر قال: فأتيته في مجلسه الذي يصلي فيه الفجر والمصحف في حجره ودموعه تسيل على لحيته[1].

عظة مزاحم مولى عمر لعمر:

حبس عمر رجلاً بالمدينة وجاوز في حبسه احتياطاً، طالبه مولاه مزاحم بإخراجه من الحبس قائلاً له وهو مغضباً: «إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة وفي صبيحتها تقوم الساعة يا عمر» فقال عمر: «إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم فوالله ما هو إلا أن قال ذلك فكأنما كشف عن وجهي غطاء». ومن هذا التدخل من مزاحم ترى دور الصديق الصالح والمخلص الذي يذكر بالله وقت الغفلة فيستقظ الغافل عن غفلته.

عمر بن عبدالعزيز والحجاج:

عيّن الخليفة الوليد سنة ٩٢هـ الحجاج بن يوسف أميراً على الحج فكتب والي المدينة عمر بن عبدالعزيز للخليفة الوليد يطلب منه أن لا يمر الحجاج عليه في المدينة، لأنه يكره الحجاج لظلمه وجبروته فامتثل الوليد لرغبة ابن عمه وكتب للحجاج بذلك، أراد الحجاج أن ينتقم من عمر بن عبدالعزيز. وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من ظلم الحجاج.

---

(١) سير عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي، ص٤٢.

كتب الحجاج للوليد: إن من قبلي من مرقة العراق وأهل النفاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة، وأن ذلك وَهْن فأشار الحجاج على الخليفة الوليد بعزل عمر عن المدينة وتولية عثمان بن حبّان وخالد بن عبدالله القسري وكان الوليد يميل لآراء الحجاج لشدته في توطيد أركان الدولة وعدم الأخذ بآراء ونصائح عمر بن عبدالعزيز.

غادر عمر بن عبدالعزيز المدينة باكياً ومعه خادمه مزاحم فخشى عمر أن يكون من نفث المدينة لقوله ﷺ : «ألا إن المدينة كالكير يخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد» أخرجه مسلم.

قال مزاحم: ولما خرج عمر من المدينة كان القمر في الدبران فكأنه تشاءم فقلت له: انظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة فنظر عمر فإذا القمر في الدبران فقال عمر لمزاحم: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران يا مزاحم: إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر ولكن نخرج بالله الواحد القهار. وسار عمر حتى وصل السويداء وكان له فيها بيت ومزرعة.

أقام عمر في مزرعته يرقب الأوضاع عن بُعد، لكنه رأى من مصلحة المسلمين أن تكون إقامته في دمشق بجوار الخليفة ليكون له ناصحاً بمنع الظلم والمشاركة في إحقاق الحق، استقر عمر في العاصمة دمشق كما ذكر ابن الأثير في البداية والنهاية. لم يكن عمر رضي الله عنه على وفاق تام مع الخليفة الوليد، فلم تكن إقامته في دمشق بجوار الخليفة تخل من المشاكل، لأن هدف الوليد هو تثبيت حكمه بواسطة ولاة أقوياء قساة همّهم إخضاع الناس بالقوة وإن رافق ذلك ظلم، أما رأي عمر الرجل الصالح التقي الورع فيرى أن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار المُلك، وقال عمر: «الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف - شقيق الحجاج - باليمن وعثمان بن حيّان بالحجاز، وقُرّة بن شريك في مصر.. وقد امتلأت والله الأرض جوراً».

نصح عمر بن عدالعزيز الخليفة الوليد بالحدّ من صلاحيات عُمّاله في القتل، نجح عمر في البداية في استصدار قرار من الخلافة بمنع أي عامل (والي) من القتل إلا بعد علم الخليفة وموافقته على ذلك، وشق هذا الأمر على الحجاج وأقلقه فبعث للخليفة الوليد

أعرابي حروري (من الخوارج) فقال الوليد لهذا الأعرابي: ما تقول فيّ؟ قال: ظالم جبار، قال: ما تقول في عبدالملك؟ قال: جبار، عاتٍ، قال: ما تقول في معاوية؟ قال: ظالم. فقال لحاجبه ابن الريان: اضرب عنقه، فضرب عنقه، ثم طلب رأي عمر بن عبدالعزيز فيما فعله أأصبنا أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيّته، فقال الوليد: شتمني وشتم عبدالملك وهو حروري أفتستحل ذلك؟ قال: لعمري ما أستحله، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه. فقام الوليد مغضباً فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك. وهكذا وبهذا التصرف من الحجاج تمكن الحجاج من صرف الخليفة عن الأخذ برأي عمر بالحد من عملية القتل.

نصح عمر بن عبدالعزيز ابن عمه الوليد عندما أراد خلع أخيه سليمان عن ولاية العهد والبيعة لابنه عبدالعزيز بن الوليد من بعده، وقف عمر من هذا الوضع موقفاً حازماً، فلم يستجب لأمر الوليد في ذلك قائلاً: «إنما بايعنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه ونتركك؟» فغضب الوليد على عمر وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد فأغلق عليه الدار حتى تدخلت أخته أم البنين زوجة الوليد ففتح له بعد ثلاث.

وضع عمر بن عبدالعزيز في خلافة سليمان بن عبدالملك:

اتخذ أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك من عمر بن عبدالعزيز وزيراً ومستشاراً ملازماً له في إقامته وترحاله وقال في حقه: ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما أجد أحداً يفقه عني.

وهناك مجموعة من الأسباب دعت سليمان لتقريب عمر بن عبدالعزيز إليه:

١- شخصية سليمان على العكس من غيره فلم يعتدّ برأيه ولا تأثيرات أخرى عليه.
٢- قناعة سليمان بما يتمتع به عمر من نظرات وآراء صائبة.
٣- موقف ومعارضة عمر للوليد في خلع سليمان عن ولاية العهد.

كان لعمر تأثير على سليمان في إصدار القرارات الإصلاحية مثل إقامة الصلاة في وقتها فكتب للناس أن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها، كما أشارعلى سليمان بعزل والي

مكة خالد القسري ووالي المدينة عثمان بن حيان نظراً لصلتهم السابقة بالحجاج الذي ظلم الناس.

وقد أنكر عمر على سليمان عندما جاء المدينة إنفاقه الكثير من المال فيها فسأل سليمان عمر، كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ قال: رأيتك زدت أهل الغنى غنىً وتركت أهل الفقر لفقرهم، كما حثّه على رد المظالم لأصحابها وفي زيارة قام بها عمر مع سليمان على معسكره الذي به الخيول والجمال والأثقال والرجال فقال سليمان لعمر: ما تقول يا أبا حفص في هذا؟ قال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً وأنت المسؤول عن ذلك كله أمام الله.

وعندما وقف عمر وسليمان على جبل عرفات، عجب سليمان من كثرة الناس فقال له عمر: هؤلاء رعيتك وأنت مسؤول عنهم غداً، وفي رواية أخرى: هؤلاء خصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان وقال: وبالله أستعين. هذا وقد قبل سليمان بنصيحة العالِم الفقيه رجاء بن حيوة الكندي والذي اقترح عليه في مرض موته أن يولي عهده لعمر بن عبدالعزيز فكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب. وقد قال ابن سيرين في حق سليمان: «يرحم الله سليمان، افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلافه عمر بن عبدالعزيز» وكانت وفاته ﷺ سنة ٩٩هـ وصلى عليه عمر بن عبدالعزيز.

خلافة عمر بن عبدالعزيز ومنهجه في إدارة الدولة:

١- وضّح عمر بن عبدالعزيز ﷺ منهجه في إدارته لدولة الخلافة في خطبته الأولى والتي قال فيها: «إني قد ابتليتُ بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم»، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك فتولّ أمرنا باليُمن والبركة، فرأى أنه لا مفر له من تحمل المسؤولية، فقال محدداً منهجه وطريقته في سياسة الأمة المسلمة:

ألا إني لست بقاضٍ، ولكني منفذ، ألا وإني لست بمبتدع ولكني مُتبع، ألا إنه ليس لأحدٍ أن يُطاع في معصية الله، إلا أني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً، أيها الناس من صحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا:

يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويُعنينا على الخير بجهده، ويُدلّنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابنّ عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه.

أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله عز وجل خلف. اعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يُصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هادم اللذات.. وأن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ولا في نبيها ﷺ وفي كتابها، وإنما اختلفوا في الدنيا والدرهم، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ولا أمنع أحداً حقاً. ثم رفع صوته ليُسمع الناس فقال:

أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإن عصيت، فلا طاعة لي عليكم، وإن من حولكم من الأمصار والمدن، فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم وإن هم نقموا فلست لكم بوال، ثم نزل.

بأمثال هؤلاء الخلفاء الصادقين تنتصر الأمة وترتفع رايتها وتتحقق عزتها ويكون لها مكانة بين الأمم.

عُقدت له الخلافة يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٩٩هـ، فأرسل كتباً إلى عُمّاله في الأمصار وكانت على نوعين:

أ- كتب إلى العمال يبصرهم بما يجب عليهم أن يلتزموا به في مسلكهم الشخصي والخاص.

ب- كتب إلى عُمّاله التي حددت سياستهم، وطريقة تعاملهم مع أفراد الرعية من مسلمين وغير مسلمين ممن يسكنون دار الإسلام.

٢- حرص عمر بن عبدالعزيز على العمل بالكتاب والسنّة: لما كان من مهمة الخلافة هو حفظ الدين وسياسة الدنيا به، رأى الخليفة عمر أن من أهم واجباته هو تعريف رعيته بمبادئ دينهم، وحثهم على العمل بها فقال في أحد خطبه إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً فمن عمل بها استكمل الإيمان، لذا رأى من واجبه إرسال العلماء لأقاليم الدولة لتعليم الناس وتفقيههم وطالب من عُمّاله على الأقاليم حث العلماء على نشر العلم

في المساجد وأجرى لهم الرواتب للتفرغ لنشر علمهم ولإحياء السنّة التي أميتت. لذا بعث بيزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري لتفقيه الناس بالإسلام وخاصة البدو كما بعث بنافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن وبعث بعشرة من فقهاء المسلمين إلى إفريقيا لتعليم وتفقيه أهلها بالإسلام فبعث ببعض العلماء إلى الولايات لتولي القضاء لحماية عقول أبناء الأمة من عبث بعض الأفكار كأفكار الخوارج ليحقق دوام الاستقرار الأمني والسياسي للدولة.

٣- **تحقيق مبدأ الشورى في خلافة عمر**: ومن أقواله في تحقيق هذا المبدأ: «وإن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة، لا يضل منهما رأي ولا يُفقد معهما حزم» لذا لما كان عمر والياً على المدينة من قِبَل الوليد أسس مجلساً استشارياً دائماً من كبار فقهاء المدينة ولما ولي الخلافة حقق هذا المبدأ فقال، «إني قد ابتليت بهذا الأمر، من غير رأي كان مني فيه ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم» فصاح الناس بصوت واحد: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك فولّ أمرنا باليُمن والبركة، فخرج بذلك من مبدأ توريث الخلافة إلى مبدأ الشورى والانتخاب فطلب من أهل الأمصار مبايعته وحرص على إصلاح بطانته فقرّب إلى مجلسه العلماء وأهل الصلاح وأقصى أهل المنافع الخاصة وكان يحث بطانته على استمرار تقويمه مما كان الأثر الواضح في شد أزره وسداد رأيه وصواب القرارات التي يتخذها.

العدل في دولة عمر بن عبدالعزيز وسياسته في تحقيقه:

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل:٩٠] العدل في الإسلام أساس المُلك الصالح وللعدل صورتان:

- **صورة سلبية (فردية)**: تتحقق بمنع الظلم وإزالته عن المظلوم بإعادة الحقوق لأصحابها ومعاقبة المعتدي عليها.
- **صورة إيجابية**: تتعلق بالدولة وذلك بقيامها بحق أفراد الشعب في كفالة حرياتهم وحياتهم المعاشية، حتى لا يكون فيهم عاجز متروك ولا ضعيف همل، ولا فقير بائس، لا خائف مهدد، وتأمين ذلك كله من واجبات الحاكم في الإسلام.

وقام بهذا الركن العظيم خير قيام أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز الذي يعتبر أن الخليفة أجير عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة، ولكي يستزيد من فهمه لصفات الإمام العادل كتب للتابعي الصالح الورع الحسن البصري يسأله في هذا الأمر فأجابه:

الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لخدمتهم صغاراً، ويُعلمهم كباراً يكتب لهم في حياته ويدخرهم بعد مماته، الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي الأيتام وخازن المساكين، يربي صغيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكّك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدّد، وشرّد العيال، فأفقر أهله وفرّق ماله[1].

ومن سياسة أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز لتحقيق العدل:

أولاً: سياسته في رد المظالم:

أ- **الخاصة به**: بدأ برد المظالم الخاصة بشخصه ليكون قدوة للآخرين، فقد أقطعه الخليفة الوليد فص خاتم مما جاءه من أرض المغرب فخرج منه لشدة حرصه كما نزع حلي سيفه من الفضة وحلاّه بالحديد كما ردّ القطائع التي أقطعه إياها قومه وقال لمزاحم: إن هؤلاء القوم قد أعطوني عطايا والله ما كان لهم أن يعطوناها وما كان لنا أن نقبلها وإن ذلك قد صار إليّ ليس عليّ فيه دون الله محاسب. فقال له مزاحم: يا أمير المؤمنين، هل تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا، قال: فذرفت عيناه فجعل يستدمع ويقول: أكِلْهم إلى الله؟ قال: ثم انطلق مزاحم من وجهه حتى استأذن على ابنه عبدالملك فأذن له ما جاء بك

(١) عمر بن عبدالعزيز، عبدالستار الشيخ، ص٢٢٤.

يا مزاحم هذه الساعة؟ هل حدث حدث؟ قال: نعم أشد الحدث عليك وعلى بني أبيك. قال: وما ذاك؟ قال: دعاني أمير المؤمنين - فذكر له ما قاله عمر - فقال عبدالملك: فما قلت له؟ قال: قلت له يا أمير المؤمنين: تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا. قال: فما قال لك؟ قال: جعل يستدمع ويقل: أَكِلُهُم إلى الله تعالى، قال عبدالملك: بئس وزير الدين أنت يا مزاحم، ثم وثب وانطلق إلى باب أبيه عمر، فتأذن عليه فقال له الآذن: أما ترحمونه ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة؟ قال عبدالملك: استأذن لي، لا أمّ لك، فسمع عمر الكلام فقال: من هذا؟ قال: هذا عبدالملك، قال: ائذن له، فدخل عليه - وقد اضطجع عمر للقائلة - فقال: ما حاجتك يا بني هذه الساعة؟ قال: حديث حدّثنيه مزاحم. قال: فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال: وقع رأيي على إنفاذه. قال فرفع عمر يديه ثم قال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني، نعم يا بني أصلي الظهر، ثم أصعد المنبر فأردّها علانية على رؤوس الناس، فقال عبدالملك: يا أمير المؤمنين، ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر. قال عمر: قد تفرق الناس ورجعوا للقائله. فقال عبدالملك: تأمر مناديك ينادي: الصلاة جامعة فيجتمع الناس، فنادى المنادي: الصلاة جامعة، قال فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يُعطوناها وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إليّ ليس عليّ فيه دون الله محاسب، ألا وأني قد رددتها وبدأت بنفسي وأهل بيتي: اقرأ يا مزاحم فجيء بجرنة فيها تلك الكتب: قال فقرأ مزاحم كتاباً منها فلما فرغ من قراءته ناوله عمر فجعل يقصه بالحلم واستأنف مزاحم كتاباً آخر فجعل يقرؤه ثم دفعه لعمر فقصه واستمر حتى نودي بصلاة الظهر.

من بين ما ردّه عمر مما كان في يده من القطائع جبل الورس باليمن وقطائع باليمامة إلى جانب فدك وخيبر والسويداء فخرج منها جميعاً إلا السويداء (العين) لأني عملتها من صلب عطائي الذي يجمع لي مع جماعة المسلمين.

وقد ردّ رضي الله عنه المال الذي كان يأتيه من جبل الورس باليمن رغم شدة حاجة أهله إلى هذا المال، لكنه رضي الله عنه يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا وأمر عمر مولاه مزاحم برد المال الذي كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله.

وهكذا كان عمر الأسوة والقدوة أمام رعيته حين ردّ من أملاكه كل ما شابته شائبة الظُلم أو الشك من خلاص حقه فيه.

ثم اتجه إلى زوجته فاطمة بنت عبدالملك - وكان لها جوهر - فقال لها عمر: من أين صار هذا المال إليك؟ قال: أعطانيه أمير المؤمنين. فقال لها: إما أن تردّيه إلى بيت مال المسلمين أو أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت، فأخذه وجعله في أقصى بيت مال المسلمين. قالت له بقوة المرأة الصالحة والمؤمنة: افعل ما شئت، وفعل ذلك بوضعه في بيت المال، فلما مات عمر ولم يُصل إليه فردها إليها أخوها يزيد بن عبدالملك فامتنعت عن أخذه وقالت: ما كنت لأتركه ثم آخذه فقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه، فانظر أخي المسلم مدى الشفافية والتقى والوفاء لزوجها الصالح.

ب- **رد مظالم بني أمية:** لقد انذهل عمر بن عبدالعزيز مما رآه على أبناء عمه من الأمويين ما أدخلوه على دولتهم من مظاهر السلطان والأبهة والتي لم تكن على عهد رسول الله ﷺ ولا على عهد الخلفاء الراشدين وما أنفقوه من طائل أموال المسلمين على مظاهر الترف والرفاهية. ومن أهم هذه المظاهر:

المراكب الخلافية والمؤلفة من البراذين والخيول والبغال والسرادقات والفُرش والوطاءات المعدة للخليفة الجديد، كما فوجئ عمر بن عبدالعزيز بالثياب الجديدة وبقارورات العطر والدهن الغالي الثمن والتي خلفها ولم يصبها الخليفة سليمان فأصبحت من حقه، رأى أمير المؤمنين عمر أن هذه المظاهر كلها إسراف وتبذير لا مبرر له يتحمله بيت مال المسلمين، لذا أمر عمر مولاه مزاحم ببيع هذه الزينة ووضع ثمنها في بيت مال المسلمين.

وبعد مراسيم دفن الخليفة سليمان وفد لأمير المؤمنين عمر أفراد البيت الأموي يسألونه ما عوّدهم الخلفاء من قبل فطلب من ابنه عبدالملك الخروج إليهم ويقول لهم: أبي يقرئكم السلام ويقول لكم ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر:١٣] ثم أوضح لابنه عبدالملك الاستسراع باستخلاص ما بأيدي الأمويين من المظالم وقال له:

«يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، ومتى ما أريد مكايدتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون عليّ

من أن يُهرق بسببي محجمة من دم أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا ألا وهو يُميت فيه بدعة ويُحيي فيه سنّة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين»[١].

قال لعمر ابنه عبدالملك: ما يمنعك أن تمضي الذي تريد؟ فوالذي نفسي بيده ما أبالي لو غلت بك وبي القدور. قال عمر: أو حق هذا منك، قال: نعم والله. فردّ عمر قائلاً: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يُعينني على أمر ديني، إني لو باهت الناس بالذي تقول لم آمن أن يُنكروها، فإذا أنكروها لم أجد بداً من السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف، يا بُني إني أُروض الناس رياضة الصعبة، فإن بطأ بي عمر، أرجو أن ينفذ الله مشيئتي وأن تعدو منيتي، فقد علم الله الذي أريده[٢].

مهّد عمر لسياسته الحكيمة هذه بأن أخرج ما بيده من مظالم وردها لأصحابها أو لبيت المال، ثم جمع أبناء البيت الأموي وطلب إليهم أن يُخرجوا ما بأيديهم من أموال وإقطاعات أخذوها من الناس بغير حق بل بقوة السلطان. شهدت الأيام الأولى من خلافة عمر تجريداً واسعاً لكثير من أموال وأملاك بني أمية والتي نمت وزادت وتضخمت بحكم أنهم من أفراد الأسرة الحاكمة، وها هي الآن تُرد إلى بيت مال المسلمين ليأخذ العدل مجراه وتعود أموال المسلمين إلى المسلمين.

فرّق عمر المستندات وردّ المظالم من ممتلكات ثابتة ونقود سائلة إلى مكانها الصحيح، ولم تمضِ أيام حتى وجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم المشروع، أعلنوا معارضتهم لسياسة عمر فما كان موقف عمر وجوابه: قال عمر «انظروا والله لوددت أن لا تبقى في الأرض مظلمة إلا ورددتها، لكن بني أمية لم يتأسسوا من حزم وعزم عمر إزاء حقوق الأمة ولم يخطر ببالهم يوماً أن يجردوا هذا التجريد مما يدعو أنه أملاكهم» فاجتمعوا وطلبوا من أحد أولاد الوليد أن يكتب إلى عمر فكتب إليه قائلاً:

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز، لابن الجوزي، ص٢٦٠-٢٦٣.

(٢) المصدر السابق.

أما بعد فإنك أنسيت ممن كان قبلك من الخلفاء، وسرت بغير سيرتهم وسميتها المظالم نقصاً لهم لأعمالهم وشاتماً لمن كان بعهدهم من أولادهم، ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل وعملت بغير الحق في قرابتك، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتهم بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً، فاتق الله يا ابن عبدالعزيز وأرجعه فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك، إن خصصت ذوي قربتك بالقطيعة والظلم، فوالله الذي خصّ محمداً ﷺ بما خصه من الكرامة، لقد ازددت من الله بُعداً في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاء عليك وهي كذلك، فاقتصد في بعض ميلك وتحاشيك.

يظهر من هذا الكتاب الذي أرسل به ابن الوليد لأمير المؤمنين عمر مآخذ الأمويين على سياسة عمر ومنها:

١- مخالفته لسيرة من سبعة من خلفاء بني أمية وعيبه أعمالهم وإساءته لأولادهم.
٢- ما قام به عمر غير منسجم مع الحق لما فيه من قطيعة لأهل بيته ولما قام به من تهديد لخلافته.

ماذا كان موقف عمر من هذا الكتاب؟

كان رد عمر حمم من نار الحق فقال: ويلك وويل أبيك، ما أكثر طلابكما وخصائكما يوم القيامة. رويدك فإنه لو طالت بي حياة ورد الله الحق إلى أهله، تفرغتُ لك ولأهل بيتك، فأقمت على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وراءكم.

لجوء «بنو أمية» للحوار الهادي:

لما رأى بنو أمية صمود ومعارضة أمير المؤمنين عمر لرغباتهم، لجأوا لأسلوب الحوار الهادئ ليصلوا عن طريقه لما يريدون مستغلين نزعة القربى وعاطفة الرحم فأجابهم أن يتسع مالي لكم، أما المال العام فحقكم فيه كحق أي رجل من المسلمين وإلا لينزلن بكم بائقة من عذاب الله.

دخل هشام بن عبدالملك على أمير المؤمنين عمر قائلاً له: يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، جئت أعلمك بما في نفوسهم حيث قالوا: استأنف العمل برأيك فيما تحت

يدك وخلّ بين من سبقك وبين ما ولوا بها عليهم ولهم. فقال له عمر ببديهية: أرأيت إن أتيت بسجلين أحدهما من معاوية والآخر من عبدالملك فبأي السجلين آخذ؟ قام هشام بالأقدم فأجاب عمر: فإني وجدت كتاب الله الأقدم، فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي وفيما سبقني[1].

فلما عجز بنو أمية عن تليين عمر في سياسته لجأوا للنساء فأرسلوا إليه عمته فاطمة بنت مروان والتي كان لا يرد لها طلب وحاجة عند الخلفاء وكان لها احترامها وإجلالها من قبلهم وكذلك كان موقف عمر منها قبل أن يتولى الخلافة.

لما دخلت على عمر عمته عظّمها وأكرمها كعادته وألقى لها وسادة لتجلس عليها، قالت له: إن قرابتك يشكونك أنك أخذت منهم خير غيرك فردّ ﷺ قائلاً لها: ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم، قال: إني رأيتهم يتكلمون، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً. فرد قائلاً: «كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا وقاني الله شره» ثم دعا بدينار من ذهب ومُجمرة وقطعة لحم، ثم ألقى الدينار في النار، ونفخ عليه حتى احمرّ وغدا قطعة من نار ثم تناوله بشيء، وألقاه على قطعة اللحم فنشى وقتّر فقال: أي عمة أما ترثين لابن أخيك من مثل هذا؟[2] تؤخذ عمته العجوز بهذا المشهد المؤثر وتلتفت إلى عمر طالبة منه أن يستمر في الكلام، واسمعوه يقول وكأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعية التي جاء بها الإسلام لكي يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع ثم قال: إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له عنده وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء، ثم ولي أبو بكر وترك النهر على حاله ثم ولي عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبدالملك وابنه الوليد وسليمان أبناء عبدالملك حتى أفضي الأمر إليّ وقد يبس النهر الأعظم ولم يروِ أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه[3]. ردت عمته قائلة: حسبُك ورجعت لبني أمية وأخبرتهم

(١) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبدالعزيز، د. عماد الدين خليل، ص١١٧-١١٨.
(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز، ابن الجوزي، ص١١٧.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ٥/ ٦٤.

بكلامه وبما شاهدته وفي رواية قالت لهم: أنتم فعلتم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر ابن الخطاب فجاء يشبه جده، فسكتوا.

الخلاصة:

سرعان ما تلاشت المعارضة الجماعية لبني أمية، بعد ما رأوه من حرص عمر وحزمه إزاء أموال الأمة فقالوا: ليس بعد هذا شيء، ثم أخذ كل منهم يسعى على انفراد ليسترد ما يستطيع استرداده من أموال، لكن عمر كما تصدى لرغباتهم مجتمعين تصدى لكل واحد منهم على انفراد ويعطيهم درساً بأن حق الأمة لا يمكن أن يكون موضع مساومة في يوم من الأيام وكان ما أشد أن يكون على بني أمية كما قال أحمد بن حنبل.

لم يقف عمر عند حدّ استرداد الأموال من بني أمية وردّها إلى بيت المال، بل أعلن لأبناء الأمة الإسلامية أن كل من كان له حق على أمير أو فرد من بني أمية، أو لحقته منهم مظلمة فليتقدم بالبيّنة ليعود إليه حقه فعمل عمر على:

أ- رد الحقوق لأصحابها: تقدم عدد من الناس بظلاماتهم ومعهم البينات فراح عمر يرد إليهم حقوقهم واحدة واحدة من أراضٍ ومزارع وأموال وممتلكات بل ويدفع لهم نفقات سفرهم رغم استلامهم لحقوقهم. قدم إلى عمر ذات يوم نفر من المسلمين يدّعون على روح بن الوليد بن عبدالملك في حوانيت اغتصبها منهم فلما أقاموا البينة أمر عمر روح برد حوانيتهم لهم فأخذ روح يتوعدهم ويهددهم فرجع أحدهم وأخبر الخليفة بالتهديد فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحاً فإن لم يرد الحوانيت إلى أصحابها فليضرب عنقه فخاف روح على نفسه ورد الحوانيت لأصحابها. الله الله لهذه العدالة، وهذا الحكم العادل بإرجاع الحقوق لأصحابها مهما بلغ المعتدين من قوة وجبروت فقوتهم ضعيفة أمام قوة الحق والعدل.

هذا وقد ردّ عمر لجماعة من الأعراب أرضاً أحيوها فانتزعها منهم الوليد بن عبدالملك وأعطاها لبعض أهله فأعاد عمر الأرض لهم معتمداً على حديث رسول الله ﷺ «من أحيا أرضاً ميتة فهي له» صحيح الجامع للألباني فأعادها لهم.

ب- عزله جميع الولاة والحكام الظلمة: عزل عمر صاحب حرس سليمان بن عبدالملك وعين مكانه عمرو بن مهاجر الأنصاري فهو رجل صالح يُكثر من قراءة القرآن ويصلي في موضع يظن أن لا يراه أحد فيه وهو صاحب دين وأمانة.

ومن الذين عزلهم صاحب خراج مصر أسامة بن زيد التنوخي بسبب ظلمه وتعديه العقوبات بغير ما أنزل الله فيقطع الأيدي دون أن يتحقق من شروط القطع فأمر بحبسه في كل جند سنة مع تقييده وفكه عند الصلاة وبعد وفاة عمر أعاده الخليفة يزيد بن عبدالملك لخراج مصر ومن الذين عزلهم أيضاً يزيد بن أبي مسلم عن إفريقيا لأنه مخالف للحق ويتفنن في تفريق الناس.

ج- رفع المظالم عن الموالي: ومن هذه المظالم إبقاء الجزية عمن أسلم منهم، ومنعهم من الهجرة من قراهم وهم ممن ظلمهم الحجاج بن يوسف. أزال عمر عندما أصبح خليفة ما لحق بالموالي من المظالم وكتب لعُمّاله بذلك ومنهم عامله على مصر حيّان بن شريح قال له: إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً. وقال لواليه على الكوفة عبدالحميد ابن عبدالرحمن ما قاله لابن شريح برفع الجزية عمن أسلم من اليهود والنصارى والمجوس فليس عليهم في ماهم إلا الصدقة وليس عليهم جزية، ولما كتب إليه عامله على البصرة عُدي بن أرطأة أنه كثر دخول الموالي في الإسلام فيقِلُ الخراج بذلك قال له: والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا وهكذا أعاد عمر الحقوق للموالي وباتوا ينعمون بالمساواة والعمل مع غيرهم.

د- رد المظالم عن أهل الذمة: صالح معاوية بن أبي سفيان أهل قبرص على دفع سبعة آلاف دينار فلما أصبح عبدالملك خليفة زادها ألفاً فلما أصبح عمر بن عبدالعزيز خليفة حطّ الألف عنهم كما رفع المظالم عن أهل الذمة من أهل العراق حتى ينعموا بحياة هانئة في ظل الشريعة الإسلامية السمحة وكتب لوالي البصرة عدي بن أرطأة: انظر من قبلك من أهل الذمة ممن كبرت سنّه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه ويسد حاجته.

كما أمر عمر ولاته الأخذ بالرحمة والرأفة بالناس فمنع تعذيب أهل البصرة لأخذ الخراج منهم، ومن مآثره ﷺ في رد المظالم ما كان من سبي بنات ونساء من لواته في شمال إفريقيا فقال: من كانت عنده امرأة منهن فليخطبها إلى أبيها وإلا فليردها إلى أهلها.

ومن عدله ﷺ مع أهل الذمة أنه ردّ إليهم كل أرض أو كنيسة أو بيت اغتُصب منهم كما رفع عنهم نظام السُخرة لمصالح شخصية.

كما ردّ ﷺ حقوق أهل سمرقند إليهم فكتب إلى واليه سليمان بن أبي السُرّى، اجلس إليهم القاضي فلينظر في أمرهم فإذا قضى لهم فاخرج المسلمين من أرضهم إلى معسكرهم فلما قضى القاضي بإخراج عرب سمرقند إلى معسكرهم ثم يكون صلحاً فقال أهل الصغد نرضى بما كان ولا نجدد حرباً وبأمثال هؤلاء الخلفاء الصالحين يتحقق العدل والمساواة وتُرجع الحقوق لأصحابها فتستقر الأمور ويحلّ الأمن والطمأنينة، كما نهى ﷺ عن المكس (دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق) مثل الجمارك اليوم. ومن دروس عمر لولاته أنه بالعدل تستقيم الحياة ويتحقق الاستقرار ومن رحمته بالحيوان أمر أن لا تُنخس الدابة بالحديدة وأن لا تزيد حمولة البعير عن ستمائة رطل.

تحقيق عمر لمبدأ المساواة في خلافته:

حقق ﷺ مبدأ المساواة في دولته تحقيقاً لآيات من القرآن الكريم ومجموعة من الأحاديث للرسول ﷺ.

أقسم ﷺ أنه سيساوي في المعيشة بين نفسه ولحمته التي هو منها وبين الناس فقال في إحدى خطبه: «وما منكم من أحد تبلغنا حاجته إلا وأحببت أن أسدّ من حاجته ما قدرت عليه»[1].

أخذ ﷺ مبدأ المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات في كافة مجالات الحياة، لم يعطِ أحداً كائناً من كان شيئاً ليس له فيه حق، لذا ساوى بين أشراف وأمراء بني أمية وبين عامة الناس فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة والتي كانوا يحصلون عليها من قبل

(١) من تاريخ الطبري، ص٢٩٧ نقلاً عن كتاب النموذج الإداري من إدارة عمر.

وقال لهم لما راجعوه، المال الذي في بيت مال المسلمين، حقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد (موضع في اليمن).

ومن أعماله ﷺ التي توضح مدى حرصه على تحقيق مبدأ المساواة بين الناس، ما أعلنه عندما رأى أمراء من بني أمية، قد استحوذوا على قطع واسعة من الأراضي وجعلوها في حماهم وحرموا عامة الناس من الاستفادة منها فقال رحمه الله: «إن الحمى يُباح للمسلمين عامة، وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء»[1].

كما ساوى ﷺ بين من أسلم من أهل الكتاب والمجوس والمسلمين وعمل على كسر حاجز التنافر بينهم فالله درّك يا عمر فقد حققت المساواة والعدل في مدة حكمك القصيرة فنمت قرير العين في قبرك وعاش الناس عامة في سعادة وهناء ورخاء واستتب الأمن حتى لم يوجد في عهده من يستحق أن يُصرف له من أبواب الزكاة، لذا دعا له عامة الناس بحسن الخاتمة لإقامته العدل والمساواة بين عامة الناس.

يروى ابن سعد في طبقاته أن عمر بن عبدالعزيز كان أحد أطراف النزاع أمام القاضي حيث حضر رجل من أهل مصر إلى عمر بن عبدالعزيز وقال له: يا أمير المؤمنين، أن والدك عبدالعزيز أخذ أرضي ظلماً فقال له أمير المؤمنين بكل بساطة ولطف: أين أرضك يا عبدالله؟ قال: حلوان. قال عمر: أعرفها ولي شركاء والقضاء بيننا، فمشى عمر إلى الحاكم فقضى عليه. فقال عمر: قد أنفقنا عليها. فقال القاضي: فذلك بما نلتم غلتها، فقد نلتم منها بمثل نفقتكم. فقال عمر: لو حكمت بغير هذا ما وُليتَ لي أمراً أبداً وأمر برد الأرض لصاحبها المصري.

وبأمثال هؤلاء الحكام الأتقياء الورعين الذين يخافون مساءلة الله لهم يتحقق العدل وتسود المساواة ويُعطى كل ذي حق حقه.

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز، لابن الحكم، ص٨١.

هذا وقد طبّق عمر مبدأ المساواة بينه وبين عامة الناس فيُحكى أن أحد أفراد الأمة في المدينة قد شتمه لسبب أو لآخر فأراد حاكم المدينة ابن حازم أن يضرب عنقه، لكنه قبل أن يُنفذ ذلك أخبر أمير المؤمنين عمر أن هذا الرجل قد شتمه وأنه همّ بقتله، فكتب عمر إلى واليه في المدينة قائلاً: لو قتلته لقتلتك به فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد إلا أن يُشتم النبي ﷺ، فإذا أتاك كتابي فاحبس على المسلمين شرّه وادعه إلى التوبة في كل هلال، فإذا تاب فخلِّ سبيله، لم يكتف عمر ﷺ بالأخذ بمبدأ المساواة بنفسه فحسب بل كان يأمر عُمّاله وولاته بذلك. وكتب إلى عامله على المدينة قائلاً: «اخرج للناس فآسي بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد الناس آثر عندكم من أحد، ولا تقولنّ هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم»[1] ويظهر لنا هنا مدى حرصه ﷺ على تحقيق مبدأ المساواة بين الرعية في أرجاء دولته.

مبدأ الحريات في دولة عمر بن عبدالعزيز:

قام حكمه ﷺ على مبدأ تأمين وكفالة الحريات العامة للناس ضمن حدود شريعة الإسلام وبما لا يتناقض معها واستعرض رحمه الله صور الحريات الإنسانية فأقر ما كان منها موافقاً لتعاليم الإسلام ومن هذه الحريات:

أ- **الحرية الفكرية والعقدية:** لم يضيق على أهل الذمة في معتقدهم ودينهم انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ...﴾ [البقرة:٢٥٦].

لذا كان منهجه مع ملك الهند والقبائل الخارجة عن الإسلام يتخذ أسلوب الدعوة فلم يُكره النصارى وغيرهم على الدخول في الإسلام، هذا وقد أتاح لكل متظلم أن يُعبر عن رأيه وأن يشكو من ظلمه فأطلق للكلمة حريتها.

ب- **الحرية السياسية:** على مبدأ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى وإن كان حاكماً أو والياً وأعلن من أول أيام حكمه الحرية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن

---

(١) طبقات ابن سعد، ٥/ ٣٤٣.

الإسلام لا يكتم الأفواه ولا يرضى السكوت عن الظلم وتتجلى الحرية السياسية في موضعين:

- المشاركة في اختيار الحكام عن طريق أهل الحل والعقد ثم البيعة للإمام.
- إبداء الرأي والنصح للحكام ونقدهم بمقاييس الإسلام.

ج- **الحرية الشخصية**: فتح ﷺ باب الهجرة لمن يريد وكتب بذلك لعُمّاله ومن باب الحرية الشخصية لأمير المؤمنين أنه خيّر جواريه قائلاً لهن: إنه قد نزل بي أمر شغلني عنكن، فمن اختارت منكن العتق أعتقتها، ومن أمسكتها لم يكن لها في شيء فبكين بكاءً شديداً.

د- **حرية التجارة والكسب (الحرية الاقتصادية)**: كتب عمر لعُمّاله بمنح الناس حرية استثمار أموالهم والاتجار بها في البر والبحر فلا يُمنعون ولا يُحبسون قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية:١٢].

أما عن الأسعار والتسعير في عهد عمر بن عبدالعزيز فقد قال أبو يوسف: حدثنا عبدالرحمن بن شوبان عن أبيه. قال: قلت لعمر بن العزيز: يا أمير المؤمنين، ما بال الأسعار غالية في زمانك، وكانت في زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلي كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم، ولم يكونوا يجدون بداً من أن يبيعوا ويكسروا ما في أيديهم، وأنا لا أكلف أحداً فوق طاقته، فباع الرجل كيف شاء، قال: فقلت: لو أنك سعّرت، قال: ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر إلى الله.

منع ﷺ التعامل مع السلع المحرمة فالخمر من الخبائث، حيث يؤدي شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام.

أثمرت سياسة عمر الاقتصادية في رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة حيث وفّرت للناس الحوافز للعمل والإنتاج بإزالتها كل العوائق مما أدى إلى نمو التجارة، فزاد الدخل الخاضع للزكاة وهذا بدوره يؤدي إلى زيادة الزكاة مما أدى إلى رفع مستويات الطبقات الفقيرة وارتفاع قوتها الشرائية.

المبحث الثاني صفات عمر بن عبدالعزيز ومعالم التجديد عنده

أولاً: أهم صفات عمر الشخصية:

كان ﷺ ذو شخصية قيادية جذابة فهو قائد رباني، حازماً، ذو همة عالية وعنده القدرة على حلّ المشكلات، التخطيط والتنظيم والمراقبة، وبهذه الصفات التي سنتوسع في ذكرها تمكن من تحقيق مشروعه الإصلاحي التجديدي، وإليك أهم الصفات التي تجسدت في شخصية عمر:

١ - **شدة خوفه من الله تعالى**: كان ﷺ قوي الإيمان بالآخرة، يخشى الله ويشتاق إلى الجنة ويؤمن بقوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩] قال لواليه يزيد بن المهلب ولكني أخاف - فيما ابتليت به - حساباً شديداً ومسألة عظيمة إلا ما عافى الله ورحم.

قالت عنه زوجه فاطمة: «ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا أكثرهم صياماً، ولكنه والله ما أرتيت أحداً أخوف لله من عمر، كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليُصبحنّ الناس ولا خليفة لهم»[1]. ومن شدة خوفه من الله، كان غزير الدمع وسريعه، دخل عليه ذات يوم رجل وبين يدي عمر كانون فيه نار، قال عمر للرجل عظني، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، ما ينفعك من دخل الجنة، إذا دخلت أنت النار، وما يضرك من دخل النار إذا دخلت أنت الجنة، قال الرجل: فبكى عمر حتى طفئ الكانون الذي بين يديه من غزارة دموعه، وكان جلّ خوفه من يوم القيامة، الذي أحدث تغيراً جذرياً في مجرى حياته ويقول عمر عن ذلك اليوم «لقد عنيتم بأمر، لو عُنيتْ به النجوم لانكدرت ولو عُنيت به الجبال لذابت، ولو عُنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وإنكم صائرون إلى إحداهما». وبمثل هذه التصورات هي التي تضع المسؤولين وتجعلهم يرتعدون خوفاً إن هم انحرفوا قيد شعرة عما يريد الله، وهذه من أهم صفات ونجاح القائد الصالح عمر بن عبدالعزيز.

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الحكم، ص٤٢.

٢- زهده: كان مفهومه ﷺ من معايشته للقرآن الكريم والحديث لشريف ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا هي دار ابتلاء واختبار وأنها مزرعة للآخرة، لذلك تحرر ﷺ من سيطرة الدنيا بزخارفها وزينتها وانقاد وأسلم لربه ظاهراً وباطناً ومن الحقائق التي استقرت في قلبه وجعلته يزهد في هذه الدنيا:

- يقينه التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء أو عابري السبيل كما ذكر ذلك ﷺ وأنه لا قيمة لهذه الدنيا عند رب العزة، إلا ما كان منها طاعة لله، قال ﷺ «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[١]. ولأنّ عمر الدنيا قد قارب على الرحيل مصداقاً لقوله ﷺ : «بُعثت أنا والساعة كهاتين» بالسبابة والوسطى[٢].

- إيمانه ﷺ بأن الآخرة هي الباقية وهي دار القرار.

- ترك كل ما لا ينفعه في آخرته، فلم يفرح بموجود وهي الخلافة ولم يحزن على مفقود من أمور الدنيا، فترك ما هو قادر على تحصيله من متاع الدنيا، انشغالاً بما هو خير في الآخرة.

- كان ﷺ ينفق على أهله في الغداء والعشاء كل يوم ما قيمته درهمان ولا يلبس من الثياب إلا الخشن وترك مظاهر البذخ والأبهة التي كانت عند من سبقه من الخلفاء وأمر ببيعها ووضع أثمانها في بيت مال المسلمين.

- ومن علامات زهده وانشغاله عن الدنيا بالآخرة ما قالته زوجه فاطمة - كما ذكر ابن الحكم - قالت: ما اغتسل ﷺ من جنابة منذ ولي الخلافة حتى لقي ربه غير ثلاث مرات، وقيل: ما اغتسل من جنابة حتى مات ولكن في هذا القول ابتعاد عن سنّة رسول الله ﷺ وظلم لزوجته في حقها الشرعي، وهذا ما لا يمكن أن يُقدم عليه عمر الصالح التقي الورع فيكون بعيداً عما دعت إليه بعض الفِرَق المنحرفة من ترك النساء

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد تحت رقم ٢٣٢٠.

(٢) مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة رقم ١٣٢-١٣٥.

والطعام وقولهم من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته وقولهم: لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام، حاشا لله أن تكون هذه الأقوال من صلب تعاليم الإسلام.

- والخلاصة أن زهده ﷺ كان مقيداً بالكتاب والسنّة وأن ما نُسب إليه في هذا الباب غير صحيح لمخالفته لهدي الرسول ﷺ.
- كما كان زاهداً في المال فكانت غلته عند توليه الخلافة أربعين ألف ديناراً وأصبحت عند وفاته أربعمائة ديناراً. ومن أقواله ﷺ: «إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، تُسر قليلاً وتُحزن طويلاً» وذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر حوالي ثمانية وعشرون أثراً للزهد عند عمر بن عبدالعزيز.

وختام قولنا عن زهد عمر بن عبدالعزيز قوله لمولاه مزاحم: إني قد اشتهيت الحج فهل عندك شيء؟ قال: بضعة عشر ديناراً قال: وما تقع مني؟ مكث قليلاً ثم قال له: يا أمير المؤمنين، تجهز، فقد جاءنا مال سبعة عشرة ألف ديناراً من بعض مال بني مروان. قال: اجعلها في بيت مال المسلمين، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا وإن تكن حراماً فكفانا ما أصابنا منها. قال مزاحم: فلما رأى عمر ثقل ذلك عليّ قال: ويحك يا مزاحم لا يكثرن عليك شيء صنعته لله، فإن لي نفساً تواقة لم تتق إلى منزله، فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها! حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة[1].

٣- **تواضعه**: تمثل عمر بن عبدالعزيز حديث رسول الله ﷺ القائل «إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد ولا يبغي أحد على أحد»[2].

أدى زهده ﷺ إلى تواضعه في جميع أمور حياته ومعاملاته ومن تواضعه جوابه لرجل ناداه: يا خليفة الله في الأرض، فقال له عمر: مه، إني لمّا ولدت اختارَ لي أهلي اسماً

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الحكم، ص٦٢.
(٢) مسلم رقم ٢٨٦٥.

فسمّوني عمر، فلو ناديتني يا عمر، أجبتك فلما وليتموني أموركم سميتموني: أمير المؤمنين، فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك، وأما خليفة الله في الأرض فلست كذلك، ولكن خلفاء الله في الأرض داود والنبي محمد ﷺ وشبهه[1] مشيراً بذلك إلى قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦].

- ومن تواضعه أنه نهى الناس عن القيام له قائلاً: إنما يقوم الناس لرب العالمين.
- أصلح سراجه بنفسه ذات ليلة وعنده قوم فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا نكفيك؟ قال: وما ضرّني؟ قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.
- كان رضي الله عنه يمتنع عن كثرة الكلام - رغم أنه عالم فصيح ومفوه - خشية على نفسه من المباهاة بما عنده أو أن يظن الناس به ذلك.
- عندما قال له أحد المسلمين جزاك الله عن الإسلام خيراً فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً وكان رضي الله عنه يخفض جناحه للمؤمنين فلا يتكبر على أحد من عباده ولم تزده الخلافة إلا تواضعاً ورأفة ورحمة وكان يرفض أن يسير الحراس والشرطة بين يديه وكان يُعنف من يُعظمه أو يخصه بسلام بين الجالسين ويرفض أن يتميز على غيره بمركب أو مأكل أو ملبس أو مشرب[2].

٤- ورعه: الورع في الأصل هو الكف عن المحارم والتحرج منها، كان عمر رضي الله عنه يتحرى السلامة من الشبهات ومن الأمثلة على تحريه وشدة ورعه رضي الله عنه:

- كان عمر يحب العسل، فطلبه من أهله فلم يكن عندهم فبعثت بدينارين واشترت عسلاً فأكل منه فأعجبه فقال لأهله: من أين لكم هذا؟ قال: بعثت مولاي على بغل البريد فاشتراه لي، فقال لها: أقسمت عليك لما آتيتني به، فأتته بعكلة (وعاء من جلد ماعز مدبوغ مخصص للسمن والعسل) فيها عسل، فباعها بثمن يزيد على الدينارين،

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم، ص٣٤-٣٥.

(٢) عمر بن عبدالعزيز، عبدالستار الشيخ، ص١٢٣.

وردّ عليها مالها وألقى بقيمته في بيت مال المسلمين وقال لزوجته: أنصبْت دواب المسلمين في شهوة عمر.

- أن غلاماً له كان يأتيه بقمقم (وعاء من نحاس) من ماء مسخن، يتوضأ منه، قال للغلام يوماً: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين فتجعله عنده حتى يسخن، ثم تأتي به؟ قال: نعم أصلحك الله، قال: أفسدته علينا قال: فأمر مزاحماً أن يغلي ذلك القمقم، ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب، ثم يحسب تلك الأيام التي كان يغليه فيها، فيجعله حطباً في المطبخ[1].
- كان لا يقبل أي هدية من عُمّاله أو من أهل الذمة خوفاً من أن يكون ذلك من باب الرشوة.
- كان لا يرى لنفسه أن تشم رائحة مسك أتته من أموال المسلمين، فكان يتحرز من استعمال أموال المسلمين العامة، فكان يضيء السراج من بيت المال إذا كان في حاجة المسلمين فإذا فرغ من حوائجهم أطفأ السراج ثم يضيء سراجه الخاص به ومن ماله الخاص.
- كان ﷺ يبتعد عن الشبهات احتياطاً لدينه فالأمر الذي يستبين رشده اتبعه وإن تبين خطأه فيجتنبه، وإن أشكل الأمر عليه توقف عنه.
- كان في قمة الورع أثناء كلامه فعندما سئل ما تقول في أهل صفين؟ قال تلك دماء طهّر الله يدي منها، فلا أحب أن أُخضب لساني بها[2].
- وفي النهاية بلغ من شدة ورعه وتقواه ﷺ أنه اشترى مكان قبره الذي سيوارى فيه فلا يكن له من الدنيا شيء دون مقابل بل حتى موضع قبره.

٥- حلمه وصفحه وعفوه: تجسد في شخصية عمر الحلم والصفح والعفو ومثال ذلك، كان لعمر ابن له من فاطمة بنت عبدالملك، خرج يلعب مع الغلمان فشجه غلام

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز، لابن الحكم، ص٤٠.
(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي، ص١٩٥.

فاحتملوا الاثنين وأدخلوهما على فاطمة، فسمع أمير المؤمنين عمر الجلبة فخرج وجاءت امرأة فقالت: هذا ابني وهو يتيم قال لها عمر: أله عطاء؟ قالت: لا، قال: فاكتبوا في الذرية. فقالت فاطمة: فعل الله به وصُن إن لم يشجّه مرة أخرى. فقال عمر: إنكم أفزعتموه[1].

- عن حاتم بن قدامة، أن رجلاً قام إلى عمر بن عبدالعزيز وهو يخطب فقال له: أشهد أنك من الفاسقين فقال له عمر: وما يدريك؟ وأنت شاهد زور فلا نجيز شهادتك.

- روي أن عمر بن عبدالعزيز خرج ذات ليلة في السحر إلى المسجد ومعه حرسه فمرّا برجل نائم على الطريق فعثر به عمر فقال له الرجل: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا فهمّ الحرسي به فقال له عمر: مه، فإنه سألني أمجنون أنت؟ فقلت: لا[2].

- روي أن رجلاً قام إلى عمر بن عبدالعزيز وهو على المنبر فنال منه وأغضبه، فقال له عمر: يا هذا أردت أن يستفزني الشيطان مع عزة السلطان أن أفعل بك اليوم ما تفعل بي غداً مثله. اذهب غفر الله لي ولك.

- أتى ولد لعمر بن عبدالعزيز وهو يبكي فال له: ما شأنك؟ فقال ضربني فلان العبد. فجيء به فقال له عمر: ضربته؟ قال: نعم. فقال له عمر: اذهب فلو أني معاقب أحداً على الصدق لعاقبتك اذهب ولم يُكلمه.

٦- **صبره وحزمه**: كان ﷺ صابراً شكوراً، فلما توفي ابنه عبدالملك حضر عند قبره فقال: لا تُعمقه فإن ما علا من الأرض أفضل مما سفل منها وقال رجل من الشام عندما توفي عبدالملك بن عمر وأخ عمر سهيل ومولاه مزاحم: والله لقد ابتلي أمير المؤمنين ببلاء عظيم، مات ولده عبدالملك لا والله ما رأيت ولداً كان أنفع لوالده منه، ثم أصيب بأخ له لا والله ما رأيت أخاً أنفع لأخ منه قال: وسكت عن مزاحم فقال عمر: لم سكت عن

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي، ص٢٠٧.
(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز، ٢/ ٤٢٥.

مزاحم فوالله ما هو أدنى الثلاثة عندي، رحمك الله يا مزاحم مرتين أو ثلاثاً، والله لقد كنت كفيت كثير الدنيا ونِعْم الوزير كنت في أمر الآخرة.

- من أقواله في أحد خطبه: ما من أحد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، إلا كان الذي أعطاه الله من الأجر فيها أفضل مما أخذ منه.

- كان ﷺ رغم صبره وجلده حازماً مع الولاة والأمراء والعُمّال لضبط الأمور وخدمة الصالح العالم وما يصلح به أمر المسلمين. فكان حازماً مع بني مروان إذ قال لهم: أدّوا ما في أيديكم ولا تلجئوني إلى ما أكره، فأحملكم على ما تكرهون فلم يجبه أحد منهم، فقال لهم أجيبوني، فقال رجل منهم: والله لا تخرج عن أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا فنفقّر أبناءنا ونكفر آباءنا، حتى تتزايل رؤوسنا فقال لهم عمر: أما والله لولا أن تستغيثوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له، لأضرعتُ خدودكم عاجلاً، لكني أخاف الفتنة، ولئن أبقاني الله لأردّن إلى كل ذي حق حقه إن شاء الله[1].

- أما من أراد شق العصا والخروج على الدولة كالخوارج فاتبع معهم أسلوب الحوار والمناظرة وقرن إجراءاته بشيء من الحزم والصلابة عندما يصل الأمر إلى مرحلة سفك الدماء أو الإفساد، وكان لحزمه مردود إيجابي كبير على حسن سير الأمور وتنفيذ ما كان يسعى لتحقيقه من العدل والخلافة الراشدة.

٧- **العدل**: يعتبر العدل من أبرز صفات أمير المؤمنين عمر القيادية على الإطلاق، فقد ردّ المظالم لأصحابها كما ذكرنا ذلك سابقاً وأجمع العلماء على أن عمر ﷺ من أئمة العدل، والعدل ثمرة من ثمرات إيمانه القوي ولإحساسه بوطأة الظلم على الناس في خلافة من سبقوه من بني أمية.

ومن صور عدله ما رواه الآجري من أن رجلاً ذمياً من أهل حمص قدم إليه فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عز وجل، قال: وما ذاك، قال: اغتصبني العباس بن الوليد بن عبدالملك أرضي - بوجود العباس - فقال عمر للعباس: ما تقول؟ قال

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه، ٥/ ١٧٣.

أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل، فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ابن عبدالملك، فاردد عليه يا عباس ضيعته فردّها عليه.

٨- **تضرعه ودعاؤه واستجابة الله لدعائه:** كان كثير الدعاء والتضرع لله ومن أدعيته: ... ورهبتني عقاب ما بهتني عنه وسلطت عليّ عدواً أسكنته صدري وأجريته مجرى دمي، إن أهمّ بفاحشة شجعني وإن أهم بصالحة ثبطني، لا يغفل أن غفلت، ولا ينسى إن نسيت، ينصب لي في الشهوات ويتعرض لي في الشبهات وإلا تصرف عني كيده يستذلني، اللهم فاقهر سلطانه عليّ بسلطانك عليه حتى أحبسه بكثرة ذكري لك فأكون مع المعصومين بك ولا حول ولا قوة إلا بالله. ومن أدعيته: اللهم ألبسني العافية حتى تُهنيني المعيشة واختم لي بالمغفرة حتى لا تضرني الذنوب واكفني كل هول دون الجنة حتى تُبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين وكان ﷺ مستجاب الدعوة لشدة ورعه وتقواه فروى ابن الحكم أن ابن الريّان (سيّاف الخليفة الوليد) لما ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة قال في حقه: اللهم إني قد وضعته لك فلا ترفعه، فما رئي شريف قد خمد ذكره مثله حتى لا يذكر.

وعندما ذهب عمر للحج أُخبر قبل دخول مكة بقلة الماء فيها فدعا عند ذلك ربه وأخلص في الدعاء فأجاب الله دعاءه فسُقوا، هذا عندما كان أميراً على المدينة.

ثانياً: معالم التجديد عند أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز:

ورد في الحديث الشريف أن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها، لذا اعتبر الكثير من العلماء والمؤرخين أن أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز هو المجدد الأول في الإسلام وممن أطلق عليه ذلك هما الإمامين، محمد بن شهاب الزهري وأحمد بن حنبل.

من أهم إصلاحات عمر وأعماله التجديدية:

أ- **الأخذ بمبدأ الشورى:** وقد سبق الحديث عنه، فقد أعفى الناس من الملك العضوض ولم يجبرهم على القبول بمن لم يختاروه.

ب- **الأمانة في الحكم وتوكيل الأمناء:** قال ﷺ لمن سأله: ما لي أراك مُغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتمْ. وقوله: لست بخير من أحد منكم ولكني أثقلكم حملاً.

كان عمر يطالب عُمّاله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأنه من شؤون المسلمين، ساس ﷺ رعيته سياسة رحيمة وأمّن لهم عيشاً رغيداً وكفاهم مذلة السؤال وأمر عُمّاله بعمل الخانات وإكرام من يمر ببلادهم يوماً وليلة وتعهد دوابهم ومساعدة المنقطع منهم. ومن مزايا عهده ﷺ أنه عزّ في عهده وجود من يقبل الزكاة وعند الاحتكام للشريعة يمكن إقامة نظام اقتصادي إسلامي.

ج- **مبدأ العدل:** كتب لعماله بعدم إقامة أي حد على أحد من الرعية إلا بعد علمه فكتب إلى عامله على خراسان الجراح بن عبدالله الحكمي: لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق واحذر القصاص، فإنك صائر إلى من يعلم خائنه الأعين وما تُخفي الصدور، كما طلب منه إنصاف أهل الذمة وألا يُعتدى عليهم أو على معابدهم ورفع المكوس والعشور التي فرضها من سبقوه، وأطلق للناس حرية التجارة في البر والبحر وردّ المظالم إلى أصحابها وتبرأ من الحجاج وأفعاله وأنكر على عُمّاله الاستنان بسنّة الحجاج.

د- **إحياؤه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** اهتم بمفهوم الخلافة وهي حراسة الدين، وما حققه ﷺ من إنجازات إلا لخوفه الشديد من الله وطلبه مرضاته وكان لا يرى قيمة لحياته إلا بسنّة يحييها أو بدعة يُميتها هذا وقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيراً بالغاً في حياة العامة وميولهم.

ورد في تاريخ الطبري مقارنة بين عهد عمر ومن سبقوه، فكان الوليد صاحب بناء واتخذ المصانع والضياع، أما سليمان بن عبدالملك فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم عن التزويج والجواري، فلما ولي عمر بن عبدالعزيز كان الرجل يقول للرجل ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم ومتى ختمت وما تقوم من الشهر؟ لم يكتف عمر بإقامة الدين داخل دولته، بل وجّه عنايته إلى غير المسلمين ودعاهم للدخول في الإسلام فراسل ملوك الهند وما وراء النهر، فأسلم الكثير وتسموا

بأسماء العرب، وقد خدم عمر هذا الدين عندما أمر بتدوين العلوم الإسلامية وخاصة علم الحديث.

وهناك شروط للمجدد وصفاته منها: أن يكون معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج - أن يكون عالِماً مجتهداً كعمر بن عبدالعزيز، أن يشمل تجديده ميداني الفكر والسلوك في المجتمع - أن يعم نفعه أهل زمانه وأن يكون منارة يستضيء بها الناس.

المبحث الثالث: اهتمام عمر بن عبدالعزيز بعقائد أهل السنّة

أهم العقائد التي حرص عمر على تعليمها وبثها بين الناس ومن أهم هذه العقائد:

أولاً: توحيد الألوهية: هي دعوة الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم السلام جميعاً وهي الغاية من خلق الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

ثانياً: الاعتقاد في أسماء الله الحسنى: هي كلمات دالة على ذاته المتضمنة إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عن صفات النقص والعيب وهي الأسماء المعروفة التي يدعى الله بها كما وردت في الكتاب والسنّة وهي أسماء أزلية توقيفية وهي أعلام وأوصاف.

ثالثاً: الاعتقاد في صفات الله تعالى: وهي نعوت الكمال القائمة بالذات الإلهية كالعلم والحكمة والسمع والبصر واليدين والوجه وغيرها مما أخبر الله تعالى بها عن نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ وتوحيد الله في صفاته هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه ﷺ نفياً وإثباتاً.

رابعاً: نهيه ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد: مصداقاً لقوله ﷺ «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد...» وقوله: «لا يجتمع دينان في أرض العرب» البخاري.

خامساً: مفهوم الإيمان عند عمر: قال في كتابه لأحد عُمّاله أن الإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان. الإيمان عند أهل الحق: قول

باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان. قال ﷺ : «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وما له إلا بحقه وحسابه على الله» مسلم.

سادساً: الإيمان باليوم الآخر: ويشتمل هذا الإيمان على عدة أمور من أهمها:

١- الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وبالمعاد ونزول الرب لفصل القضاء.

٢- الإيمان بالميزان والحوض والصراط.

٣- الإيمان بالجنة والنار ورؤية المؤمنين لربهم في الجنة.

سابعاً: الاعتصام بالكتاب والسنّة وبسنة الخلفاء الراشدين:

أ- الاعتصام بسنّة الخلفاء الراشدين: تمسك عمر بن عبدالعزيز بسنّة الرسول ﷺ وبسنّة خلفائه الراشدين فأعاد لخلافته الراشدة معالمها وملامحها حيث أولى أبا بكر وعمر بجلّ اهتمامه وعدّ الأخذ بسنّتهم أخذاً بسنّة الرسول محمد ﷺ وأخذ بسنّة الخليفة الرابع في تعامله مع الخوارج حيث ناظرهم وكتب إليهم فلما عادوا للشغب حاربهم ويرى عمر ﷺ أن من خرج على سنّة رسول الله ﷺ وسنّة خلفائه الراشدين بأنه خارج عن سبيل المؤمنين وأنه من الفرقة الهالكة، قال ﷺ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ ..» سنن الترمذي.

ب- اتباع الكتاب والسنّة والتمسك بما تدل عليه الفطرة: فيرى عمر أن العباد مخلوقون على الدين القويم وأن الانحراف عنه طارئ وحادث.

ثامناً: موقفه من الصحابة والخلاف بينهم: لما سئل عمر ﷺ عن علي ومعاوية وصفين وما كان بينهم قال: تلك دماء كفّ الله يدي عنها وأنا أكره أن أغمس لساني فيها.

وعمر ﷺ كغيره من علماء السلف الصالح حريص على إبراز فضائل صحابة رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح:١٨].

ومعتقد أهل السنّة ألا يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأن بعضهم كما قال ابن حجر لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد.

تاسعاً: **موقف عمر من أهل البيت**: اختلف العلماء بالمراد بأهل البيت على أقوال والراجح أنهم من حُرّمت عليهم الصدقة وفيهم ثلاثة أقوال: بنو هاشم وبنو المطلب، بنو هاشم خاصة، بنو هاشم ومن فوقهم.

بينما يرى الشيعة أن أهل البيت هم: علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما. وهذا القول يخالف النصوص الصحيحة ولا تؤيده اللغة ولا العُرف فقد وردت لفظة أهل البيت في القرآن الكريم في سياق الخطاب الموجه لأزواج النبي ﷺ، قال تعالى في ذلك: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

أحسن عمر بن عبدالعزيز لأهل البيت فأعطاهم حقوقهم كاملة وأزال عنهم المظالم التي وقعت عليهم وأحسن إليهم مادياً ومعنوياً. هذا وقد اتهم الشيعة معاوية ﷺ بأنه يحمل الناس على سب علي ولعنه فوق المنابر، وهذا كلام لا أساس له من الصحة ولا يُعول على ما قاله كتاب الشيعة كاليعقوبي والمسعودي والأصفهاني والدميري لتحاملهم على بني أمية.

المبحث الرابع: موقف عمر من الخوارج، الشيعة، القدرية، المرجئة، الجهنية

أولاً: موقف عمر من الخوارج:

للخوارج آراء اعتقادية عرّضتهم للمحاربة منها:

١- تكفير علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان والحكمين أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص.
٢- قولهم بالخروج على الإمام الجائر.
٣- قولهم بتكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار.

أما بالنسبة لخلفاء بني أمية فقد كسروا من شوكة الخوارج أما في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز فقد دخل معهم في محاورات ونقاشات واستخدم معهم القوة عند اللزوم وقد دحض عمر شبهاتهم بالحجة وآرائهم بالدليل وإيضاح الحق لهم حُبّاً منه للسنّة واتباع للسلف الصالح.

كتب إليهم عمر وحذرهم من الخروج على الجماعة أهل الحق لأنه إذا اجتمعت الأمة على أمير وجب طاعته وحُرِّم الخروج عليه ما لم يأمر بمعصية ولم يُظهر كفراً بواحاً.

وجد عمر بن عبدالعزيز من بعض فِرَق الخوارج الاستجابة للمناظرة معهم فقد ذكر ابن عبدالحكم أن عمر كتب إليهم قائلاً: من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى هذه العصابة أما بعد: أوصيكم بتقوى الله فإنه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٢-٣] وذكر لهم عدداً من الآيات التي تدعو إلى الوحدة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة قائلاً لهم: وإني أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وأدعوكم أن تَدَعوا ما كانت تُهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا بغير قوة ولا تشنيع، وأذكركم بالله أن تشبهوا علينا كتاب الله وسنّة نبيه ونحن ندعوكم إليهما، هذه نصيحة منا وإلا ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣] رداً على رسائله لهم جاءه رجلان: عاصم مولى بني شيبان ورجل من بني يشكر قالا لعمر: بيننا وبينك أمرٌ إن أعطيتناه فأنت منا ونحن منك، وإن منعتنا فلست منا ولسنا منك. قال عمر: وما هو؟ قالا: رأيتك خالفت أعمال أهل بيتك وسلكت غير طريقهم وسميتها «مظالم» فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فابرأ منهم والعنهم، فهو الذي يجمع بيننا وبينك أو يُفرق. وعندها تكلم عمر لهم عن بعض الأحداث التي حدثت في خلافة الراشدين ومن جاء بعدهم فقال له الحبشي: ما رأيت حجة أبين ولا أقرب مأخذاً من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق وإنني بريء ممن خالفك. عندها قال عمر للشيباني: فأنت ما تقول؟ قال: ما أحسن ما قلت وأحسن ما وصفت، ولكن أكره أن أفتات على المسلمين بأمر لا أدري ما حجتهم فيه حتى

أرجع إليهم فلعل عندهم حجة لا أعرفها، قال فأنت أعلم فأمر عمر للحبشي بعطائه وأقام عنده خمسة عشرة ليلة ثم مات، أما الشيباني فلحق بقومه فقُتل معهم. وظل على حوار معهم طمعاً في رجوعهم للحق، لكنه مات قبل انتهاء مهمته مع الخوارج. لكنه استخدم القوة ضدهم عندما خرج خوارج العراق على والي عمر في العراق عبدالحميد فأرسل إليهم جيشاً بقيادة مسلمة بن عبدالملك الذي انتصر عليهم لأنهم قاموا بأخذ الأموال وإخافة السبيل وسفك الدماء فقُتل منهم من قُتل وأُسر من أسر وسُجن بعضهم.

ثانياً: موقف عمر من الشيعة: الشيعة فِرَق متعددة، منهم الغلاة الذين خرجوا عن الإسلام. ومن أشهر فِرَق الشيعة: الكيسانية السبئية، الإمامية.

أرسل أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بإسحاق بن طلحة بن أشعث إلى شيعة العراق قائلاً له: أقرئهم ولا تستقرئهم وحدّثهم ولا تسمع منهم، وعلّمهم ولا تتعلم منهم وكان عمر ﷺ على معرفة بعقيدة الشاعر كثير عزة الفاسدة، كان شيعياً يؤمن بتناسخ الأرواح ويقرأ قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨] وكان يؤمن برجعة علي إلى الدنيا. لم يهتم عمر بالرد على ما كان يراه كثير عزة وغيره من الشيعة.

ومن آراء غُلاة الشيعة:

أ- القول بوجوب إمامة علي ﷺ وتقديمه وتفضيله على سائر الصحابة.

ب- القول بعصمة الأنبياء والأئمة عن الكبائر والصغائر.

ج- القول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً (أي: تولى علي والتبري من الصحابة ولا سيما الخلفاء الراشدين الثلاثة).

ثالثاً: موقفه من القدرية:

المعنى العام هم الخائفون في علم الله تعالى وكتابته ومشيئته وتقديره وخلقه بغير علم وبخلاف فهم السلف.

وظهرت القدرية في مقولات معبد الجهني المتوفى سنة ٨٠هـ وأتباعه ثم غيلان الدمشقي وأتباعه وتتخلص بأن الله تعالى - بزعمهم - لم يُقدّر أفعال العباد ولم يكتبها وأن

الأمر لم يكن في علم الله ولا تقديره السابق والقدرية الأولى هم الذين أنكروا علم الله السابق وزعموا أنه تعالى لم يقدر أفعال العباد سلفاً ولم يعلمها ولم يكتبها في اللوح المحفوظ.

قال أبو حاتم عن معبد الجهني كان صدوقاً في الحديث وكان رأساً في القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناساً وقال عنه الدارقطني: «حديثه صالح ومذهبه رديء» أما غيلان الدمشقي وهو الرجل الثاني بعد معبد فهو من رؤوس بدعة القدرية، فظهرت مقولته في الشام وافتتن بها خلق، تكلم عن الصفات فنفى بعضها كاستواء ونُسب إليه القول بأن الإيمان هو المعرفة وأن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان.

لما وصلت أخبار غيلان بن مسلم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بعث إليه فلما وصل حجبه أياماً ثم أُدخل عليه فقال لغيلان: ما هذا الذي بلغني عنك؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:١-٣] فقال له عمر: اقرأ آخر السورة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ [الإنسان:٣٠-٣١] ثم قال له عمر: ما تقول يا غيلان؟ قال: أقول قد كنت أعمى فبصرتني وأصم فأسمعتني وضالاً فهديتني. فقال عمر: «اللهم إن كان صادقاً فثبته وإن كان كاذباً فاجعله آية للمؤمنين».

هذا وقد ردّ عمر ﷺ على غيلان بآيات صريحة على المكذبين بالقدر وبيّن ﷺ في خطبه ورسائله: إن الله تبارك وتعال هو الهادي وهو المضل قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩] حيث كانت القدرية تنكر أن يكون الله تعالى هو الهادي وهو الفاتن، وإنما العبد هو الذي يهدي نفسه إذا شاء ويُضلها إذا شاء وبيّن عمر ﷺ : أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى مقدرة له، مكتوبة على عباده، وبيّن في خطبه أن العبد إذا أذنب فعليه أن يتوب ويستغفر الله تعالى وقال إن للعبد قدرة ومشيئة ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى.

إن الآثار الواردة عن عمر بن عبدالعزيز تدل بمجموعها على الإيمان بالقدر بمراتبه الأربعة التي اتفق عليها السلف وهي: العلم، الكتابة، المشيئة، الخلق وكان القدريون في عهد عمر ينكرون العلم والكتابة.

الفرق بين القضاء والقدر في الاصطلاح:

قيل المراد بالقدر (التقدير) وبالقضاء (الخلق) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢] أي خلقتهن.

القضاء والقدر أمران متلازمان، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء والظاهر أنه ليس هناك فرق واضح بين القضاء والقدر وكان عمر ﷺ يدعو «اللهم أرضني بقضائك وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت».

رابعاً: المرجئة:

للأرجاء معنيان:

أ- بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف:١١١]، أي بمعنى أمهله وأخّره.

ب- إعطاء الرجاء.

عرّفهم الإمام أحمد بأنهم هم الذي يزعمون أن الإيمان مجرد النطق باللسان وأن الناس لا يتفاضلون في الإيمان، وأن إيمان الناس وإيمان الملائكة والأنبياء واحد، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأنه ليس فيه استثناء وأن من آمن بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن حقاً.

أما المرجئة الخالصة: هم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وأن أول من تكلم عن الأرجاء بمعنى تأخير الأعمال عن الإيمان فهو غيلان الدمشقي.

ومن الذين رجعوا عن القول بالإرجاء عون بن عبدالله وهو من فقهاء المدينة بعد اتصاله بعمر بن عبدالعزيز وكان على اتصال وثيق به بل ومن المقربين عنده.

خامساً: الجهمية:

تنتسب إلى الجهم بن صفوان من أهل خراسان الذي تتلمذ على الجعد بن درهم وكان كاتباً للحارث بن سريح الذي أثار الفتن ضد الأمويين في خراسان وفي سنة ١٢٨هـ وقعت معركة بين جيش أمير خراسان نصر بن سيار وبين جيش الحارث بن سريح وكان معه جهم بن صفوان الذي طعنه رجل في فمه فقتله. وأصول الدعوة الجهمية:

١- تبني آراء الجعد بن درهم (نفي صفات الله عز وجل) والقول بخلق القرآن مع بدعٍ أخرى.

٢- القول بالجبر فيزعم أن الإنسان لا يقدر على شيء وإنما هو مجبور على أفعاله.

٣- القول عن الإيمان بأنه المعرفة بالله تعالى فقط وأن الكفر هو الجهل به فقط.

٤- القول بفناء الجنة والنار بعد دخول أهلها فيهما.

٥- القول بأن علم الله حادث فلا يُعلم الشيء قبل خلقه وأخذ ينفي الصفات عن الجعد وزنادقة الهنود.

أمر أمير المؤمنين عمر بالنهي عن الخصومات في الدين بغير علم وعليه فإن جهم قد ضلّ وأضلّ وأخذت المعتزلة من الجهمية نفي صفات الله والقول بخلق القرآن.

سادساً: المعتزلة:

هم فرقة ظهرت في أوائل القرن الثاني من الهجرة على يد: واصل بن عطاء البصري سلكت هذه الفرقة في بحث العقائد منهجاً عقلياً صرفاً وأن المعارف كلها عقلية حصولاً ووجوباً قبل الشرع وبعده وهم أرباب الكلام والجدل.

نشأت هذه الفرقة باعتزال واصل بن عطاء لحلقة شيخه الحسن البصري بعد قوله واصل: إن صاحب الكبيرة لا مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. هذا وقد تميز المعتزلة عن أهل السنّة والجماعة بمدرسة منهجية فكرية خاصة، السيطرة فيها للعقل وحده بلا منازع وتركوا التمسك بالنصوص الشرعية.

انقسم المعتزل إلى ٢٢ فرقة منها: الوصالية، العمروية، الهذلية، النظامية.. اتفق جميع المعتزلة فيما بينهم على أصول عقدية خمسة جعلوها أساساً لمذهبهم والأصول الخمسة هي:

التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنهم اختلفوا في الجزئيات.

نشطت حركة المعتزلة في العصر العباسي وأيدها بعض خلفائهم وخاصة المأمون ابن الرشيد.

المبحث الخامس: حياة عمر الاجتماعية، العلمية، الدعوية

أولاً: الحياة الاجتماعية:

أ- اهتمامه بأولاده وأسرته: لم تُشغل مسؤوليات عمر أثناء ما كان والياً وبعد أن أصبح خليفة عن تربية وتعليم أولاده وتنشئتهم تنشئة صالحة فعمل على: ربط أولاده بالقرآن الكريم وتلاوته معهم كل يوم جمعة، تعهده أولاده بالنصيحة، حثهم على التسامح وحُسْن الظن، التعامل مع أولاده بأسلوب اللين والمحاورة العاقلة وأسلوب الإقناع والمنطق في التفاهم معم وتلبية طلباتهم بحكمة ومن سياسته ﷺ مع أولاده حرصه على العدل بينهم رغم كثرتهم، حتى لا يحقد أحدهم على الآخر أو يكرهه فقد ترك إيثاره لابن الحارثية خشية أن يكون ذلك جوراً.

كان ينمي الأخلاق الفاضلة بين أبنائه فقال لابنه عبدالملك في المدينة: إياك أن تفخر بقولك والمباهاة وفي كلامك أو أن تُعجب بنفسك أو تتعالى على الناس أو يُخيل إليك أن ما رزقته لكرامة لك على ربك.

كما عمل ﷺ على تربية أولاه على الزهد والاقتصاد في المعيشة وأن يُقنع بالمعيشة كعامة الناس بعيداً عن حياة الترف والرفاهية وحثهم على دفع فرائض الله عليهم في ماهم، بلغه ذات مرة أن أبناً له اتخذ خاتماً واشترى له فصاً بألف درهم فكتب إليه والده:

«فقد بلغني أنك اشتريت فصاً بألف درهم، فبعْهُ وأشبع ألف جائع، واتخذ خاتماً من حديد صيني واكتب عليه: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه»[1] ويهدف عمر ﷺ من وراء ذلك أن يجعل أمر الفقراء والمساكين نصب أعين أبنائه دائماً.

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي، ص٢٩٨.

وقد كتب ﷺ لأحد أبنائه الذي طلب منه أن يساهم في مهر زوجة ثانية ليتزوجها من بيت المال كتب إليه غاضباً: «لقد أتاني كتابك تسألني أن أجمع لك بين الضرائر من بيت المال، وأبناء المسلمين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها، فلا أعرفن، انظر إلى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا فبِعْهُ استعن بثمنه على ما بدا لك».

وعمل مع بناته ما عمله مع أبنائه فحثهن على القناعة والزهد وبهذا انتقل بأهل بيته من فترة الرفاه والنعيم إلى فترة القناعة والزهد في الدنيا، فقد وضع حلي ومجوهرات زوجه فاطمة بنت عبدالملك في بيت المال وقال لها: «اختاري إما أن تردي حليّك إلى بيت المال وإما أن تأذني لي في فراقك فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد»، قالت: لا بل اختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه إن كان لي[1].

اتبع ﷺ في تربية وتأديب أولاده جانباً من الاهتمام ومنهجاً يُلبي حاجات الناشئ المسلم واتضح ذلك من رسالته ﷺ إلى معلم ومؤدب أولاده مولاه سهل بن صدقة وقال له أن يكونوا قليلي الضحك فإن كثرته تميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك، بُغض الملاهي، فإن حضور المعازف واستماع الأغاني والولوع بها يُنبت النفاق في القلب، كما يُنبت العشب الماء. ومن توجيهات عمر في التربية والتأديب الأمور الآتية:

١- اختيار المعلم والمؤدب الصالح.
٢- تحديد المنهج التعليمي.
٣- تحديد طريقة التأديب والتعليم وتحديد أوقات وأولويات التعليم ومراعاة المؤثرات التعليمية.

ب- **حياته ﷺ مع الناس**: اهتم بإصلاح المجتمع من تفشي المنكرات فيه، قال في إحدى رسائله للولاة: إنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده أو يصيبهم الله بالخوف والجوع والذل وأنواع النقم والمصائب.

---

(١) طبقات ابن سعد، ٥/ ٣٣٠.

تذكير الناس بالآخرة:

قال عمر ﷺ : «إنما خلقتم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تُنقلون» وقال أيضاً: «أيها الناس لا تغرنكم الدنيا والمهلة فيها، فعن قليل عنها تنقلون وإلى غيرها ترحلون، فالله الله عباد الله في أنفسكم فبادروا بها قبل حلول الموت، ولا يطل بكم الأمر فتقسوا قلوبكم».

- تصحيح المفاهيم الخاطئة بإنكاره العصبية القبلية.
- رفض عمر أن يقوم الناس بين يديه لأن القيام لرب العالمين.
- تقديره لأهل الفضل فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه.
- قضاء ديون الغارمين، وإغناؤه المحتاجين عن المسألة ودفع مهور الشباب من بيت المال.
- جهوده ومثابرته في التقريب بين طبقات المجتمع.

ثانياً: عمر بن عبدالعزيز والعلماء:

يختلف عمر بن عبدالعزيز عن غيره من خلفاء بني أمية فقد كان عالِماً فقيهاً تتلمذ على خيرة العلماء في المدينة ولمعرفته بأهمية العلم والعلماء، فقد توسعت مشاركة العلماء في عهده في إدارة شؤون الدولة وكان دورهم قوياً وفاعلاً حيث أحاط عمر نفسه بكوكبة من العلماء العاملين الأتقياء ليكونوا نواة مستشاريه ولمعاونته، لذا ساهموا رضوان الله عليهم في صياغة سياسة الدولة صياغة شرعية خالصة.

وعليه فكانت دولة عمر دولة العلماء لم يسبق لها مثيل من قبل فذكر ابن عساكر: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله.

مظاهر مشاركة العلماء في خلافة عمر:

أ- **قُربهم من الخليفة لشد أزره لمواصلة السير في منهجه الإصلاحي:** فقد أيدوا قراراته الإصلاحية بل كان لبعضهم الفضل في اتخاذها فكان للعالِم الورع عراك بن مالك دور بارز في انتزاع ما أخذه بنو مروان من الفيء والمظالم مما أغضب بني أمية فيما بعد حيث نفاه يزيد بن عبدالملك بعد توليه الخلافة إلى دهلك من جزر بحر اليمن، انتفع به أهل الجزيرة وتوفي فيها سنة ١٠٤هـ. ومن العلماء العاملين في عهده أيضاً الإمام الحجة عالِم

الجزيرة وفقيهها ميمون بن مهران وهو من علماء السلف له مواقف وأقوال في نُصرة كتاب الله وسنّة نبيه وهو القائل: «لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه»، توفي ﷺ سنة ١١٧هـ.

ب- **تعهدهم عمر ﷺ بالنصح وتذكيره بالمسؤولية:** وجّه لعمر النصح الكثير من العلماء في رسائل منهم، وممن وجه له النصح والتذكير سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب القرظي وحسن البصري والقاسم بن مخيمرة وتتعلق النصائح بمنهج عمر السياسي.

ج- **مشاركة العلماء في تولي مختلف مناصب الدولة وأعمالها:** لم تقتصر مشاركة العلماء لعمر على الاستشارة وتقديم النصح له، بل تعدتها إلى تولي عدد من المناصب كالإمارة على الأقاليم وبيت المال ومن هؤلاء العلماء الإمام الثقة والأمير العادل عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب والياً على الكوفة، والعالِم أبو بكر بن عمر ابن حزم على المدينة والإمام الكبير إسماعيل بن أبي المهاجر على إفريقيا، والفقيه المحدث عدي بن عدي الكندي على الجزيرة الفراتية وأرمينيا وأذربيجان.

وتولى العمل على بيت المال علماء منهم: ميمون بن مهران على خراج الجزيرة ووهب بن منبه على بيت مال اليمن وغيرهم.

ثالثاً: المدارس العلمية في عهد عمر بن عبدالعزيز وبني أمية:

تفرغ الكثير من علماء الصحابة للدعوة وتربية جيل جديد من أبناء المناطق المفتوحة وتعلم الكثير من الأعاجم اللغة العربية.

وتابع نشاط الدعوة والتربية لأبناء البلاد المفتوحة مدارس التابعين وأعان الكثير من علماء التابعين أمير المؤمنين عمر على مشروعه الإصلاحي التجديدي المنضبط مع منهاج النبوة.

ومن أهم هذه المدارس العلمية:

١- **مدرسة الشام:** ومن علمائها:

أ- **الإمام الفقيه عائذ بن عبدالله (أبو إدريس الخولاني)**: قاضي دمشق وعالِمها المتوفى سنة ٨٠هـ عالمٍ في الفقه وعالم الحلال والحرام ومن أحسن الناس تلاوة للقرآن.

ب- **الفقيه قبيصة بن ذؤيب الدمشقي**: من علماء التابعين وعلماء الأمة توفى سنة ٨٧هـ/ ٨٨هـ.

ج- **رجاء بن حيوة الفلسطيني**: من أجلاّء التابعين وشيخ أهل لشام، كانت منزلته كبيرة عند سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز وأجرى الله على يديه الخيرات، توفي سنة ١١٢هـ.

د- **مكحول الشامي الدمشقي**: من أفقه أهل الشام، توفي سنة ١١٢هـ/ ١١٣هـ.

هـ- **عمر بن عبدالعزيز**: من علماء المدرسة الشامية وعلماء المدينة المنورة، كان فقيهاً بصيراً بالسنّة.

و- **بلال بن سعد السكوني**: إمام رباني شيخ أهل الشام كما كان الحسن البصري شيخ أهل العراق، بليغ الموعظة.

٢- **المدرسة المدنية**: من أشهر علمائها من التابعين: سعيد بن المسيب، عروة بن الزبير، القاسم بن محمد بن أبي بكر، سليمان بن يسار، نافع مولى ابن عمر.

٣- **المدرسة المكية**: اشتهر فيها من التابعين حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس، مجاهد بن جبر المكي المتوفى سنة ١٠٢هـ، عكرمة مولى ابن عباس، عطاء بن أبي رباح (مفتي الحرم ومن الفقهاء الأئمة) توفي سنة ١١٥هـ، وتفوقت المدرسة المكية بالتفسير بفضل ابن عباس فيها.

٤- **المدرسة البصرية**: من أشهر علمائها محمد بن سيرين البصري مولى أنس بن مالك، كان الحسن البصري يُقدمه على غيره، يصوم يوماً ويفطر يوماً، اشتهر بتفسير الأحلام وكان ضحوكاً باراً بأمه توفي سنة ١١٠هـ ومن علمائها أيضاً وكان حجة في الحديث ومن تلاميذ الحسن البصري قتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة ١١٨هـ.

٥- المدرسة الكوفية: من أشهر علماء التابعين في المدرسة الكوفية:

أ- عامر بن شرحبيل الشعبي: صاحب آثار كثيرة في العلم والفقه، كان ينقبض عند الفتوى.

ب- حمّاد بن أبي سلمة: يعتبر فقيه أهل العراق، تتلمذ على يد إبراهيم النخعي وهو من أنبل أصحابه وأبصرهم في المناظرة توفي سنة ١٢٠هـ.

٦- المدرسة اليمنية: من أشهر علماء التابعين فيها:

أ- طاووس بن كيسان: أعلم أهل اليمن بالحلال والحرام، كان فقيهاً جليلاً وهو بركة لأهل اليمن توفى سنة ١٠٦هـ بمكة.

ب- وهب بن منبه: من أبناء فارس، صاحب حكمة وفطنة وله أثر في محاربة الخوارج توفي سنة ١١٠هـ.

٧- المدرسة المصرية: من أشهر علماء التابعين فيها: يزيد بن أبي حبيب مفتي الديار المصرية ورغم أنه مولى وأسود، قال عنه الليث بن سعد: يزيد بن حبيب سيدنا وعالِمنا، توفي سنة ١٢٨هـ.

٨- مدرسة شمال إفريقيا: من أشهر علمائها والذي عيّنه عمر بن عبدالعزيز والياً على إفريقيا سنة ١٠٠هـ هو الداعية إسماعيل بن أبي المهاجر، أحبّه الناس واستجاب له البربر عندما دعاهم للإسلام، فقههم في الحلال والحرام وعلّمهم أحكام الشريعة، هذا وقد بعث معه أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل لتعليم البربر أمور دينهم.

جهود عمر بن عبدالعزيز والتابعين في خدمة السنّة:

نهى الرسول ﷺ عن كتابة غير القرآن في أول الأمر مخافة اختلاط غير القرآن به، وانشغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء الإذن النبوي بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف.

بدأت طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي على يدي عبدالعزيز بن مروان والد عمر، عندما كان أميراً على مصر.

أما التدوين الذي آتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز عندما أصدر أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث الرسول ﷺ عندما رأى انتشار دس الأحاديث المكذوبة وخلطها بالصحيح من كلام النبي ﷺ بسبب الخلافات المذهبية والسياسية. قال الإمام الزهري: لولا أحاديث تأتينا من قِبَل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابته، وكان رأي الزهري رأي الكثير من أئمة ذلك العصر حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع واختلاطه بالمكذوب، لذا اتخذ أمير المؤمنين عمر خطوة حاسمة بتدوين سنن الرسول ﷺ وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنّة المطهرة. أما خطوات ومجهودات عمر في هذا الشأن تمثلت في:

١- كتب عمر إلى أمير المدينة وعالِمها أعلم أهل زمانه بالقضاء أبو بكر بن حزم يأمره «انظر إلى ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء».
٢- كما وجه أمير المؤمنين عمر كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري يأمره بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، قال ابن حجر: أول من دوّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس سنة ١٠٠هـ.
٣- وجّه عمر أوامره إلى أهل المدينة جميعاً يأمرهم ويحثهم على جمع حديث رسول الله ﷺ وأن يشارك في هذا كل من لديه علم ولو ببضعة أحاديث.
٤- عمّم عمر أوامره إلى جميع الأمصار، ليقوم كل عالِمٍ بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ وما سمعه من أصحابه الكرام بقوله لهم: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء وعليه فقد أبدى أمير المؤمنين عمر اهتماماً واضحاً باللغة العربية وحث أهل البلاد المفتوحة عل تعلمها وإتقانها وإغداق الهدايا والعطايا على من يتعلمها لأهميتها في فهم كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ واتبع ﷺ في جمع الحديث وتدوينه نهجاً سديداً بشروط صارمة أهمها:

أ- حُسْن الاختيار للقائمين على هذا الأمر مثل: أبو بكر بن حزم، ابن شهاب الزهري.

ب- طلب ممن يدوّن له السنّة جمع الأحاديث مطلقاً وتدوينها.
ج- ألزم من يدوّن السنّة النبوية أن يميز بين الصحيح والسقيم.
د- التثبت من صحة الحديث والتحديث.

وثمرة هذه الجهود المباركة كان جمع عدد من الدفاتر التي جمعها الإمام الزهري ونسخها عدة نسخ وأرسل لكل بلد دفتراً منها وبهذا العمل الجليل الذي قام به أمير المؤمنين عمر بجمع السنّة وتنقيحها وتدوينها فجعل من دولته دولة حامية للسنّة المصدر الثاني للتشريع. وبهذا الإخلاص من السرائر وفقهم الله للحق وسدد خطاهم لحفظ هذا التراث العظيم من تراث النبوة ويعتبر التدوين الرسمي للحديث أحد الإنجازات الهامة والإنجازات الكبيرة التي تحققت في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ﷺ.

عمر بن عبدالعزيز والفتوح ورفع الحصار عن القسطنطينية :

كان من أول أعماله ﷺ وقف التوسع في المناطق النائية، كما أمر بسحب القوات الإسلامية من مناطق القتال فطلب من ابن عمه مسلمة بن عبدالملك ترك حصار القسطنطينية بعد حصار استمر لمدة سنتين لاقى المسلمون فيه صعوبات كثيرة منعتهم من فتحها لما لاقت جيوش المسلمين في هذا الحصار الضنك والمجاعة حتى أكلوا الدواب من شدة الجهد والجوع. طلب منه أمير المؤمنين العودة بمن معه من المسلمين بعد أن وجّه إليهم الخيل والطعام لإغاثتهم.

أما في الأندلس، فقد ولّى عليها عمر السمح بن مالك الخولاني وطلب منه بعودة جيوش المسلمين من وراء البرانس حفاظاً على سلامتهم من عدوهم المتربص بهم ولبُعدهم عن مركز الخلافة، لكن السمح لم يرَ الانسحاب الكامل وكتب للخليفة «إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها فاضرب عن ذلك» وأزال الأندلس عن عُمالة إفريقيا.

أما في المشرق فطلب عمر من والي خراسان أن يعود بالمسلمين من وراء النهر خوفاً عليهم لكن والي خراسان كتب إلى عمر قائلاً: «اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين فحسبُهم الذي فتح الله عليهم»[1].

---

(١) من تاريخ الطبري نقلاً عن صالح العلي، ص١٤١.

أما في جبهة بلاد السند، كتب عمر إلى ملوكهم يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب وكان واليه هناك عمرو بن مسلم الباهلي.

ورغم رغبة عمر في إحلال الحوار السلمي في إخماد الحركات المسلحة للمعارضة، فإنه لم يلغ المؤسسة العسكرية واستمرت خلال خلافته القصيرة الحركات العسكرية المحدودة النطاق فلما أغار الترك في أذربيجان على المسلمين وقتلوا منهم أعداداً، فوجه إليهم عمر حاتم بن النعمان الباهلي فقتلهم ولم يفلت منهم إلا اليسير.

وفي سنة ١٠٠هـ أغارت الروم في البحر على ساحل اللاذقية وهدموا المدينة وسبوا أهلها فأمر عمر ببنائها وتحصينها وتصدى لغارات الروم المتكررة وكان حازماً شديداً في اخذ الحق والدفاع عنه وكان مهتماً بضبط الثغور وحدود الدولة الإسلامية.

كما أرسل عمر ﷺ سرايا الدعاة والعلماء للبدو داخل دولته وللشعوب التي دخلت في الإسلام حديثاً لتعليمهم الإسلام.

اهتمام عمر ﷺ بالدعوة الشاملة :

هناك مجموعة من الأمور ساعدت أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز على نجاح مشروعه الدعوي التربوي العلمي منها:

١- وضع قانون تفرغ بعض العلماء للدعوة.
٢- توجيه الأمة إلى أهمية العلم والتعلم.
٣- حضه العلماء على نشر العلم وعلانيته واتخاذ المساجد مراكز لنشر العلم والتعليم الشرعي.
٤- إرساله عدداً من العلماء الربانيين وعددهم عشرة إلى شمال إفريقيا كما سبق ذكره آنفاً.
٥- إرساله مجموعة من الرسائل الدعوية لملوك الهند والسند بعد أن وصلهم عدله وسيرته العطرة وممن أسلم منهم ابن ملك السند جيشبة بن داهر وأرسل إليهم من يعلمهم تعاليم الإسلام فتسمى بعضهم بأسماء العرب كما أرسل ﷺ رسائل لملوك ما وراء النهر يدعوهم للإسلام فأسلم بعضهم.

٦- تشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام ورفع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فأسلم أربعة آلاف من أهل الذمة على يد واليه على خراسان الجراح بن عبدالله. وقد أسلم في المغرب عامة البربر على يد واليه على المغرب إسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر. وفي هذا دليل على مدى إخلاص أمير المؤمنين في نشره للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة مع استمراره في أسلوب الجهاد الدعوي على أيدي العلماء الربانيين.

المبحث السادس: الإصلاحات المالية في خلافة عمر

شهدت أقاليم الدولة الإسلامية في خلافة عمر ازدهاراً ورخاءً اقتصادياً حتى لم يوجد من يأخذ من أموال الزكاة وتميزت إصلاحاته الاقتصادية:

أولاً: أهداف السياسة الاقتصادية عند عمر:

١- **إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل**: وانتقد سياسة ابن عمه سليمان بن عبدالملك التوزيعية للثروة فقال له: «لقد رأيتك زدت أهل الغنى وتركت أهل الفقر لفقرهم» ومن وسائله لتحقيق هدفه هذا أن منع الأمراء والكبراء من الاستئثار بثروة الأمة وزاد من الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى كما أمر بقضاء دين الغارمين.

٢- **تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاه الاجتماعي**: وذلك عن طريق ضبط الأمن، القضاء على الفتن ورد الحقوق لأصحابها، كما أمر ببناء المرافق العامة (البنية التحتية) وقرر مبدأ الحرية الاقتصادية المقيدة بالضوابط الشرعية، كما أبدى الاهتمام بالجانب الزراعي فعمّ الرخاء البلاد والعباد.

ثانياً: وسائل عمر لتحقيق الأهداف الاقتصادية لدولته:

أ- **توفير المناخ المناسب للتنمية**: برده الحقوق لأصحابها وتوفيره للحرية الاقتصادية ضمن الضوابط الشرعية ورفضه التسعيرة لأن السعر إلى الله وتشدد في أمر السلع المحرمة، ومنع التعامل بها وعمل على نماء التجارة.

ب- **اتباع سياسة زراعية جديدة:** عمل عمر على زيادة الإنتاج الزراعي بـ:

- منع بيع الأرض الخراجية لأنها فيئاً للمسلمين ورفض تحويل الأرض التي أسلم أصحابها من أرض خراج إلى أرض عشر وأبقى الخراج على الأرض والعشر على الحب.
- العناية بالمزارعين وتخفيف الضرائب عنهم، لأن الكثير من المزارعين هجروا أرضهم لكثرة وتنوع الضرائب عليها، فلما ولي عمر الخلافة ألغى جميع الضرائب المخالفة للشريعة، فألغى أسلوب الخرص (تقدير الثمار بسعر عالٍ وقبضه نقداً مما أرهق الزراع) ووضع الضريبة حسب الأسعار الفعلية ولم يهتم عمر بالكم بل بالكيف فرفض الإيراد الكثير الظالم.
- العمل على إحياء الأرض الموات والعمل على إصلاح الأراضي للزراعة، كما حرص ﵁ على استغلال أرض الصوافي (الأملاك والأراضي التي تركها أهلها وماتوا ولا وارث لهم). ورأى عمر أن ملكيتها لبيت المال ومنع الإقطاع منها وأمر بإعطائها مزارعة على النصف فإلمْ تُزرع فعلى الثلث، كما رفع ﵁ الضرر عن المزارعين، فلما وصله ﵁ أن جيشاً من أهل الشام مرّ بزرع رجل فأهلكه، فعوضه ﵁ بعشرة آلاف درهماً وسمح بتقديم القروض للمزارعين.
- منع عمر ﵁ الحمى الخاص، وأباح هذه الأراضي للمسلمين جميعاً، كما اهتم بمشاريع البنية التحتية التي تخدم التجار والمزارعين والمسافرين فأنشأ الخانات والفنادق ودور الضيافة لتقديم الخدمات للحجاج والمسافرين[1].

ثالثاً: سياسة عمر بن عبدالعزيز في الإيرادات:

بدأ عمر ﵁ سياسته المالية بزيادة الإنفاق على عامة الشعب فعمل على: أنفق في رد المظالم، أنفق على المشاريع الزراعية ومشاريع البُنى التحتية، أنفق على الرعاية الاجتماعية لجميع طبقات الشعب.

---

(١) خامس الخلفاء الراشدين، البدوي، ص١٧٠.

أما في جانب الإيرادات فألغى عمر ﷺ : الضرائب الظالمة، رفع الجزية عمن أسلم، إلغاء الضرائب الإضافية عن المزارعين، إلغاء المكوس.

حافظ على حقوق بيت المال المسلوبة فأعاد إليه القطائع والمظالم وأوقف امتيازات الأمراء والموظفين، الاقتصاد في الإنفاق الإداري والحربي وكان من نتائج هذا كله: نمو الزراعة والتجارة فنمت الإيرادات من الزكاة والخراج والعشور، وفاضت ميزانية الدولة فوجه هذا الفائض للإنفاق العام لتحقيق أهدافه الاقتصادية.

وبفضل هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة في خلافة عمر فاض ميزانها المالي ولم يشعر الناس بالتعسف والإرهاق وذلك لاستقامة أمر الدولة على تعاليم الدين، لكن كلما حادت الدولة واعوجّ أمرها عن طريق الشريعة اختل التوازن المالي، وهنا يتراءى لنا أن ميزانية الدولة الصحيحة هي مرآة عدلها وجورها ونظامها وفوضاتها.

أما موارد بيت المال في عهد عمر فتكونت من:

١- الزكاة من المسلمين مالكي النصاب.

٢- الجزية المفروضة على الكافر المقيم بدار الإسلام وأسقطها عمر عمن أسلم.

٣- الخراج على أراضي البلاد المفتوحة عنوة أو صلحاً وبلغ الخراج في عهد عمر ١٢٤ مليون درهماً بسبب سياسة عمر الإصلاحية بمنعه بيع الأراضي الخراجية وعنايته بالمزارعين برفع الضرائب والمظالم عنهم.

٤- العشور: ما يؤخذ على تجار أهل الحرب وأهل الذمة عند مرورهم بحدود دولة الإسلام فيؤخذ العشر من تجارة الحربي ونصف العشر من تجارة الذمي.

٥- خمس الغنائم والفيء: الغنيمة ما استولى عليه من أموال الكفار المحاربين عُنوة في القتال أما الفيء فهو كل ما وصل من مال المشركين من غير قتال.

وقد أمر عمر بعشرة آلاف ديناراً من سهم ذوي القربى فقسّمها في بني هاشم وساوى بين الذكر والأنثى والصغير والكبير فشكرته فاطمة بنت الحسين بن علي وتمسك عمر في حق الخمس.

وجعل عمر الفيء موقوفاً على أجيال المسلمين ويُصرف على جميع مصالحهم وكتب بذلك لعماله.

رابعاً: سياسة الإنفاق العام عند عمر بن عبدالعزيز:

١ - إنفاقه على الرعاية الاجتماعية: ومنها:

- الإنفاق على الفقراء والمساكين، سألته ذات مرة زوجته فاطمة، ما يُبكيك؟ قال: تقلدت أمر أمة محمد ﷺ فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور والغريب المأسور والكبير ذوي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ فخشيت ألا تثبت حجتي عند خصومته فرحمت نفسي فبكيت[1] فقد شعر عمر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه متمثلاً بحديث رسول الله ﷺ «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته» البخاري قم ٨٩٣. كما اهتم ﷺ بشأن الأرامل وأبنائهن فقد خصص داراً لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل[2].
- الإنفاق على الغارمين وعلى الأسرى من بيت مال المسلمين وخاصة أسرى المسلمين عند الكافرين كما اهتم بالسجناء في سجون المسلمين بسبب جرم أو قصاص وأمر لهم برزق وكسوة صيفاً وشتاءً.
- الإنفاق على المسافرين وأبناء السبيل: لذا أمر عمر عُمّاله ببناء بيوت الضيافة على الطرق لرعاية المسافرين، وأمر ﷺ بإطعامهم يوماً وليلة وتعهد دوابهم، ودعم المنقطع عن أهله حتى يصل بلده كما اهتم بقوافل الحجيج والإنفاق عليها ورعاية ضعيفهم وإغناء فقيرهم.
- الإنفاق لفك الرقاب، رقاب المستعبدين.
- الإنفاق على العلماء ليتفرغوا للدعوة وتعليم الناس أمور دينهم.

---

(١) طبقات ابن سعد، ٥/ ٣٧٨.

(٢) طبقات ابن سعد، ٥/ ٣٧٨.

٢- ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة: اتصفت سياسة عمر في الإنفاق بالبُعد عن الإسراف والتبذير والبُعد أيضاً عن الشح والتقتير ومن خطوات عمر في مجالات إرشاد الإنفاق:

أ- قطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وأمراء الأمويين: بإعادة الحقوق لأصحابها والحقوق العامة لبيت المال وبدأ ﷺ بنفسه وأهل بيته كما ذكرنا سابقاً.

ب- ترشيد الإنفاق الإداري: عوّد عمر أعوانه وولاته على الاقتصاد في أموال المسلمين حتى لا يتضرر بيت مال المسلمين.

ج- ترشيد الإنفاق الحربي: كلفت بعض الحروب في عهد أمير المؤمنين سليمان كحصار القسطنطينية بيت مال المسلمين الكثير من المال والشهداء دون تحقيق شيء فلما أصبح عمر خليفة أرسل لابن عمه مسلمة كتاباً يطلب منه العودة، لما أصاب جيش المسلمين من ضيق وجوع وشهداء وساهم إيقاف الحروب ومتابعة الفتن، إيجاد مناخ عام من الراحة والطمأنينة والاستقرار وساهم في نمو اقتصادي للدولة وتحسن أحوال الطبقات الفقيرة والمحتاجة بفضل من الله، ولسياسة عمر الرشيدة في الإنفاق والمحافظة على أموال بيت مال المسلمين.

المبحث السابع: المؤسسة القضائية في عهد عمر بن عبدالعزيز

كانت المؤسسة القضائية في خلافة عمر بن عبدالعزيز منارة للعدل برد المظالم، وإعطاء الحقوق لأصحابها ونرى هذه السياسة في:

أولاً: الأقضية والشهادات:

١- اشترط عمر عند تعيينه للقضاة أن يتوفر في القاضي خمسة شروط: العلم، الحلم، الفقه، الاستشارة، القوة في الحق.

٢- أن يحكم القاضي فيما استبان له ويرفع ما التبس عليه لمن هو فوقه لينظر فيها.

٣- الرفق بالحمقى والنهي عن العقوبة عند الغضب لأنه عند الغضب يُحتمل أن يتجاوز القاضي من الحق تحت تأثير الغضب فيظلم المذنب، لذا عليه أن يحبس المذنب حتى يذهب عنه الغضب ثم يحكم.

٤- ترك العمل بالظن والأخذ بالظاهر لأن خطأ الوالي في العفو خير من تعديه في العقوبة.

٥- الهدية: اعتبرها عمر لولاة الأمر من خلفاء وولاة وقضاة إنما هي رشوة لذا أمر عمر الولاة بألا يقبلوا الهدايا كما أمر الناس بعدم تقديمها لولاة الأمر.

٦- نقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية ومن ضيّع الأمانة فعليه اليمين بعدم التفريط.

٧- إذا كان عند المتهم بيّنة غائبة فيؤخر القضاء لحين إحضارها.

ثانياً: في الدماء والقصاص:

تخيير الأوفياء في قتل العهد بين العفو والدية والقتل، أما من يُقتل في الزحام أو في السوق ولم يُعرف قاتله فديته في بيت المال وإذا عُفي عن القاتل فالدية.

ثالثاً: في الديات:

كتب عمر لأمراء الأجناد أن الدية في عهد الرسول ﷺ كانت مائة بعير، ودية قطع اللسان فيمنع صاحبه الكلام ففيه الدية كاملاً وما نقص فكل بحسابه، وإذا ضربت حنجرة أحدهم فانقطع الصوت ففيها الدية كاملة ومن قُطع ذكره كاملاً ففيه الدية كاملة وما كان دون ذلك فبحسابه وهناك دية في قطع الأنف وقطع الأذن والرجل وكسر الذقن وقطع الأصابع لليد أو الرجل في كل إصبع ثلث الدية.

رابعاً: الحدود:

في إقامتها سبب في حفظ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم واستتباب الأمن في البلاد وقد كتب عمر لعماله: إن إقامة الحدود عندي كإقامة الصلاة والزكاة.

هذا ويمنع الرجوع عن الحدود بعد بلوغها الإمام، هذا وإذا اجتمع على رجل أكثر من حد كأن يزني ويسرق ويقتل كان عمر يقيم عليه الحدود أولاً ثم يقتله، هذا ولا يُقتل

أحد أو يُصلب إلا بعد موافقة الخليفة كما أنه لا قطع على السارق حتى يخرج بسرقته وهناك مجموعة من الحدود لكل منها طريقته.

خامساً: في التعزيرات:

الحد عقوبته محددة، أما ما لا حد فيه ففيه التعزير كما يرى الإمام، إما الجلد تعزيراً فجعل له عمر حداً أقصى لا يجوز الزيادة عليه على قولين:

أ- لا تجوز الزيادة على ثلاثين جلدة.

ب- لا يزداد للحر عن ٣٩ جلدة ولا يزاد للعبد عن ١٩ جلدة.

هذا ولا يؤخذ الناس بالمظنة وضربهم على التهمة كما نهى عن المثلة كحلق الرأس واللحية كعقوبة.

سادساً: في أحكام السجناء:

- تعجيل النظر في أمر المتهمين فمن كان عليه ذنب يؤدب ومن لم يثبت عليه قضية فيُخلى سبيله.
- الاهتمام بأمور المسجونين بتعهدهم بكل ما يحتاجونه من طعام وأدم وكسوة لإصلاحهم.
- أن يكون للنساء سجن خاص بعيداً عن الاختلاط بالرجال.

سابعاً: في أحكام الجهاد:

حدد عمر سن من يسمح له بالجهاد بخمس عشرة سنة، وحدد مدة الرباط بأربعين يوماً وأن من يبيع السلاح أو الخيل للعدو فهو جريمة وأكد عمر على فك أسرى المسلمين مهما بلغت الفدية وكره عمر قتل الأسرى وأذن باسترقاقهم.

ثامناً: في النكاح والطلاق:

لا زواج بدون ولي، ولا مانع من زواج الرجل بالمرأة بعد أن يزني بها إذا رأى منها خيراً. وقال عمر بعدم نكح امرأة الأسير المسلم أبداً ما دام أسيراً وعلى زوجته الصبر حتى

يفك الله أسره، أما إذا فُقد الزوج وانقطعت أخباره أحي هو أم ميت فيرى عمر أن تعتد أربع سنين ثم تتزوج هذا ومن غاب عن زوجته سنتان فليطلق أو يرجع إليها.

المبحث الثامن: الفقه الإداري عند عمر

أ- الولاة:

حرص عمر بن عبدالعزيز على انتقاءُ ولاة وعُمّال الأقاليم من أهل الخير والصلاح ويشترط فيمن يُختار لذلك أن يتصف بالتقوى والأمانة وحُسْن التدين.

ومن أشهر ولاة عمر على الأقاليم:

١- الحجاج بن عبدالله الحكمي والي خراسان وسجستان، كان شجاعاً، مهيباً، عابداً، قارئاً، عالي القدر.
٢- عدي بن أرطأة الفزاري والياً على البصرة.
٣- عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب والياً على الكوفة.
٤- عمر بن هبيرة والياً على الجزيرة.
٥- أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم والياً على المدينة وهو من أعلم أهل زمانه في القضاء.
٦- عبدالعزيز بن عبدالله بن أسيد الأموي والياً على مكة.
٧- رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي والياً على مصر.
٨- إسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر المخزومي والي المغرب وأسلم على يديه الكثير من البربر.
٩- السمح بن مالك الخولاني والي الأندلس والذي استشهد غازياً في أرض الفرنجة.

كان عمر بن عبدالعزيز يشرف بنفسه على إدارة شؤون الدولة وكان يتابع عُمّاله في أقاليمهم ويقضي معظم وقته في رسم سياسته الإصلاحية في المجالات السياسية، الاقتصادية، الإدارية.

وكان عمر دائم التذكير لعماله بالخوف من الله وعظم الأمانة الملقاة عليهم ويأمرهم بمراقبة الله وتقواه فيما يعملون. كما كان يرسل المفتشين إلى الأقاليم ليأتوه بالأخبار

والتعرف على ظلامات الناس من نظام خراج خراسان الذي فرضه عدي بن أرطأة على الأهالي.

ثانياً: التخطيط في إدارة عمر:

التخطيط في الإسلام هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان في عمله أو حياته في المستقبل، لذا لا يتخذ عمر أي قرار دونما تخطيط والتعرف على عواقب الأمور وأخذها بعين الاعتبار ومن أقواله ﷺ في هذا المجال «من عمل على غير علم كان يُفسد أكثر مما يصلح» وكان عمر في تخطيطه يضع الأهداف، ويختار السياسات والإجراءات المناسبة، وكان غير مستعد للاستماع إلى أي جدل في مسائل الشرع والدين.

ثالثاً: التنظيم في إدارة عمر:

التنظيم يعتبر مكملاً للتخطيط لبناء المتطلبات الإجرائية لتنفيذ الخطط، لذا جعل عمر التنظيم أهم أولويات العمل الإداري، لذا جزّأ عمر أعمال الدولة إلى أربعة أجزاء رئيسية تأتي تحت مسؤولية أربعة أركان هم: الوالي، القاضي، صاحب بيت المال والخليفة بالإضافة إلى تنظيمات أخرى هي: الخراج، الجند، الكُتّاب، الشرطة، الحرس، صاحب الخاتم، الحاجب وغيرهم.

هذا وقد كتب عمر إلى عُمّاله فيما يتعلق بتنظيم الأمور المالية والصدقات والضرائب والأخماس وزكاة الأموال والممتلكات وتنظيم الأعمال التجارية، كما اهتم أيضاً بتنظيم أمور القضاء وأما بالنسبة لما يتعلق بتنظيمات بيت الخلافة، أعاد تنظيمه بما يتوافق مع نظرته في أنه واحد من عامة المسلمين وأنه ليس في حاجة إلى مراسيم أبهة الملك فانصرف عن كل مظاهر الخلافة التي عُرفت من قبله فألغى وظائف مثل صاحب الشرطة الذي يسير بين يدي الخليفة بالحربة.

رابعاً: الوقاية من الفساد الإداري:

عمل أمير المؤمنين عمر على التخلص من بعض السموم الإدارية مثل: الخيانة، الكذب، الرشوة، الهدايا للمسؤولين، الإسراف والتبذير، ممارسة بعض الولاة للتجارة واحتجابهم عن الناس. ومن أعماله ﷺ للقضاء على هذه الآفات:

١- التوسعة على العُمّال في الأرزاق حتى يتفرغوا لأشغال المسلمين وحقق بهذه التوسعة سد منافذ الخيانة من السرقة وغيرها.

٢- حرصه على الوقاية من الكذب.

٣- الامتناع عن أخذ الهدايا والهبات فقال له البعض أن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية فردّ قائلاً ولكنها لنا ولمن بعده رشوة[١].

٤- النهي عن الإسراف والتبذير، لذا عندما أصبح خليفة انصرف عن مظاهر الخلافة فترك المراكب وركب بغلته الخاصة به وطلب من مولاه مزاحم بضم مراكب ومظاهر الخلافة إلى بيت مال المسلمين ودفع برجله فُرش الخلفاء ونام على الحصير وكان ﷺ يسعى للتوفير والاقتصاد في الإنفاق من بيت المال منعاً للإسراف.

٥- منع الولاة والعُمّال من ممارسة التجارة حتى لا ينشغلوا عن أمور المسلمين أو يحابيهم الناس لمركزهم.

٦- فتح قنوات الاتصال بين الوالي والرعية: منعت حاشية الخليفة قبل عمر من وصول الناس للخليفة، أما عمر فقد منح الجوائز والمكافآت لمن يخبره بحقيقة الأحوال أو ما فيه مصلحة للمسلمين فيمنع بذلك الظلم والتعدي على حقوق الآخرين.

٧- محاسبته لولاته عن أموال بيت المال فقد كتب لواليه على خراسان يزيد بن المهلب وسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبدالملك وأمر بحبسه وكان ﷺ يتحسس أخبار ولاته ومحاسبتهم على أي تقصير.

خامساً: المركزية واللامركزية في إدارة عمر:

كان عمر يجمع بين المركزية واللامركزية حسب الموقف فمثلاً بالنسبة لأمور القتل والصلب طلب عمر من واليه على الكوفة بالرجوع إليه مباشرة بهذا لخصوص. وكتب إلى واليه على اليمن ممثلاً اللامركزية «فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني وتكون اللامركزية فيما فيه مصلحة للأمة وهذا ما أريده».

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز، لابن الجوزي، ص١٨٩.

سادساً: مبدأ المرونة عند عمر في الإدارة:

من أقواله لشعبه «ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً» فتحقيق هدف ما يحتاج إلى شيء من المرونة والتغاضي ولم تكن المرونة عائقاً لتنفيذ القرارات وتحقيق الأهداف المرسومة فاتصف ﷺ بالمرونة في تنفيذ السياسة العامة، سياسة إقامة العدل ونشر الإسلام وخاصة في البلاد المفتوحة.

سابعاً: أهمية الوقت في إدارة عمر:

كان عمر يقضي مجمل وقته في: تسيير أمور الدولة، عمل ما فيه مصلحة الأمة أداء حق الله من العبادة، فكان يقضي ليلته في الصلاة والمناجاة فلا يكلم أحداً بعد أن يوتر. كان يقضي وقته في البت السريع في الأمور واتخاذ القرارات الإدارية وتلافي كل ما في شأنه التأخير وحتى لا يُضع الوقت فيما لا يفيد، أرسل إلى مسلمة بن عبدالملك بفك الحصار عن القسطنطينية وبسرعة العودة للوطن نتيجة لما أصاب المسلمين من جوع وضنك، كما عزل أسامة بن يزيد التنوخي عن خراج مصر لظلمه وتسلطه كما عزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقيا لظلمه أيضاً ولم يكن يتأخر في إرسال كتبه لعماله لأن للوقت عنده قيمة وكان يختار موسم الحج ليخطب في المسلمين أو يكتب إلى عُمّاله في يوم حجهم الأكبر ويستغل هذا الموسم لمحاربة الظلم وإقرار العدل ورد المظالم التي لم تصل إليه لتبرأ ذمته من أية مظالم خفية لم تبلغه.

ثامناً: مبدأ تقسيم العمل في إدارة عمر:

كان عمر يتابع عُمّاله وتقسيم العمل فيما بينهم فكتب إلى والي خراج خراسان عقبة ابن زرعة الطائي «إن للسلطان أركاناً، لا يثبت إلا بها، الوالي ركن، القاضي ركن، صاحب بيت المال ركن، والخليفة هو الركن الرابع». وهناك تقسيمات فرعية منها ما يتعلق بإمارة الجهاد وآخر بالأمن الداخلي (الشرطة، الحرس، الحاجب، الجمارك ونقاط العبور) وهناك قسم يختص بالكتابة (الكُتّاب) والخاتم والشؤون المالية ومن الفروع أيضاً: الخراج، مؤسسة النقد، مجالس التعليم في المساجد، الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي ع المنكر ودور الإفتاء وولاية الصلاة والحج والبريد، فكان أمير المؤمنين عمر

رجل دولة من الطراز الفريد وكان يخول ولاته حق تعيين وزرائهم، مجالس الشورى، جيش الولاية والحفاظ على الأمن الداخلي فيها، والنفقات اللازمة لكل ولاية تحت إشراف الخليفة ومتابعته لها بنفسه.

أسباب نجاح عمر في مشروعه الإصلاحي

١- صفات عمر الشخصية من: العلم، الورع، الخشية، الزهد، التواضع، الحلم والصفح والعفو، الحزم العدل، القدرة على التخطيط والتنظيم والقيادة والتوجيه.

٢- امتلاكه ﷺ الرؤية الإصلاحية الجديدة الواضحة المعالم على منهج الخلافة الراشدة على منهج النبوة.

٣- التفاف الأمة حول مشروعه الإصلاحي لما رأوا فيه صدق العزيمة والإخلاص في العمل.

٤- وجود كوكبة مخلصة من العلماء الربانيين الذين ساندوه وشدوا من أزره وكونهم مؤهلين لقيادة الدولة وقيادة الأمة بها أوتوا من سيرة حسنة وإخلاص في العمل.

٥- حرصه ﷺ على تحكيم تعاليم الشرع في كل صغيرة وكبيرة ونال من الله التوفيق في ذلك.

وكان من آثار تحكيمه لشرع الله في سكان البلاد المفتوحة ما شاهدناه من الاستقرار واستتباب الأمن وتوفر الرخاء والرفاهية وهذه التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا، يجريها الله تعالى على يديْ من أخلص النية لربه ودينه وتطبيق شرعه.

الأيام الأخيرة في حياة أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز حتى وفاته

١- آخر خطبة لأمير المؤمنين عمر: مما قاله فيها: «أيها الناس، إنكم لم تُخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ألا واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه وباع نافذاً بباق، وقليلاً بكثير وخوفاً بأمان ... وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله فتعيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير

موسد ولا ممهد، قد فارق الأحبة وخلع الأسباب فسكن التراب وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، فقير إلى ما قدم غني عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، فاستغفر الله وأتوب إليه...» ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق وأبكى الناس حوله ثم نزل ولم يخطب بعدها حتى مات رضي الله عنه[1].

٢- **سقيه السم**: اختلفت الروايات عن سبب مرض ووفاة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه منها:

أ- بسبب خوفه من الله تعالى واهتمامه بأمر المسلمين وهذه رواية زوجته فاطمة بنت عبدالملك.

ب- رواية ابن سعد في طبقاته أنه أُسقي السم حيث تبرم منه بنو أمية وذاقوا ضرعاً من سياسته وأخذه المظالم منهم وحال بينهم وبين ما يشتهون فعمل بعض بني أمية على وضع السم في شرابه عن طريق خادمه حيث وعدوه بألف درهم ووعدوه بالعتق إن نفّذ الخطة، كما هددوه بالقتل إن هو لم يفعل ما أمروه فحمل السم فوق ظفره ثم وضعه في الشراب الذي قُدِّم إليه، فأحس به عمر منذ أن وقع في بطنه. أما موقفه من الخادم فقد عفا عنه لأنه أُكره على ذلك ووضع عمر الألف درهم في بيت مال الدولة الإسلامية.

٣- **شراؤه لموضع قبره**: اشتراه من ماله الخاص، بسبب شدة ورعه ومحاسبته الشديدة لنفسه واشترى موضع قبره من راهب نصراني الذي قال: لولا أن يتحول عنا ما قبلنا الثمن. لكن عمر أصرّ على دفع الثمن أو أن يتحول عنهم ولكن النصراني قال: «إني لأتبرك بقربك وجوارك».

٤- **وصيته لولي عهده يزيد بن عبدالملك**: قال له: «فإني كتبت إليك وأنا اشرف على الموت من وجعي وقد علمت إني مسؤول عما وليت، يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أُخفي عليه من عملي شيئاً. قال تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا

---

(١) تاريخ الطبري، ٧/ ٤٧٥.

غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف:٧] فإن يرضَ عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل وإن سخط عليّ فيا ويح نفسي إلى ما أصير، اسأل الله أن يجيرني من النار برحمته وأن يمنّ عليّ برضوانه والجنة عليك بتقوى الله والرعية الرعية، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير»[١].

نصح عمر ولي عهده ما وسعه النصح وبذل ما يقدر عليه من التخويف والتهديد من عاقبة الأمر.

٥- وصية عمر لأولاده عند الموت: عندما حضرته الوفاة دخل عليه ابن عمه مسلمة بن عبدالملك وقال له: «يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيتني بهم إليّ وإلى نظرائي من قومي فكفوك مؤونتهم» فلما سمع ما قال، قال: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال، فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم وأما ما قلت في الوصية، فإن وصيتي فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٦] وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: أما صالح فسيغنيه الله وأما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله. ادعُ لي بني، فأتوه، فلما رآهم ترقرقت عيناه ثم قال: بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم - وبكى - يا بَنيّ إني قد تركت لكم خيراً كثيراً لا تمرّون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً، يا بني إني قد مثلت بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحبّ إلي، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله[٢]. وبهذه التربية الراقية تسمو النفوس عن متاع الدنيا الزائل.

٦- وصيته إلى من يغسله ويكفنه: قال ﷺ وأرضاه للعالم الورع والتقي رجاء بن حيوة، إذا أنا مت وغسلتموني وكفنتموني وصليتكم عليّ وأدخلتموني لحدي، فاجذب

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي، ص٣١٨-٣١٩.

(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم، ص١٢٢-١٢٣.

اللبنة من عند رأسي، فإن رأيت وجهي إلى القبلة فاحمدوا الله وأثنوا عليه، وإن رأيت قد زويت عنها، فاخرج إلى الناس ما داموا عند لحدي حتى يستوهبوني من ربي. قال رجاء فلما وضع في لحده، جُذبت اللبنة من عند رأسه فإذا وجهه إلى القبلة فحمدنا الله وأثنينا عليه.

٧- **كراهته ﷺ تهوين الموت عليه**: من أقواله ﷺ ما أحبُّ أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يكفر به عن المرء المؤمن.

٨- **حاله ﷺ لما احتضر**: قال وقتها: اخرجوا عني فلا يبقينّ عندي أحد، فقعد مسلمة وزوجه فاطمة عند الباب فسمعوه يقول: «مرحباً بهذه الوجوه، ليست وجوه أنس ولا بوجوه جان» كما سمعته زوجته فاطمة يقول في أيام مرضه «اللهم اخف عنهم موتي ولو ساعة من نهار» وسمعته في اليوم الذي قُبض فيه يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] ثم هدأ فجعلت لا أسمع له صوتاً ولا حساً ولا كلاماً فقلت لخادمه وصيف: «لو دخلت على أمير المؤمنين، فدخل وصاح، فقمت ودخلت عليه، وقد أقبل بوجهه إلى القبلة وأغمض عينيه بإحدى يديه وأغمض فمه بالأخرى، ومات رحمه الله وكان نقش خاتمه: عمر بن عبدالعزيز يؤمن بالله».

٩- **تاريخ وفاته**: توفي هذا الرجل الصالح يوم الجمعة لعشر ليالٍ بقين من رجب سنة ١٠١هـ بعد مرض استمر معه عشرون يوماً وكانت وفاته بدير سمعان من أرض المعرّة بعد حكم استمر سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وله من العمر حوالي أربعين سنة.

١٠- **ما تركه عمر من أموال**: معظم الروايات مجمعة على قلة التركة بل انعدامها، ومن رواية عمر بن حفص المعيطي قال: حدثنا عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم جميعاً، قال: قلت: كم ترك لكم من المال؟ فتبسم وقال: حدثني مولى لنا كان يتولى نفقته قال: قال لي عمر بن عبدالعزيز رحمه الله حين احتضر: كم عندك من المال؟ قلت: أربعة عشر ديناراً، قلت: كم ترك من النحلة؟ قال: ترك لنا نحلة ستمائة ديناراً ورثناها عنه عن اختيار عبدالملك وتركنا اثني عشر ذكراً وست نسوة فقسمناها على خمس عشرة والصحيح أنهم أحد عشر ذكراً بعد وفاة ابنه عبدالملك.

قال ابن الجوزي: أبلغني أن المنصور قال لعبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنهم عِظني: قال: مات عمر بن عبدالعزيز وخلف ١١ ابناً وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً، كُفّن منها بخمسة دنانير وثمن موضع قبره ديناران وقسم الباقي على بنيه وأصاب كل واحد منهم ١٩ درهماً ومات هشام بن عبدالملك وخلف ١١ ابناً وأصاب كل واحد منهم من تركته ألف ألف ورأيت ولداً من أولاد هشام يتصدق على ولد من أولاد عمر بن عبدالعزيز، الله الله لك يا عمر يا من فضلت الآخرة على الدنيا والزهد على النعيم الزائل فكان ذلك ذخراً لك.

١١- **ثناء الناس على عمر بن عبدالعزيز بعد وفاته**: قال عنه:

أ- **مسلمة بن عبدالملك**: قال له عندما رآه مُسجى: يرحمك الله، لقد ليّنت لنا قلوباً قاسية وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً.

ب- **زوجه فاطمة بنت عبدالملك**: سألها المعزون، كيف كان حاله في بيته؟ قالت: والله ما كان بأكثرهم صلاة ولا صياماً، ولكني والله ما رأيت عبداً لله قط أشد خوفاً لله من عمر .. كان ينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء، ثم يبكي ويرتفع بكاؤه حتى أقول والله لتخرجنّ نفسه فأطرح اللحاف عني وعنه وتقول يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بُعد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها.

ج- **الحسن البصري**: لما أتاه خبر وفاة عمر قال: إنا لله وإنا إليه راجعون يا صاحب كل خير.

د- **مكحول**: ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبدالعزيز.

هـ- **يزيد بن حوشب**: ما رأيت أخوف من الحسن البصري وعمر بن عبدالعزيز، كأن النار لم تخلق إلا لهما.

و- **بكاء الرهبان عليه**: قال الإمام الأوزاعي: شهدت جنازة عمر بن عبدالعزيز ثم خرجت أريد مدينة قنسرين، فمررت على راهب فقال يا هذا: أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل؟ قال: فقلت له: نعم، فأرخى عينيه فبكى سجاماً فقلت له: ما يبكيك؟ ولست من أهل دينه؟ فقال: إني لست أبكي عليه، ولكني أبكي على نور كان في الأرض فطفئ[1].

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي، ص٣٣١.

ز- **ملك الروم وبطارقته:** لما وصله خبر وفاة أمير المؤمنين عمر استدعى بطارقته وقد تغير شكله كأنه في مصيبة فقال لهم ألا تدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا، فقال لهم: إن صاحب مصلحتي التي تأتي العرب الملك الصالح قد مات فما ملكوا أنفسهم أن بكوا فقال لهم ألكم تبكون أو لدينكم أو له؟ قالوا: نبكي لديننا ولأنفسنا وله، قال: لا تبكوا له وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، وقد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يُحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى وقال لم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً[1]. وبعد قوله هذا ما ملك البطارقة أنفسهم أن بكوْا وقالوا نبكي لأنفسنا ولديننا وله.

ما نُسب إليه ﷺ من كرامات عند موته:

يروى عن حسين القصار - وفيه شيء من المبالغة - مررت يوماً براعٍ وفي غنمه نحو ثلاثين من الذئاب حسبتها كلاباً فقلت له يا راعي ما ترجوه بهذه الكلاب كلها؟ فقال له: يا بني إنها ليست كلاباً إنما هي ذئاب، قلت: يا سبحان الله ذئب في غنم لا يضرها. فقال له: يا بني: إذا صلح الرأس فليس على الجسد من بأس هذا وقد رئيت له رحمه الله منامات صالحة وتأسف عليه الخاصة والعامة، لا سيما العلماء والزهاد والعُبّاد.

هذا وقد رثاه عدد من الشعراء من أمثال كثير عزة القائل:

ردّت ضـــائعه عليـــه حياتـــه	فكأنـــه مـــن نشرهـــا منـــشور

ونعاه الشاعر جرير ومما قاله:

بنعـــي النعـــاة أمـــير المـــؤمنين لنـــا	يـــا خـــير مـــن حـــجّ بيـــت الله واعتمـــرا
حملـــت أمـــراً عظـــيماً فاضـــطلعت بـــه	وقمـــت فيـــه بـــأمر الله يـــا عمـــرا
الـــشمس كاســـفة ليـــست بطالعـــة	تبكـــي عليـــك نجـــوم الليـــل والقمـــرا

(١) مروج الذهب، ٣/ ١٩٥.

رحمك الله يا عمر وأعلى ذكرك في الصالحين، لو كنت أملك والأقدار غالبة تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكر.

معالم على الطريق :

وفي ختام حديثنا عن أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز الوردة التي عم شذاها وريحها الطيب جميع أجواء الدولة الإسلامية عن عدله وتقواه وزهده ورده المظالم إلى أصحابها.

ما الذي علمتنا إياه رحلتنا معه عبر حياة حافلة مشحونة بالشفافية الروحية والإنجاز التاريخي الفذ وإرادة التغيير والإصلاح.

علمتنا رحلتنا مع هذا الرجل الربّاني المجاهد كيف يكون الإسلام دافعاً مصلحاً للنفوس التي تتوق إلى العلياء دائماً إلى فوق، اجتياز المواقع والمنازل، كما علمتنا كيف يكون التغيير الداخلي النفسي لتشكيل التاريخ وصياغة العالم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:] وعلمتنا أن الكثير من الذين تحيط بهم مظاهر الحياة الفارغة التافهة، وتحاصرهم من الخارج مغريات من شتى الأصناف، ما داموا يمتلكون خلفية صافية من الفطرة والإدراك والفهم العميق لفك هذا الحصار والتخلص من هذا الترف البراق والانطلاق بكل حرية لعالم القيم والمثل العليا، وعمر ﷺ من أمثال هؤلاء الذين حاصرتهم المغريات من الخارج فحطمها بنفس قوية وثابة منطلقاً إلى القمة.

كما علمتنا روحه الوضاءة المنيرة إن الخوف والإشفاق الدائم من الموت، والعقاب والحب الخالص لله الودود والاعتقاد المتأصل برؤية الله المباشرة لحياة الإنسان الداخلية في أبعد أبعادها، هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها تحويل إرادة التغيير الداخلي إلى عمل وممارسة أخلاقية شديدة المراس. ورغم الترف والغنى والإغراءات وإمكانات الاستجابة لنداءات الشيطان وإجراءاته، لكن نتيجة معرفة قيمة الحياة - واستحضار الآخرة والحب الذي ملك القلب واستولى على الشعور، ذابت هذه الرغبات وتغيرت القيم والأقدار ولولا حذره الشديد من ملاذ الحياة والتمتع بالمباحات، لما استطاع عمر أكبر قادة الأرض في عصره أن يحفظ نفسه من الاندفاع نحو الترف وأن يضرب أعظم الأمثال لأمرائه وعُمّاله في الورع والزهد والابتعاد عن الشبهات.

كما تعلمنا دروساً كيف يكون الإيمان دافعاً حضارياً يقوم بدور المحرك أو الدافع الداخلي الذي يدفع إلى التقدم دوماً بالحضارة نحو آفاق جديدة ومكاسب عن طريق استغلال إمكانات الزمان والمكان إلى أقصى مدى ممكن، ذلك أن الإيمان الراسخ يدعو إلى المزيد من الأعمال والمسارعة في عمل الخيرات، لنيل ثواب الله والنجاة من عقابه ومن خلال دراستنا لحياة هذا الأمير الصالح رأيناه كيف يسارع لتحقيق المنجزات الحضارية في شتى ميادين الحياة رغم قصر مدة خلافته، إنه الإخلاص والخوف الدائم من الله.

كما تعلمنا ما أحدثه هذا الانقلاب في خلافته القصيرة في حياة الناس وأهدافهم من النواحي السياسية، الحربية، الإدارية، الاجتماعية، الاقتصادية، التربوية التثقيفية وتمكنه رضي الله عنه من إعادة التوحد بين الشريعة والواقع، وربطه أجهزة الدولة جميعها بالإطار الذي رسمه القرآن الكريم والسنّة المطهرة وتوجيهه حياة الناس إلى ما يرضي الله ورسوله فرفْرفت راية العدالة وعمّ الرخاء والرفاه أركان دولته حتى أنه لم يوجد من يأخذ الزكاة.

رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى.

الفصل السادس

أمير المؤمنين هشام بن عبدالملك

الاسم والنشأة:

هو هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ويُكنّى «أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي» وأمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل المخزومي.

وُلد بالمدينة سنة ٧٢هـ، تولى الخلافة سنة ١٠٥هـ وهو رابع أولاد عبدالملك وأخرهم، من تولى الخلافة، كان جميل أبيض البشرة، ذو رأي حازم، كان ذكياً مدبراً، ذو حلم وأناة، جماعاً للأموال قال عنه الإمام الذهبي «عاقلاً، حازماً، سائساً، فيه ظلم وعدل»[(١)].

كان يعتقد أنه الأحق بالخلافة بعد سليمان وراغب فيها ورفض رجاء بن حيوة أن يخبره عمن يكون خليفة بعد سليمان.

كان يزيد بن عبدالملك يريد المبايعة للخلافة من بعده لعبدالعزيز بن الوليد بن عبداللك، فلما علم هشام بذلك أرسل إليه أخاه مسلمة لإقناعه بالبيعة لأخيه هشام بولاية العهد ومن بعده الوليد بن يزيد سنة ١٠١هـ وكانت العلاقة بين يزيد وهشام حسنة نسبياً رغم أن يزيد قد ندم لإسناد ولاية العهد لأخيه هشام.

---

(١) سيرة أعلام النبلاء، الذهبي، ٥/ ٣٥٢.

توفي يزيد بن عبدالملك الجمعة لخمس ليالٍ بقين من شعبان سنة ١٠٥هـ وجاء البريد لهشام ببشارتي الخلافة والخاتم وهو بالزيتونة (موقع في بادية الشام قرب حمص) فذهب هشام للرصافة ثم ركب منها إلى دمشق[١].

بويع هشام بالخلافة أول يوم من رمضان سنة ١٠٥هـ على الأرجح.

حياته الخاصة وعلاقته بأقاربه:

قال عبدالله بن علي بن العباس جمعت دواوين بني مروان فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام.

وُصف بالبخل وحُبه لجمع المال، لكنه حقيقة كان شديد المراقبة للمال العام وشديد المحاسبة للمشرفين عليه وصفه بعض الشعراء بالبخل لأنهم اعتادوا على الهبات من خلفاء بني أمية وكان محباً لسماع الشعر وروايته وكان يتقبل الهدايا من الولاة وغيرهم ولم يرَ بذلك إضراراً بمصلحة الدولة، وهذا مخالف لنهج ابن عمه عمر بن عبدالعزيز. وهناك رواية ضعيفة السند بأن هشام كان يشرب الخمر كل يوم جمعة بعد الصلاة ونظن أن هذا اتهام باطل له فقد زجر ولي عهده الوليد بن يزيد على معاقرته للخمر وإدمانه لها ونُسب إليه بيت الشعر التالي:

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى ... إلى بعض ما فيه عليك مقال

ومن صفاته الخاصة: كان جميل الصورة، سميناً، يُخضب بالسواد وبعينيه حَوَل، فسمي بأحول بني أمية يوصف بالحلم ولا يُستغضب بسهولة وإذا أخطأ كان سريع الندم طالباً العفو متقبلاً للوعظ وهو الذي كسا الكعبة من الديباج الثمين. كان له عشرة من الأولاد الذكور وبعض البنات، حاول أن يُحسن تربيتهم فاختار لذلك محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، وكان محدثاً اختاره لتأديبهم وتعليمهم اللغة والشعر وكان هشام يوصي مؤدب ابنه: أن يُعلمه القرآن، ويروه الأشعار وأيام الناس ويأخذه بعلم

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٣/ ٣٠٨.

الفرائض والسنن وكان يصله بأهل الفقه والدين ورغم حرصه هذا فإن بعض أولاده كان سيء السيرة ولم يشتهر أحد منهم بعد سقوط خلافة بني أمية إلا حفيده هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك مؤسس الدولة الأموية في الأندلس.

حاول أن يُحسن تربية أولاده، فقد عاقب أحدهم بمنعه من ركوب الدابة لمدة سنة عقاباً له لعدم حضوره لصلاة الجمعة بحجة موت دابته وكان يحاول أن تكون سمعتهم جيدة بين الناس وكان يحثهم على حضور صلاة الجمعة والجماعة، كما أشرك أولاده في الحروب وقيادة الجيوش واشتهر منهم في هذا الجانب معاوية بن هشام الذي قاد الصوائف عشر سنين كما شارك في قيادة الحملات ضد الروم في عهد والده أكثر من عشر مرات كما شارك في الحروب من أولاده سليمان ومسلمة وسعيد ومحمد.

علاقة هشام بولي عهده الوليد بن يزيد وبآل مروان وأخواله من بني مخزوم:

ظل هشام مُكرماً للوليد حتى ظهر منه مجون وفسق سببه مؤدبه عبدالصمد بن عبدالأعلى، فكتب هشام بإبعاد عبدالصمد عن الوليد، فاستجاب الوليد لرغبة عمه هشام ومحاولة منه لإصلاحه ولاّه رئاسة موسم حج سنة ١١٦هـ، لكنه استمر في لهوه وفسقه، لذا حاول هشام خلعه وتولية ابنه مسلمة مكانه، لكن الوليد رفض خلع نفسه كما رفض أن يكون مسلمة ولياً للعهد من بعده. فعمل هشام سراً للبيعة لابنه فاستجاب له قوم مما أساء العلاقة بين هشام والوليد فأخذ هشام بتعنيفه أمام الناس ورفض هشام نصيحة المحدث الزهري بخلعه خشية الفضيحة، كما نقم الوليد على أولاد هشام من بعده.

ولى هشام أهل بيته قيادة الحملات ضد البيزنطيين فولى أخاه مسلمة القيادة لعدة سنوات كما ولاّه على أرمينيا وأذربيجان مرتين ثم عزله سنة ١١٤هـ. وولى مكانه ابن عمه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم كما أشرك أبناء إخوته في حملات الصوائف وفرضها على من يأخذ العطاء من آل مروان فمنهم من غزا ومنهم من خرج بديلاً، لكنه لم يفضلهم على من سواهم ولكنه زوّج بناته من أبناء عمومتهن وكان بنو مروان يأخذون عطاء الشرف ويحضرون مجلس هشام للسمر معه. وعزل والي العراق خالد القسري لإهانته أحد الأمويين. قضى هشام طفولته في المدينة عند أخواله من بني مخزوم بعد طلاق والدته

وبعد أن استلم الخلافة عيّن خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي مكة والمدينة والطائف سنة ١٠٦هـ كما ذكر ذلك الطبري في تاريخه. وعزله سنة ١١٤هـ عن المدن الثلاث وولى مكة والطائف لخاله محمد بن هشام ثم أضاف إليه المدينة سن ١١٨هـ وكان هشام يميل لأخواله في المدينة.

من حياة هشام الاجتماعية وموقفه من العقائد الباطلة:

كان يراقب ولاته وعُمّاله ليتأكد من حكمهم بالعدل بواسطة عيون له من خبرة الناس، بل كان يتعرض لأفراد الرعية ويسألهم عن قضاء عماله لحوائجهم بل ويحرضهم على المطالبة بحقوقهم ومن حياته الاجتماعية أنه كانت تبنى له السرادقات في مدينة الرصافة ستين ليلة ليرد المظالم للناس وليأخذ على يد من ظلمهم، هذا وقد وكّل رجالاً أدباء عقلاء لإدناء الضعفاء والنساء والأيتام منه، كما كان يستقبل وفود الأمصار فيلبي لهم حاجاتهم ويضع لهم الطعام بنفسه ليأكل منه هو والناس.

ومن ميزاته النبيلة ﷺ أنه إذا نشبت بينه وبين أحد من أشراف رعيته قضية، كان يحضر بنفسه أمام القضاء مع خصمه ويلزم أهل بيته بذلك حتى لو كان خصم أحدهم نصرانياً[(١)].

ومن مواقفه المشرفة مع أبناء رعيته أنه في إحدى السنوات أصاب البادية قحط فقدم عليه وفد من العرب فهابوا أن يكلموه وكان بينهم الشاب الفتى درواس بن حبيب ذوأل ١٦ عاماً حيث وقعت عينا هشام عليه فقال لحاجبه من أراد أن يدخل عليّ فليدخل، فوثب درواس حتى وقف بين يدي الخليفة مطرقاً ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن للكلام طياً ونشراً وأنه لا يُعرف ما في طيّه إلا بنشره فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال له: أنشره لله درك فقال: «يا أمير المؤمنين، إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أدقت العظم وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم فلا تحبسوها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٣/ ٣٩٢.

بها عليهم فإن الله يجزى المتصدقين» فرد هشام قائلاً: ما ترك لنا الغلام في واحدة من الثلاثة عُذراً، فأمر للبوادي بمائة ألف ديناراً وله بمائة ألف درهم ثم قال له: أما لك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في نفسي دون عامة المسلمين، ولقد أعطى هشام لكل ذي حق حقه ويقال إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله.

كان هشام ﷺ يقرب إليه الأذكياء وأصحاب الحكمة والرأي الراجح ومن تقواه أنه ترك جارية بعد أن قالت له أن ابنك فلان اشتراني فكنت عنده، لا يحل لك أن تمسني فاستحسن قولها وتركها وأمرها لابنه. ومن مزاياه أنه يكره تقبيل اليد وكان يشارك في تشييع الجنائز فشارك في تشييع جنازة العالم طاووس بن كيسان واستمر كأمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز في محاربة المذاهب الضالة كمذهب القدرية الذي تبناه غيلان الدمشقي الذي ناظر أمير المؤمنين عمر كما مر معنا سابقاً فأظهر التراجع عن فكره أكثر من مرة وأمسك عن الكلام حتى مات عمر وفي عهد الخليفة هشام استدعاه وقال له: ويْحك ما عندك، إن كان حقاً اتبعناه وإن كان باطلاً رجعت عنه فناظره ميمون بن مهران والأوزاعي، فلما استبان خطؤه وإصراره على ضلالته أمر هشام بقتله[1]. وأمر بنفي أتباعه ولما أحس هشام أنه قد يكون قد أخطأ في قتل غيلان وحاجبه كتب إليه العلامة رجاء بن حيوة فقيه الشام قائلاً: بلغني يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيء من قتل غيلان وحاجبه وأقسم لك يا أمير المؤمنين أن قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم أو الترك.

وظهر في الشام أول من تكلم بخلق القرآن الجعد بن درهم فلما أظهر قوله طُلب إلى الشام فهرب إلى الكوفة حيث حبسه عاملها خالد القسري ثم أمر هشام بقتله فضحى به خالد القسري لقوله ما كلّم الله موسى ولا اتخذ إبراهيم خليلاً وبعد أن خطب خالد بالناس العيد نزل وذبح الجعد[2].

ومن العقائد الباطلة في عهده ما كان يقوله المغيرة بن سعيد وبنان الهندي وهما من غُلاة الشيعة، فقد قال المغيرة بألوهية علي بن أبي طالب وتكفير الشيخين «أبو بكر وعمر»

---

(١) البداية والنهاية، ٣/ ٢٣٥.

(٢) الكامل في التاريخ، ٣/ ٣٩٣.

وسائر الصحابة إلا من ثبت مع علي وكان يؤمن بالسحر والتجسيم للذات الإلهية. وخرج المغيرة وبنان على والي الكوفة خالد القسري فقتلهما حرقاً سنة ١١١هـ وظهر في خراسان عمار بن يزيد «المسمى خداش» والذي دعا إلى خلافة محمد بن علي بن عبدالله بن عباس واستجاب له خلق كثير والتفوا حوله ولما قال بإباحة النساء لبعضهم البعض قطع أمير خراسان لسانه ويده ثم صلبه بعد ذلك.

ومن خصائص حياته الاجتماعية أنه بعد صلاته الغداة كان أول من يدخل عليه صاحب حرسه فيخبره بما حدث في الليل ثم يدخل عليه مَوْليان له مع كل منهما مصحف فيقعد أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره حتى يقرأ جزأه ثم يدخل عليه حاجبه فيقول له فلان بالباب وفلان وفلان فيدخل عليه الناس حتى منتصف النهار ثم يوضع الطعام وترفع الستور ويدخل الناس وأصحاب الحوائج وكاتبه قاعد خلف ظهره فيقول أصحاب الحوائج حوائجهم فيقول: لا ونعم والكاتب خلفه يوقع بما يقول حتى إذا فرغ من طعامه وانصرف الناس ذهب إلى قائلته، فإذا صلى الظهر دعا بكتابه فناظرهم فيما وردهم من أمور الناس حتى يُصلى العصر فإذا صلى العشاء حضر سمارة كالزهري وغيره.

ومن مزاياه الشخصية حبّه للخيل وحلبات السباق وكان يقبل الهدايا من الخيل ومن اهتمامه بالسباقات أصلح الطرق ووسعها لأجل السباقات وكان يفرح لفوز خيله في السباق.

ومن مزاياه أيضاً اطلاعه على الآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخرى، لذا أمر بترجمة كتاب عن تاريخ الفرس، كما تُرجمت كتب الفيلسوف أرسطو اليوناني إلى العربية.

ومن مزاياه أيضاً رفقه بالنصارى ففي عهده دخل البطريق ميخائيل مدينة الإسكندرية في احتفال مهيب وبين يديه الشموع والصلبان والكهنة والأناجيل.

العلماء في عهد هشام بن عبدالملك

قرّب هشام إليه عدداً من العلماء العاملين وكان لهم - كالزهري والأوزاعي وأبو الزناد - تأثير عليه في اتخاذ بعض القرارات فكان للزهري تأثير على سلوك هشام وسيرته وسار سياسة وسط بين سياسة عمر بن عبدالعزيز الإسلامية الخالصة وسياسة الوسط بين

عصبية القبائل القيسية واليمنية ولذلك وصف الإمام الذهبي سياسة هشام بوصف «فيه ظلم مع عدل».

من أشهر العلماء الذين حضروا مجالسه للنصح: عطاء بن رباح، خالد بن صفوان، سالم بن عبدالله بن عمر الذي قال لهشام عندما سأله هشام حوائج الدنيا عنده فقال: «والله ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها»[١] ومن أشهر العلماء في عهد هشام الإمام الزهري.

الزهري:

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري القرشي ومعروف عند العلماء باسم الزهري أو ابن شهاب لغلبتها عليه دون غيره وهو من مواليد المدينة سنة ٥١هـ على الأرجح[٢] في خلافة معاوية وهو من التابعين المعروفين، حفظ القرآن في ثمانين ليلة، تعلم علم الأنساب والسنّة المطهرة وكان على معرفة بالحلال والحرام وانصرف كلية للحفظ والمذاكرة وكان منشغلاً بهما مما أثار زوجته عليه فقالت: «والله إن هذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر»[٣].

من أشهر شيوخ الزهري: سعيد بن المسيب، عروة بن الزبير، عبيد الله بن عبدالله بن عتبة، أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام الذين لازمهم طويلاً[٤].

ارتحل في طلب العلم ووصف بأنه أعلم أهل زمانهم وأجمعهم للعلوم والمعارف وذكر عنه مكحول أنه أعلم أهل زمانه بسنة ماضيه.

اشتهر الزهري في علوم القرآن والفقه والتاريخ وهو من أشهر مؤرخي فترتي ما قبل البعثة النبوية وما بعدها، خاصة حياة النبي ﷺ وسيرته ومغازيه وتوسع فيها كما كان رحمه الله عالماً بعلم الأنساب والأدب وعالماً باللغة عارفاً بمدلولات ألفاظها ومعانيها. قال

---

(١) سيرة أعلام النبلاء للذهبي، ٥/ ٣٥٢.

(٢) الإمام الزهري وأثره في السنة، حارث الضاري، ص٢١-٢٥.

(٣) شذرات الذهب، ١/ ١٩٦.

(٤) الإمام الزهري وأثره في السنة للشيخ حارث الضاري، ص٨٧، ٩٠.

الشعر وكان فصيحاً حاد الذكاء قوي الذاكرة ومن صفاته أيضاً كان كريماً جواداً لا يبارى، كان يُعطي من لا يخشى الفقر ويكرم كرم من لا يهاب القلة جواداً في اليسر والعسر فلم يكن للمال قيمة عنده، وكان يتفنن في سخائه، أثنى عليه سعيد بن المسيب وعمر بن عبدالعزيز ومالك بن أنس.

قام بجهود جبارة في نشر السنّة وإذاعتها بين الناس عن طريق تدريسها ومذاكرتها مع أقرانه ونشرها بالكتابة وإملائها على تلاميذه.

عاصر عدداً من خلفاء بني أمية وكان له عندهم منزلة رفيعة وهو برتبه أمير عندهم كما ذكر الذهبي وكان له الأثر الواضح على استقامة هشام وأسرته وكان له موقف من خلع الوليد بن يزيد عن ولاية العهد لفجوره وفسقه وقال لهشام الذي خشي عزله «إن الله أعدل من أن يُسلط عليّ سفيهاً»، لكنه توفي رحمه الله قبل أن يصبح الوليد خليفة.

اتهمه العالِم الجليل مكحول الدمشقي والإمام أبو حازم سليمان بن دينار بأنه أفسدَ نفسه بصحبه الملوك ولكن الحقيقة أن الزهري كان له شخصية قوية وشعور بالمسؤولية وعنده التقدير لفقه المصالح والمفاسد مما جعله بعيداً عن الوقوع في هذا المحذور وعنده الكثير من المواقف التي تدل على صلابته واتباعه للحق.

توفي ﷺ ليلة الثلاثاء لتسع عشر أو سبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ١٢٤هـ في قرية أدامي على ساحل البحر وقيل توفي بوادي القرى عن ٧١ عاماً قرب أيلة على ساحل البحر الأحمر في ضيعة له هناك وأوصى قبل وفاته أن يُدفن على قارعة الطريق ليدعو له من يمر بهذا المكان من المسافرين.

النظام الإداري والمالي في عهد هشام بن عبدالملك

أولاً: النظام الإداري وعلاقته مع ولاته:

كان النظام الإداري للولايات في خلافته امتداداً للعهود السابقة، كانت الولايات في عهده هادئة بصورة عامة، سوى بعض حركات الخوارج في العراق وثورة زيد بن علي في الكوفة، وانتشار الدعوة العباسية بصمت في خراسان.

أما في الأندلس وما وراءها فكان فيها فتوحات والناس هناك بعيدون عن المنازعات واستقر بعض المسلمين في جنوب فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء.

كانت الدواوين الرئيسية في الشام بيد الخليفة ومعه مجموعة من الكُتّاب اختصوا بديوان الخراج والرسائل والصدقة واسم كاتب الخليفة هشام هو سعيد بن عمرو الأبرش الكلبي وكان له تأثير على قرارات الخليفة، فقد رفض هشام الموافقة على شروط الصلح بين الصغد والمسلمين التي عقدها نصر بن سيار والي خراسان فلما كلمه الأبرش وافق على هذه الشروط.

أما كاتبه على الرسائل فهو بشر بن أبي دلجة الذي يساعد الكاتب الأصلي سالم بن عبدالرحمن مولى سعيد بن عبدالملك، كما استعمل هشام أحياناً أهل الذمة في تسيير شؤون الدواوين.

عيّن هشام والياً على الحرس الربيع بن سابور وعلى الخاتم أيضاً وكان على بيوت المال عبدالله بن عمرو بن الحارث، وولى على الشرطة ولمدة ١٣ سنة كعب بن حامد العبسي ثم ولاه على أرمينيا، كان هشام محباً لمظاهر الأبهة، فكان يحرسه (٨٠٠) فارس نصفهم من الشرط والنصف الآخر من الحرس وكان لا يسمح لأحد أن يسير في موكب إلا أخاه ومستشاره مسلمة بن عبدالملك.

أما ولاية العراق فكانت تضم في عهده ولايتي البصرة والكوفة ويُعين أحياناً أميراً واحداً لهما وكانت واسط بعد تمصيرها مقراً له.

عزل هشام والي العراق عمر بن هبيرة وعيّن مكانه خالد بن عبدالله القسري على العراقيين الذي قتل كما مرّ بنا سابقاً الجعد بن درهم والمغيرة بن سعيد الكذاب وخلف القسري على ولاية العراق وخراسان يوسف بن عمر الثقفي ومن أشهر قضاة البصرة في عهده أبو وائلة إياس بن معاوية بن قرّة المزني الليثي وكان ذكياً صاحب فراسة.

أما ولاة خراسان وبلاد ما وراء النهر فقد عين والي العراق خالد القسري أخاه أسد ابن عبدالله القسري والياً على خراسان سنة ١٠٦هـ ثم استبدله هشام بأشرس بن عبدالله

السلمي ثم عزله هشام وعين مكانه الجنيد بن عبدالرحمن والذي توفي بمرو ودُفن فيها أواخر سنة ١١٥هـ فخلفه عاصم بن عبدالله الهلالي والذي اشتد الصراع في عهده بين القيسية واليمنية فعيّن هشام على ولاية خراسان أسد بن عبدالله القسري الذي بقي والياً عليها حتى وفاته سنة ١٢٠هـ فخلفه نصر بن سيار في رجب سنة ١٢٠هـ وكان أحزم القوم وأعلمهم بالسياسة وكان عفيفاً عاقلاً استمر في ولايته إلى نهاية الدولة الأموية.

أما أرمينيا وأذربجان فعيّن عليها هشام الجراح بن عبدالله الحكمي ثم عزله سنة ١٠٧هـ وعيّن مكانه أخاه مسلمة بن عبدالملك الذي استمر حتى سنة ١١١هـ ثم عزله وأعاد الجراح بن عبدالله الحكمي ثانية حتى استشهد سنة ١١٢هـ فأعاد أخاه مسلمة ثانية، وأرسل معه الجيوش لقتال الخزر وظل حتى سنة ١١٣هـ ثم عزله وعيّن مكانه مروان بن محمد محرم سنة ١١٤هـ واستمر حتى بعد وفاة هشام وجُلّ أعماله محاربة الأعداء.

وفي عهد هشام أصبحت منطقة الموصل ولاية منفصلة عن الجزيرة وتشمل من شمال وشمال شرق الموصل إلى تكريت جنوباً ويحكمها والٍ مستقل يتبع الخليفة مباشرة.

كان والياً على الموصل للخليفة هشام سنة ١٠٥هـ مروان بن محمد وبعده الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم سنة ١٠٨هـ واستمر والياً عليها حتى وفاته سنة ١١٣هـ فخلفه الوليد بن تليد العبسي ثم «أبا قحافة المزني» سنة ١٢٢هـ واستمر حتى موت هشام أما ولاية الحجاز (تضم مكة والمدينة والطائف) فكان والياً عليها عبدالواحد بن عبدالله النضري وبعد عزله خلفه خال الخليفة هشام بن إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي سنة ١٠٦هـ وفي سنة ١١٤هـ عزل الخليفة خاله إبراهيم وخلفه خاله محمد بن هشام المخزومي على مكة المكرمة وأعطى المدينة إلى خالد بن عبدالملك بن الحارث بن الحكم ثم عزله وضم المدينة لخاله محمد سنة ١١٨هـ.

أما ولاية مصر فكان والياًعليها شقيق الخليفة محمد بن عبدالملك بن مروان ثم استبدله هشام بالحر بن يوسف الأموي من سنة ١٠٦-١٠٨هـ ثم خلفه حفص بن الوليد الحضرمي ثم أعيد لولاية مصر عبدالملك بن رفاعة الذي توفي بعد ١٥ يوماً من ولايته

فخلفه أخوه الوليد بن رفاعة وبقي والياً على مصر من سنة ١٠٩ إلى سنة ١١٧هـ حيث توفي فخلفه عبدالرحمن بن خالد، لكن الخليفة عزله بعد أن شكاه الناس للينه وأعاد لولاية مصر حنظلة بن صفوان الكلبي ثانية سنة ١١٩هـ وبقي فيها حتى أرسله الخليفة هشام إلى إفريقيا سنة ١٢٤هـ بعد مقتل كلثوم بن عياض القشيري، وولى مكانه على مصر حفص بن الوليد الحضرمي واستمر بعد موت هشام أياماً.

أما ولاية إفريقيا فكان والياً عليها بشر بن صفوان وخلفه بعد وفاته نفاش بن قرط الكلبي الذي أسرف في إذلال القيسية فخلفه عبيدة بن عبدالرحمن القيسي الذي بطش بمن سبقه من اليمانية وبآل موسى بن نصير وفي سنة ١١٦هـ أرسل والي مصر عبيد الله بن الحباب عمر بن عبيد الله المرادي والياً على طنجة لكنه أساء معاملة البربر مما دعاهم إلى الثورة ودخلت إفريقيا في اضطرابات وصراع حتى انتهى الأمر لصالح الدولة الأموية.

أما بالنسبة لولاية الأندلس: بعد استشهاد عنسبة بن سحيم الكلبي في حروبه داخل فرنسا سنة ١٠٧هـ حدثت خلافات في الأندلس استمرت أربع سنين حتى تولى أمر الأندلس عبدالملك بن قطن الفهري ولما أصبح عبيد الله بن الحباب والياً على إفريقيا عزل عبدالملك بأمر الخليفة هشام وأرسل إلى الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي العبسي الذي استقر في سبتمانيا وفتح بعض أراضي جليقية شمال الأندلس ثم صار إليه أهل الأندلس فخلعوه سنة ١٢٣هـ فتوفي بعد قليل في قرطبة وعاد أميراً عليهم عبد الملك بن قطن الفهري ولما تحرك البربر ضده جاءه من طنجة بلج بن بشر الذي انتصر على البربر في معركة شذونة وبعدها طلب منه عبدالملك الرجوع إلى طنجة فرفض وحدث خلاف بين الطرفين قُتل نتيجته عبدالملك وأصبح بلج أميراً على الأندلس وتوفي بعد عام متأثراً بجراح أصيب بها في معاركه فخلفه ثعلبة بن سلامة، لكن أمير إفريقيا حنظلة بن صفوان بعث إلى الأندلس بأمر من الخليفة أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي.

أما ولاية اليمن:

ولّى عليها هشام يوسف بن عمر الثقفي وظل والياً عليها حتى أصبح والياً على العراق سنة ١٢٠هـ وخلفه على اليمن ابنه الصلت ثم أخاه القاسم.

أما اليمامة فتتبع مباشرة للخلافة ولى عليها هشام المهاجر بن عبدالله بن كلاب وخلفه بعد موته ابنه.

أما علاقة هشام مع ولاته: كان الوالي مسؤولاً عن ولايته يختار لها موظفيها مثل صاحبه الشرطة والقاضي وولاة المدن التابعة له، ولم يتدخل هشام في شؤون الولاة الذين يعينهم إلا عند حدوث مشكلة.

كان هم ولاة الأقاليم محاربة الأعداء للمحافظة على حدود ولاياتهم واستمرار حركة الفتوحات. هذا وقد أدت الصراعات بين العرب والموالي وبين العرب أنفسهم (قيسيين ويمنيين) إلى ضعف مركز المسلمين أمام الأعداء في إقليمي خراسان والأندلس.

أما ولاة الأقاليم الداخلية فكان جُلّ اهتمامهم المحافظة على الأمن والاستقرار وجمع ما يمكن جمعه من الأموال وبذلوا جلّ جهودهم أيضاً في مجابهة حركات المعارضة من ثورات وحركات دعوية سرية.

ثانياً: النظام المالي في خلافة هشام:

تعتبر السياسة المالية في عهد أمير المؤمنين هشام امتداداً لسياسة خلفاء بني أمية ومعارضة للأسف لخطة الإصلاح والتجديد في خلافة عمر بن عبدالعزيز وكانت مصادر بيت المال تتكون من: الجزية، الخراج، الغنائم، الزكاة وغيرها. أما نفقات الدولة فيمثلها: مرتبات الولاة والجنود وموظفي الدولة ومصاريف مشاريع الإصلاح من شق الأنهار وإصلاح الأراضي وهناك أمور هامة تتعلق بالنظام المالي أهمها:

١- عودة الملكية الزراعية إلى ما كانت عليه قبل عهد عمر بن عبدالعزيز: عاد أمراء ووجهاء الدولة الأموية إلى تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة وخاصة في بلاد العراق ومن هذه الملكيات الكبيرة: ملكية مسلمة بن عبدالملك بعد استصلاح أراضي واسعة في بلاد السواد وملكيات خالد القسري التي غلاتها بالملايين وهناك ملكيات الخليفة هشام ولمنتوجاتها تأثير على المستوى العام للأسعار.

٢- **حدوث تدهور زراعي في عهد هشام**: رغم محاولات الدول علاجه بإقامة بعض المشاريع حيث أوصى هشام واليه على البصرة بحفر نهر في وسط المدينة استغرق حفره ١٣ سنة مما أدى لمضاعفة إيراد الدولة من الأراضي الزكوية بعد سقيها من مياه النهر.

ومن مشاريع الإصلاح الزراعي إقامة والي العراق خالد القسري السدود على نهر دجلة وبناء القناطر لمنع الفيضان كما حفر العديد من الأنهار، لكن للأسف كانت معظم الأراضي على ضفافها للوالي وقد أقام مسلمة بن عبدالملك في الجزيرة الفراتية سداً عظيماً على نهر البليخ ونتج عنه آثار إيجابية على التنمية الزراعية وزادت إيرادات بيت المال من الناتج الزراعي.

٣- **إنشاء وتعبيد الطرق وبناء المدن والحصون والأسوار والأسواق.**

٤- **العطاء**: بلغت الدولة الإسلامية في عهد هشام أقصى اتساعها فأصبحت في حاجة ماسة لبناء جيش قوي كبير العدد وحاجة هذا الجيش للمال والسلاح، كان يُعطى في شهر محرم من كل عام أعطيات للجند وهناك عطاء لبني أمية وعطاء لمؤيدي الدولة وخاصة الشعراء خشية ألسنتهم وكان العطاء يعطى لمن يقوم بالغزو ويمنع عمن يؤيد حركات المعارضة ضد الأمويين والخليفة نفسه هو الذي يفرض العطاء أو يمنعه.

٥- **ديوان الأوقاف**: ديوان جديد أنشأه هشام ويسمى أيضاً ديوان الأحباس وأول قاضي في مصر وضع يده على الأحباس هو توبة بن نمر بعد أن كانت من قبل في يد أصحابها أو أوصيائهم وبلغ ديوان الأحباس الأوج سنة ١١٨هـ.

الثورات في عهد هشام بن عبدالملك

أولاً: ثورة زيد بن علي بن الحسين

زيد من رجال الطبقة الثالثة من التابعين ومن مواليد المدينة سنة ٧٨هـ ووالدته جارية سندية (أم ولد) مات ﷺ عن ٤٤ عاماً.

تزوج زيد من ثلاثة نسوة: أربطة بنت أبي هاشم بن عبدالله بن محمد الحنفية، وولدت له يحيى والثانية تزوجها في الكوفة وهي ابنة يعقوب بن عبدالله السلمي والثالثة

هي ابنة عبدالله بن أبي العنبس الأسدي ووالده هو علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب من رجال الطبقة الثانية من التابعين وكبار ساداتهم ديناً وعلماً ومن فقهاء أهل البيت وأفاضل بني هاشم.

نشأ ﷺ وترعرع في المدينة المنورة في بيت علم ودين وكفله بعد وفاة والده أخوه الأكبر محمد الباقر التقي الورع الزاهد وكان علي تقياً ورعاً يخاف الله وهو القائل عن نفسه «والله ما كذبت كذبة منذ عرفت يميني من شمالي ولا انتهكت محرماً لله عز وجل منذ عرفت أن الله يؤاخذني»[1].

وفي هذه البيئة الصالحة التي نشأ وترعرع فيها حفظ القرآن صغيراً وانشغل فيه قال عن نفسه: «لقد خلوت بالقرآن الكريم ثلاث عشرة سنة أقرأه وأتدبره»[2]. توسع ﷺ في التفسير والسنّة وعلومهما وبالفقه والعقائد وأصول الدين واللغة وآدابها وقول شقيقه الأكبر محمد الباقر عندما سئل عنه (سألتني عن رجل مُلئ علماً من أطراف شعره إلى قدميه) وقال عنه أبو حنيفة (شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله فما رأيت في زمانه أفقه ولا أعلم منه، فهو بذلك أحد أعلام مدرسة أهل السنّة والجماعة ومن أشهر شيوخه:

١ - **والده علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب**: وكان عالماً في الحديث والفقه وهو الذي مدحه الشاعر الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة أن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد خُتموا

٢ - **شقيقه الأكبر أبو جعفر الباقر (محمد بن علي بن الحسين)**: المولود سنة ٥٦هـ وهو أحد الأئمة الاثني عشر الذين تبجلهم الشيعة الإمامية، كان إماماً مجتهداً، كبير الشأن

---

(١) الروض النضير، أحمد السباغي، ١/١٢٨.
(٢) الإمام زيد المفترى عليه، السباغي، ص٤٠.

القائل (أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكروك، وإن ذكرت أعانوك، قوّالين بحق الله، قوالين بأمر الله) [1] توفي في المدينة سن ١٠٤هـ.

٣- إبان بن عثمان بن عفان: وهو من فقهاء المدينة العشرة توفي سنة ١٠٥هـ. كان زيد من أهل السنّة والجماعة وقال بذلك ابن تيمية ولم يكن من المعتزلة نفياً لما قاله ابن خلدون والشهرستاني، محمد شاكر الكتبي. خرج زيد بن علي على الأمويين في خلافة هشام بن عبدالملك ومن أسباب خروجه: كان زيد ذو شخصية قوية، شامخاً، لا يقبل الذل والهوان، محباً للعدل وأهله، لكن برزت أسباب دعته للخروج على هشام منها:

١- تأثره بما حدث لأهل بيته من تقتيل وتشريد وتعرضه للإهانة من ولاة هشام ومن هشام نفسه.
٢- لتغير الحكم في العهد الأموي من الشورى إلى حكم المُلك العضوض وما نتج عن ذلك من استخدام للعنف وسفك للدماء لمن يخرج عليهم.
٣- شعوره بالمظالم الواقعة على الناس وانتشار المنكرات في عهد هشام مما اضطره للخروج آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مطالباً برفع الظلم عن الناس وخاصة الموالي الذين استمروا في دفع الجزية رغم إسلامهم.
٤- توفر البيئة المناسبة في الكوفة التي يكثر فيها اتباع أهل البيت القائلين بأحقيتهم بالخلافة.

ما سبق ذكره يعتبر أسباباً عامة لقيام الثورة أما الأسباب المباشرة:

١- عدم قيام هشام بمعرفة حقوق زيد وتحمل ديونه وقضاء حوائجه بل إنه أساء إليه.

٢- عدم استماع هشام لزيد في إحدى خصوماته وعدم إنصافه له واتهام والي المدينة لزيد بأنه سفيه في خصومته مع ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسين بن علي في ولاية وقوف علي حيث كان زيد يخاصم عن بني الحسين بينما جعفر يخاصم عن بني الحسن فلما مات جعفر نازعه عبدالله بن الحسن بن الحسن فتنازعا يوماً بين يدي والي المدينة

(١) شذرات الذهب، ٢/ ٧٢.

خالد بن عبدالملك بن الحارث الذي اتهم زيد بالسفه فذهب زيد لهشام يشكو إليه والي المدينة لما فعله فيه فلم يكترث له هشام ورد عليه ارجع إلى منزلك.

٣- اتهام هشام لزيد أنه يعد للخروج عليه فحقق معه وأغلظ له القول فخرج زيد من عنده متجهاً إلى الكوفة خاصة وأن هشام عيّره بأنه ابن أمة.

مبايعة زيد وفشل ثورته واستشهاده :

خرج زيد من عند الخليفة هشام مستاءً وتوجه إلى الكوفة وأقام فيها مستخفياً، يتنقل بين المنازل أقبلت الشيعة تختلف عليه تبايعه وكان نص بيعته «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ورد المظالم ونصر أهل البيت أتبايعون على ذلك؟ فإذا قالوا نعم وضع يده على أيديهم ويقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ لتفيّن بيعتي ولتقاتلن عدوي ولتنصحنّ لي في السر والعلانية فإذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال: اللهم اشهد». بايعه خمسة عشرة ألفاً وقيل أربعون ألفاً فأمر أصحابه بالاستعداد والتهيؤ فشاع أمره في الناس[1]. هذه هي الأهداف التي قام زيد لتحقيقها، أيدها الإمام جعفر الصادق والإمام «أبو حنيفة» واعترض على خروجه أناس منهم:

١- **عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب**: قال لزيد بخصوص أهل الكوفة أنهم نفخ في العلانية خور في السريرة، جزع في اللقاء تقدمهم ألسنتهم ولا تشايعهم قلوبهم.

٢- **داود بن علي ينصح زيد**: قال لزيد يا ابن عم إن هؤلاء يغرونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعزّ عليهم منك جدّك علي بن أبي طالب حتى قُتل؟ والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه وجرحوه؟ أوَليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له وخذلوه وأسلموه حتى قتلوه؟ فلا ترجع معهم وإني خائف إن رجعت معهم، ومضى داود إلى المدينة تاركاً العراق.

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٣/ ٣٧٥-٣٨٠.

٣- سلمة بن كُهيل: قال له أنشدك الله كم بايعك؟ قال أربعون ألفاً، قال فكم بايع جدّك؟ قال ثمانون ألفاً قال: فكم حصل معه؟ قال ثلاثمائة، قال ننشدك الله أنت خير أم جدك؟ قال جدي .. قال أفتطمع إن بقي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك؟ قال قد بايعوني وحيث البيعة في عنقي وأعناقهم قال: أفتأذن لي أن أخرج من هذا البلد؟ فخرج إلى اليمامة.

استمر زيد في حشد الأنصار وأجهزه أمن الأمويين تتابع الأحداث وكان زيد يتنقل في الكوفة بين بني عبس وبني هند وبني تغلب وغيرهم كما ذكر ابن الأثير، وصل أمر هذا التحرك إلى والي العراق يوسف بن عمر فاستنفر أجهزة الدولة للقضاء على حركة زيد[١].

انشقاق الشيعة الرافضة عن زيد بن علي وغدرهم به واستشهاده سنة ١٢١هـ :

طعن بعض من كان في جيش زيد من الشيعة في أبي بكر وعمر، منعهم زيد وأنكر عليهم ذلك فرفضوا رأي زيد وسموا بـ «الرافضة» وتركوا جيشه ومن بقي معه سموا بـ «الزيدية» ومن هذا الوقت افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية، نكث الرافضة بيعة زيد وقالوا: سبق الإمام (محمد الباقر) وكان قد مات وقالوا جعفر ابنه أمامنا اليوم بعد أبيه فسماهم زيد بالرافضة وأبى زيد ﷺ القدح في أبي بكر وعمر ولو على سبيل التقية وآثر التمسك بالحق على نهج والده زين العابدين بن علي ومن قبله جدهم علي بن أبي طالب في حبه الصادق لأبي بكر وعمر وعثمان.

بعد أن ترك الرافضة جيش زيد بدأ والي الأمويين ابن هبيرة يعمل على استفزاز زيد للخروج بعد معرفته لما حدث معه فقرر زيد الخروج في يوم أربعاء فدعا وقتها ابن هبيرة أهل الكوفة إلى المسجد يوم الاثنين وأغلق عليهم الأبواب وكان يوم برد قارس ومنعهم من الخروج فامضوا ليلتهم مرتجفين من البرد حتى إذا أسرع زيد بن علي إلى تجميع جماعته لم يجد إلا حوالي مائتي رجل[٢].

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري، ٨/ ٥٤، ٥٨.

أقبل زيد بمن معه إلى المسجد وفتح الأبواب لأهل الكوفة فخرجوا واعتذروا عن اللحاق به لما أصابهم من آلام بسبب البرد ووقتها كان جيش الشام متجهاً من الحيرة إلى الكوفة فخرج إليه زيد فقاتلهم بمن تجمع معه قتالاً شديداً إلا أن السهام كانت أقوى منه فانهزم بعد أن أصابه سهم في جبهته وحال الليل بين الفريقين فراح زيد مثخناً بالجراح فاتوا بحجام لنزع نصل سهم من جبهته فلما استخرج نصل السهم مات زيد من ساعته فدفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش وكان الحجام يعرف موضع القبر وحدّده ليوسف بن عمر بن هبيرة الذي استخرج الجثة وبعث برأس زيد إلى الخليفة هشام وصلب جسد زيد[1].

استاء هشام من قتل ابن هبيرة لزيد وكان لا يحب القتل وتوجه يحيى بن زيد بعد مقتل والده إلى خراسان وأقام فيها إلى حين وفاة هشام وتولي الوليد بن يزيد فخرج لكنه سرعان ما قُتل وهكذا فإن هشام قد تسرع في قتله وكان بإمكانه استمالته إلى جانبه.

من أسباب فشل ثورة زيد بن علي:

١- تمكن الجهاز الأمني للأمويين من اختراق التنظيم الثوري لزيد ومعرفتهم لتحركاته ولساعة الصفر المحددة للثورة. مما اضطر زيد لتقديم موعد الثورة والتعجيل بها قبل الموعد المتفق عليه بينه وبين أهل الكوفة.

٢- خيانة الرافضة له وغدرهم وخذلانهم له لرفضه البراءة من الشيخين أبي بكر وعمر فتركوه وهو في حاجة ملحة لهم.

٣- خوف أهل الكوفة وجبنهم أمام التدابير الشديدة لوالي الكوفة ابن هبيرة ومنها حجزهم في المسجد وإغلاقه الباب عليهم في ليلة شديد البرودة فتتخلفوا عن نصرة زيد ونكثوا بيعتهم له.

٤- استخدام ابن هبيرة لجند الشام وإرسال هشام للنجدات العسكرية من الشام للكوفة فكان لهم الدور المهم في القضاء على الثورة.

---

(١) المصدر السابق.

٥- تعجل زيد في إعلانه للثورة قبل نُضجها كما قال الزهري مما أدى إلى مقتله.

٦- كانت الكوفة من المراكز الرئيسية التي اعتمد عليها بنو العباس في نشر دعوتهم فكانت الكوفة في الوقت نفسه مسرحاً لدعوتين تعملان في وقت واحد ولهما هدف مشترك واحد هو خلع بني أمية والبيعة لبني هاشم وتمكن الداعية العباسي وابن عم زيد محمد بن علي بواسطة بُكير بن ماهان أن يُخذل الناس عن زيد فأمر أصحابه بالخروج من الكوفة إلى الحيرة حتى لا ينحازوا في القتال لجانب زيد وبعد مقتل زيد عادوا من الحيرة إلى الكوفة.

٧- امتناع مجموعة من الشيعة الإمامية عن مناصرة زيد بن علي لاعتقادهم بأن محمد بن علي وابنه جعفر أحق بالخلافة من زيد بن علي، لذا لم يشاركوا في ثورة زيد على هشام.

موقف العلماء من ثورة زيد بن علي:

يرى الشيخ محمد أبو زهرة أن ثورة زيد هي ثورة الفقهاء والقرّاء والمحدثين وأهل التقى على الطغيان الأموي، لذا كان محدث الكوفة وواعظها سفيان الثوري إذا ذكر زيد أمامه بكى لما فقده العلم بإصابته وللحقيقة هناك عدد كبير من العلماء لم يؤيد خروج زيد ونصحوه بعد الخروج وهم الأكثر.

من العلماء الذين أيدوا زيد بن علي في خروجه على الخليفة هشام:

أ- **أبو حنيفة النعمان**: فقد صرّح بتأييده لها لكنه لم يشارك في القتال. ولما دعاه زيد للبيعة قال: لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام حق ولكن أعينه بالمال فبعث إليه بعشرة آلاف درهم وقال لرسول زيد: ابسط عذري عنده[١].

ب- **العالِم الجليل منصور بن المعتمر**: كان يحرض الناس على الخروج مع زيد.

من العلماء الذين لم يؤيدوا حركة زيد ونصحوه بعدم الخروج منهم:

أ- ابن عمه عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي.

---

(١) مناقب أبي حنيفة، حافظ الدين الكردي، ص٢٦٧.

ب- سلمة بن كهيل، سبق الحديث عنهما.

ج- الزهري: لما علم بمقتل زيد بكى وقال: أهلك أهل هذا البيت العجلة.

د- قريبه محمد عمر بن علي بن أبي طالب وداود بن علي بن عبدالله بن عباس.

أثر مقتل زيد على الدولة الأموية:

- كان دافعاً لقيام حركات أخرى حيث هرب يحيى بن زيد إلى خراسان وأعلن هناك الثورة على الأمويين إيفاء بوعده الذي قطعه لوالده.
- مهدت ثورتي زيد وابنه يحيى بصور غير مباشرة الطريق للقضاء على الدولة الأموية.
- استغلال العباسيين لتعاطف أهالي خراسان مع يحيى لكسب الأتباع والأنصار لهم وشعار السواد الذي اتخذه العباسيون استمد جذوره من ثورة زيد بن علي وما حدث لابنه يحيى.
- حين قتل يحيى بن زيد ظل أهل خراسان يبكون صباحاً مساءً واستغل ذلك العباسيون.

ثانياً: ثورة البربر في الشمال الإفريقي:

بلغ من ظلم وتعسف والي إفريقيا عبدالله بن الحباب أن استاء منه البربر المسلمون ورأوا التناقض الصارخ بين تعاليم الإسلام سلوك هؤلاء الولاة، فظهرت شعارات من الخوارج ظاهرها فيه بعض الحق وباطنها ينطوي على شر عظيم كالمساواة بين المسلمين ووجوب الخروج على الحكام الظلمة، صادفت هذه الشعارات هوىً في نفوس البربر، وتحمس الكثير من البربر لما نادى به دعاة الخوارج، ولم يعلنوا التمرد والعصيان إلا بعد أن يئسوا من إمكانية إيصال صوتهم بالشكوى إلى دار الخلافة في دمشق. ولما وصل إلى ديارهم دعاة العراق فاستشاروهم شقوا عصاهم وفرّقوا بينهم ثم خرج مسيرة المظفري زعيم الخوارج الصفرية في بضعة عشر إنساناً حتى قدم على هشام وطلب الإذن فصعب عليهم فأتوا الأبرش وزير هشام فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال: تقدموا وأخرّ جنده فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد في الأجر ومثلكم

كفى إخوانه... ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك، ثم إنهم ساومونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنّة ونحن مسلمون فأجبنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا، قال: نفعل، فلما طال عليهم ونفذت نفقاتهم... كان وجههم إلى إفريقيا فخرجوا على والي هشام فقتلوه واستولوا على إفريقيا، وهكذا اندلعت بإفريقيا والمغرب ثورات لا نهاية لها منذ سنة ١٢٢هـ وتظافرت جهود الإباضية والصفرية للإطاحة بحكومة القيروان ولم يتم القضاء على هذه الثورات إلا سنة ١٥٦هـ بعد ٣٧٥ معركة ذهب ضحيتها آلاف القتلى وشارك فيها العلماء مقاتلين وواعظين واستمرت حروب الخوارج هناك أكثر من ثلاثين سنة تمكن الخوارج خلالها من الاستيلاء على القيروان مرتين أولاً الصفرية وثانياً الإباضية.

لما بلغت الخليفة هشام في دمشق أخبار الخوارج وتحركاتهم في إفريقيا ولّى على إفريقيا كلثوم بن عايض القشيري سنة ١٢٣هـ وأمدّه لـ ١٢ ألفاً وخرج معه أهل مصر وأهل برقة وطرابلس وزحف نحو الشمال الإفريقي متوغلاً سنة ١٢٣هـ ولقيه ميسرة من رؤساء الخوارج الصفرية قرب طنجة في جمع كبير من البربر واستماتوا في قتاله حتى هزموا جيشه وقتلوه مما زاد من شوكة الخوارج، استمرت معارك الأمويين في عهد هشام مع خوارج شمال إفريقيا حيث خلف كلثوم بعد مقتله حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤هـ الذي اشتبك مع الخوارج الصفرية بعد استحلالهم أموال أهل السنّة ونسائهم وقتلهم في معركة القرن سنة ١٢٤هـ فهبت ريح النصر على أتباع الدولة الأموية بعد هزيمة الخوارج في معركة القرن وقتل زعيم البربر عبدالواحد بن يزيد من برابرة هوارة.

هذا وقد قامت ثورات متعددة في أنحاء أخرى من الدولة مثل ثورة الحارث بن سريج في بلاد خراسان (لم تنجح) وثورة الصغد في بلاد ما وراء النهر كما قامت في مصر حركات وانتفاضات صغيرة محدودة الأثر بسبب المعاملة السيئة لبعض الولاة للأهالي ومن أسبابها انحراف الخليفة هشام أحياناً عن منهج عمر بن عبدالعزيز الذي كان قد أمر عُمّاله بالعدل بين الناس.

الفتوحات في خلافة هشام بن عبدالملك

لم يحدث في عهده فتوحات واسعة كالتي حدثت في عهد أخيه الوليد بل اقتصرت على قيام غزوات محدودة يتقدم فيها المسلمون ثم يعودون لثغورهم وأهم هذه الأحداث:

أولاً: الجبهة الغربية:

أ- **في بلاد الروم**: استمرت الغزوات على أرض الروم طيلة حكم هشام بن عبدالملك بواسطة حملات الصوافي والشواتي براً وبحراً ومن أشهر قادة هذه الغزوات مسلمة بن عبدالملك، معاوية بن هشام بن عبدالملك وأخوه سليمان بن هشام، عبدالله البطّال، سعيد بن عبدالله، الوليد بن القعقاع العبسي، النعمان بن يزيد بن عبدالملك. ففي سنة ١٠٧هـ غزا معاوية بن هشام الصائفة وكان على جيش الشام ميمون بن مهران الذي قطع البحر إلى قبرص كما فتح مسلمة بن عبدالملك سنة ١٠٨هـ قيصرية ثم رجع عنها للثغور، كما وصل سعيد بن هشام سنة ١١١هـ إلى قيصرية أثناء توغله في أرض الروم، هذا وقد هزم القائد عبدالله البطال قسطنطين وجيشه وأسره، كما رابط معاوية بن هشام سنة ١١٣هـ في ناحية مرعش وفتح قبلها حصن خرشنة.

أما في البحر فقامت غزوات لجزر البحر المتوسط ومن أشهر قادة البحر عبدالله بن عقبة بن نافع وميمون بن مهران وعبدالله بن أبي مريم، هذا وغزا أمير إفريقيا سنة ١٢١هـ جزيرة صقلية بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع وتمكن من فتح مدينة سرقوسة وقبلها سنة ١١٧هـ غزا أمير إفريقيا عبيد الله بن الحبحاب جزيرة سردينانيا سنة ١١٧هـ.

ب- **في الأندلس**: أصبح عبدالرحمن الغافقي والياً على الأندلس للمرة الثانية في خلافة هشام وهو قائد فذ، اشتهر بتقواه وورعه وصلاحه وهو القائل: «لو كانت السموات والأرض رتقاً لجعل الله للمتقين منها مخرجاً».

عبر الغافقي جبال البرانيس أوائل سنة ١١٤هـ في سبعين ألف من جند الإسلام ففتح مدينة آرل ثم بوردو وحقق نصراً ميموناً على الدوق أودو دوق أوكتانيا الذي استنجد بشارل مارتل بعد وصول جيش المسلمين إلى أبواب باريس خلال سبع سنوات

حيث استولوا على مدينة بواتيه ثم تقدموا نحو تور ووقتها قرر شارل مارتل التحالف مع دوق أوكتانيا أودو لمواجهة الخطر الإسلامي فكانت المعركة الحاسمة التي ذكرنا تفاصيلها في كتابنا معارك إسلامية معركة بلاط الشهداء (تور، بواتيه) التي خسرها المسلمون بعد استشهاد قائدهم عبدالرحمن الغافقي (١١٤هـ/ ٧٣٢م) حيث انسحب المسلمون ليلاً إلى الجنوب على عجل. غيّرت نتائج هذه المعركة مجرى التاريخ إلى حد كبير ورغم الخسارة لم يتوقف المسلمون عن مهاجمة فرنسا ولو كتب النجاح للمسلمين فيها لأصبحت فرنسا إسلامية ولوصل المسلمون إلى القسطنطينية من ناحية الغرب.

ثانياً: الجبهة الشرقية:

أ- أرمينيا: كثر غزو أرمينيا وبلاد اللان في خلافة هشام ومن أشهر قادة الغزو في هذه البلاد: الحجاج بن عبدالملك، الجراح بن عبدالله الحكمي، مسلمة بن عبدالملك، الحارث بن عمرو الطائي، مروان بن محمد. صالح الحجاج بلاد اللان على الجزية ولما نقضوا عهدهم غزاهم مسلمة بن عبدالملك وهزمهم سنة ١١٠هـ ولما سار الترك إلى أذربيجان لقيهم الحارث بن عمرو سنة ١١٢هـ وهزمهم فتحركوا من بلاد اللان فلقيهم الجراح الحكمي بمن معه من أهل الشام الذي استشهد هو ومن معه بأردبيل واستولى الترك على أردبيل فوجه الخليفة هشام إليهم أخاه مسلمة في شتاء بارد غزير المطر والثلوج فسار في أثرهم وخلفه الحارث بن عمرو وعاد إليهم مسلمة في العام التالي سنة ١١٣هـ. فقتل وسبى وممن قُتل ابن خاقان الترك فتقدم والده نحو مسلمة إلا أنه هُزم سنة ١١٧هـ فعادوا لدفع الجزية ثم نقضوا العهد فغزاهم سنة ١٢٠هـ إسحاق بن مسلم العقيلي ومروان بن محمد وافتتحوا بلاد السرير ودانوا للمسلمين وأدوا الجزية سنة ١٢١هـ وفي هذا العام توفي مسلمة بن عبدالملك الذي دوّخ الترك.

ب- **بلاد ما وراء النهر**: ما انقطع القتال في هذه البلاد بينهم وبين المسلمين خلال خلافة هشام ومن أشهر القادة المسلمين: أسد بن عبدالله القسري، مسلم بن سعيد، الجنيد بن عبدالرحمن، سعيد بن عمرو الحرثي، نصر بن سيّار.

ج- **بلاد السند**: نشطت حركة الجهاد في هذه البلاد خلال خلافة هشام لإخضاع الولايات الهندية المجاورة ومن أشهر القادة: الجنيد بن عبدالرحمن المري الذي أخضع

إقليم كجرات الهندي بسرعة ونجاح وبعد انتقال الجنيد إلى خراسان أصبح والياً على بلاد السند تميم بن زيد العتبي سنة ١١١هـ لكنه لم يكن في كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد وقامت فتنة بين أهل السند والعرب وبين العرب أنفسهم ولما أشرفت المنطقة على حرب داخلية قرر تميم مغادرة السند إلى العراق لكنه مات في الطريق وخلفه الحكم بن عوانة الكلبي سنة ١١٢هـ الذي أسند قيادة الجيش إلى عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي الذي تمكن من إخماد الفتن فاستقرت الأوضاع وظل الحكم على إمارة السند إلى سنة ١٢٢هـ حيث خرج لإخماد فتنة جديدة في السند ومعه عمرو بن محمد بن القاسم، استشهد الحكم بعد أن حقق جيشه النصر على الأعداء فخلفه عمرو بن محمد والياً على السند فبنى مدينة المنصورة لتكون حصناً للمسلمين عند تعرضهم لأي هجوم، كان عمرو محبوباً عند أهل السند حيث إن والده هو الذي فتح السند ومن الجدير معرفته أنه عند انشغال المسلمين بالجهاد والفتوح تقل الفتن الداخلية وتظهر الفتن والقلاقل حينما يتوقف المسلمون عن الجهاد.

الدروس والعبر والفوائد من الفتوح في خلافة هشام :

١- مشاركة النساء في القتال، عندما نزل الروم على المسلمين في ملطية فذهب هشام بنفسه وحصّنها.

٢- رغبة القادة والجند في الشهادة: استشهد في عهد هشام عدد من القادة البارزين مثل الجراح بن عبدالله الحكمي الذي استشهد عند أردبيل بأرمينيا سنة ١١٢هـ وسور بن الحر التميمي في خراسان سنة ١١٢هـ وعقبة بن سحيم الكلبي في جنوب خراسان سنة ١٠٧هـ وعبدالرحمن الغافقي في معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ ورغم ذلك استمر الجهاد والفتوحات بفضل حب المسلمين للجهاد.

٣- الشورى عند هشام في إدارته العسكرية: استشار هشام وزراءه وخاصة عند استشهاد الجراح وجنده في أرمينيا فاستشارهم فيمن يختاره يخلف الجراح ضد الخزر في أرمينيا (تفعيل مبدأ الشورى).

٤- الدقة في اختيار هشام للعيون لجمع المعلومات والرقابة الإدارية على الولاة والعُمّال والقادة كما اهتم بالبريد وطرقه كوسيلة من وسائل النقل للقادة والعسكر وخاصة في حالة الإمداد العسكري (الرصد والمتابعة).

٥- الاهتمام بالحدود البرية خاصة الثغور لحماية الحدود الإسلامية من هجمات العدو فتمّ إنشاء التحصينات اللازمة، كما زار قادة الثغور الخليفة هشام لتلبية حاجاتهم ورفع معنوياتهم.

٦- الاهتمام بالحدود البحرية، أمر الخليفة هشام بتجديد القواعد البحرية في الساحل الشامي، وتم نقل دار صناعة السفن من عكا إلى صور، وتطوير صناعة السفن بتونس، هذا واستمر في عهد هشام إرسال حملات الصوافي والشواتي كدوريات للمحافظة على السواحل البحرية وشن الهجمات البحرية على سواحل العدو وإيقاع الرعب في صفوفهم (حرب نفسية).

٧- كان للفتوحات في عهد هشام أثر حضاري عن طريق أهل العلم والورع والفضل بدعوة أهل الكفر والبلاد المفتوحة لتعاليم ديننا الحنيف.

وفاة هشام بن عبدالملك وبداية الانهيار :

توفي أمير المؤمنين هشام سنة ١٢٥هـ في الرصافة يوم الأربعاء لست ليال خلون من ربيع الآخر بعد حكم استمر ١٩ سنة هجرية وسبعة أشهر وخمسة أيام.

عند احتضاره نظر هشام في أولاده وهم يبكون عليه حوله فقال لهم: «جاد لكم هشام بالدنيا وجُدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما كسب، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له» وكانت وفاة الخليفة هشام بالذبحة الصدرية.

صلى عليه ابنه مسلمة وقيل ولي عهده الوليد بن يزيد وكان عمره ﷺ عند وفاته بضع وخمسون سنة وقيل إنه جاوز الستين سنة ونقش خاتمه «الحكم للحكم الحكيم».

هذا وبعد سبع سنوات من وفاة الخليفة هشام نجحت الدعوة العباسية وأخذوا الحكم من بني أمية بعد الانتصار على آخر خلفائهم مروان بن محمد في معركة الزاب سنة ٧٥٠م/ ١٣٢هـ.



الجزء الثاني

أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس

تمهيد

كيفية تأسيس الحكم الأموي في الأندلس بعد قيام الدولة العباسية في المشرق

قال ابن حزم الأندلسي وغيره في دولة الأمويين في الأندلس: إن دولة بني أمية في الأندلس كانت أنبل دول الإسلام وأنكاها في العدو، بلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه.

لما نزل ما نزل ببني أمية في المشرق وسقوط دولتهم وقيام دولة بني العباس وقَتَل عبدالله بن علي، مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية سنة ١٣٢هـ، تتبع العباسيون بنو مروان بالقتل حتى ضاقت الأرض بهم فخططوا للهرب والاستتار عن عيون بني العباس. وكان ممن أفلت من قبضة بني العباس عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك الملقب بالداخل والذي تمكن من الخروج من الشام عبر مصر حتى وصل إلى بلاد المغرب ونزل على أخواله من برابرة طرابلس الذين احتضنوه ونصروه ووقفوا لجانبه وكان معه مولاه «بدر».

عبدالرحمن الداخل من مواليد سنة ١١٣هـ وُلد في ديرختان قرب حلب، مات والده معاوية وهو لا يزال طفلاً فكفله جده هشام مع إخوته ورعاهم وربّاهم.

لما اشتدت مطاردة العباسيين لبني أمية تمكن كما قلنا سابقاً عبدالرحمن بن معاوية من الإفلات حيث فرّ بأهله إلى ناحية الفرات من أرض الجزيرة وأم عبدالرحمن أم ولد تسمى

«راح» من قبيلة نفزة البربرية، لما وصلته مطاردة العباسيين ألقى بنفسه ومعه أخ له صغير في نهر الفرات سابحاً، لم يستطع الصغير السباحة فعاد للشاطئ وذبحه العباسيون أمام ناظري أخاه عبدالرحمن الذي لم يستجب لهم بتسليم نفسه ولما كانت نفس عبدالرحمن طموحة، والمغامرة والجرأة عنوان شخصيته المغامرة، اخترق فلسطين ومنها إلى مصر حيث لحق به مولاه بدر وتمام ومعهما بعض المال والجواهر من أخته أم الأُصبغْ ثم تابع سيره إلى برقة حيث منازل أخواله فاستقبلوه وأكرموه وأقام عندهم زمناً دون أن يفصح لهم عن أهدافه وخططه ولما أحس بخطر المطاردة قد اقترب منه نزح إلى المغرب في ظروف قاسية تعرض خلالها لخطر الموت أكثر من مرة. اختفى عند شيخ من البربر يدعى وانوس ثم نزل على قومه من «زناتة» على شاطئ البحر وكان وقتها يدرس أحوال الأندلس ويتعرف على أخبارها ويخطط للعبور إليها. ولما اشتد الصراع في الأندلس بين القبائل المضرية واليمنية أرسل مولاه «بدر» أواخر سنة ١٣٦هـ إلى الأندلس للتعرف على أحوالها عن قرب ولَيُبث دعوته بين أنصاره من بني أمية واجتمع بموالي المروانيين وأشياعهم فبثوا له في الأندلس ونشروا صيته، اتفقت قبائل اليمنية على عبدالرحمن الداخل وبعدها عاد مولاه بدر إلى المغرب ليخبر عبدالرحمن بالخبر.

عبور عبدالرحمن للأندلس:

في شهر ربيع الآخر من سنة ١٣٨هـ عبر عبدالرحمن إلى الأندلس مجتازاً البحر وكان وقتها خليفة على المسلمين في بغداد «أبو جعفر المنصور»، لما وصل عبدالرحمن أرض الأندلس نزل بساحل البيرة حيث استقبله «أبو عثمان بن عبيد الله» وأنزله في قرية طرُّس قرب الساحل فاستقر فيها يضع خططه ويرسم خريطة تحركه.

أتاه قوم من أهل إشبيلية فبايعوه ثم انتقل إلى كورة ديّة فبايعه عاملها عيسى بن مساور ثم مضى إلى شذونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ومضى أخيراً إلى قرطبة فاجتمعت عليه القبائل اليمنية فبلغ شأنه ومكانته والي الأندلس من قِبَل العباسيين يوسف بن عبدالرحمن الفهري الذي كان في غزوة إلى صقلية فعاد يوسف إلى قرطبة لاستشارة زعيم اليمنية الصُميل عما يعملون، تنقل عبدالرحمن في الأمصار فبايعه جنود مدن رندة،

شريش، إشبيلية، كما أقبلت عليه القبائل المضرية، ولم يبقَ مع والي الأندلس العباسي غير الفهرية والقيسية فزحف إليهم عبدالرحمن الداخل إلى ظاهر قرطبة في أول ذي الحجة سَنة ١٣٨هـ.

المعركة «المسارة»:

خرج يوسف الفهري بقواته من قرطبة إلى المسارة في ظاهر قرطبة على ضفة نهر الوادي الكبير من الغرب، أما عبدالرحمن فوصل إلى ضفة النهر الجنوبية وفصل النهر بين الجيشين على مدى ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع التاسع من ذي الحجة يوم الخميس هبط النهر وتأهب الطرفان للحرب وفشل يوسف في عقد الصلح وصمم عبدالرحمن على القتال في اليوم التالي يوم الجمعة (عيد الأضحى).

دفع عبدالرحمن بقواته لاقتحام النهر وأول من اقتحم منهم جند بني أمية، كان يوسف الفهري يتفوق بكثرة فرسانه لكن جنده متفرقون أما عبدالرحمن فكان جنده يضطرمون عزماً وحماسة وقامت بين الفريقين معركة عنيفة انتهت بسرعة حيث مُزقت خيل يوسف وهُزم جيشه هزيمة شديدة وقُتل الكثير من زعماء القيسية والفهرية ولما انكشف يوسف فرّ صوب طليطلة عند ولده عبدالرحمن بينما فرّ الصُميل صوب جيان فدخل عبدالرحمن وصحبه إلى قرطبة دون معارضة وحمى عبدالرحمن أُسر خصومهم وحريمهم وأموالهم من العبث وصلّى الجمعة في المسجد الجامع ثم نزل بالقصر وبويع بالإمارة في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ وبهذا أصبحت الأندلس إمارة إسلامية لا تتبع للخلافة العباسية في المشرق.

ومنذ أن بويع عبدالرحمن بالإمارة في قرطبة فرّ الرجلان الزعيمان يوسف الفهري والصميل بعد معركة المسارة إلى طليطلة وجيان ليحشدا أتباعهما ويستعيدا قوتهما لنزال عبدالرحمن من جديد. اجتمع حول يوسف حوالي عشرين ألفاً من البربر فأرسل إليه عبدالرحمن عبدالملك بن عمر المرواني للقائه ودارت بين الطرفين عدة معارك بين سنة ١٣٨-١٤٢هـ زادت على العشر كان خلالها عبدالرحمن هو المنتصر والرابح في أكثرها، وأخيراً دارت الدائرة على يوسف الفهري حيث اغتاله بعض أصحابه قرب طليطلة فاستتب الأمن واستقر عبدالرحمن في قرطبة وترسخ ملكه هناك.

وفد إلى عبدالرحمن من المشرق جماعة من أهل بيته، وكان وقتها يدعو للخليفة العباسي في بغداد أبو جعفر المنصور ثم أوقف الدعوة له ودعا لتوطيد الدولة الأموية في الأندلس ليعيد أمجاد بني مروان في المشرق ولم يتسمّ بالخليفة بل بالأمير ومات سنة ١٧٢هـ وكان يُعرف باسم عبدالرحمن الداخل وأطلق عليه الخليفة المنصور اسم «صقر قريش» لعظيم ما فعله بالأندلس وقال: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه بحراً».

ولم يتسم أحد من أبنائه من بعده بأمير المؤمنين تأدباً مع الخلافة في عاصمة الإسلام بغداد في المشرق. ولم يتسم بأمير المؤمنين إلا ثامنهم وهو عبدالرحمن الثالث الملقب بالناصر. تمكن عبدالرحمن الداخل بعد قضائه على والي الأندلس يوسف الفهري من استتباب الأمر له وبذلك لشدته وحنكته ودهائه سماه أبو جعفر المنصور بصقر قريش.

وفي سنة ١٤٦هـ توجه والي إفريقيا العلاء بن مغيث الذي اجتمع إليه خلق كثير إلى الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور فتوجه إليه عبدالرحمن ولقيه بنواحي إشبيلية فاقتتلا فانهزم العلاء وقُتل الكثير من أصحابه فارتعب لذلك المنصور وقال: ما هذا إلا شيطان، الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر. كما تغلب عبدالرحمن على الكثير من رؤساء العرب وصانع بعض القبائل وغزا بلاد الإفرنج وعاد منتصراً. مات عبدالرحمن بعد حكم استمر ٣٣ سنة وأربعة أشهر ثم خلفه ابنه هشام.

الفصل الأول

الخلافة الأموية في الأندلس

الخليفة عبدالرحمن بن محمد الثالث

الملقب بـ «الناصر»

(٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م)

الحياة والنشأة:

اسمه عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل وهو ثامن أمراء بني أمية في الأندلس.

وُلد عبدالرحمن في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧هـ، ولد يتيماً بعد مقتل والده محمد بـ ٢١ يوماً على يد أخيه المطرف فتعهده جدّه عبدالله وأفاض عليه من حبه وعطفه ورعايته، توفي الجد عبدالله سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م فظفر حفيده عبدالرحمن بالإمارة التي زهد فيها أعمامه وأعمام أبيه بسبب ما يحيط قرطبة والأندلس من أخطار. وأم عبدالرحمن من سبي الفرنجة نصرانية تسمى «ماريا» أو مزنة وهي أم ولد.

ما كاد عبدالرحمن يبلغ أشده حتى تكشفت مواهبه، أبدى في مستهل حياته امتيازاً وتفوقاً وبرع في النحو والشعر والتاريخ، وأتقن فنون الحرب والفروسية، كما حفظ القرآن ودرس السنّة المطهرة. كان جدّه عبدالله يرشحه لمختلف المهمات أو يُحله محله في المناسبات والأعياد ليُسلمُ الجند عليه. ويقال إن جدّه في مرضه رمى إليه بخاتمه إشارة إلى استخلافه. توفي جده عبدالله ليلة الخميس في مطلع ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ وفوراً بويع عبدالرحمن بالإمارة دون منازع أو طامع حيث إن أعمامه كما ذكرنا كانوا زاهدين في الحكم.

أصبح عبدالرحمن أميراً على قرطبة سنة ٣٠٠هـ وهو ابن ٢٣ سنة وحكم حوالي (خمسون عاماً)، كانت البلاد الأندلسية عند توليه الحكم تفور بالقلاقل والاضطرابات والفتن فمن عربٍ يتنازعون السلطة القبلية (قيسية، مضرية، يمنية) ومولّدين تتجاذبهم نزعاتهم العنصرية، وبربر وخلافهم العشائري ونصارى من أهل البلاد قد ظلوا على دينهم وعقيدتهم يشعرون بالغُبن والتمييز وسوء المعاملة وهناك الممالك النصرانية على الحدود تتأهب لاستعادة ما أُخذ منها في تهديد ووعيد.

بدأ عبدالرحمن الناصر عهده بإصدار منشور عام إلى الثوار المستقلين في مقاطعاتهم، يعدهم بوعود طيبة من مال وسلطان إذا ما عادوا إلى الجماعات والوحدة والطاعة وهدّد من لم يفعل ذلك بالحرب والتشريد ومصادرة الأموال.

سار الكثير منهم إلى الطاعة والخضوع وبايعوه وكان أول من بايعه من أصحاب الأطراف محمد بن عبدالرحمن التجيبي أمير سرقسطة.

استبشر الناس - الذين ملّوا الحرب - الخير بهذا الأمير الشاب الذي دخلت محبته في نفوسهم وبعد شهر من توليه الإمارة أعدّ حملة كبيرة للقضاء على من تبقى من الثوار وخلال هذه الحملة افتتح سبعين حصناً من أمهات الحصون.

وخلال المدة من سنة ٣٠٠ -٣٠٥هـ خضعت له كل المقاطعات واستسلمت كل الحصون والقلاع، واعترف له الثائرون بالسلطان والولاء، وفي سنة ٣٠٥هـ توفي أشهر الثائرين عليه وهو عمر بن حفصون عميد الكافرين ورأس المنافقين ومشعل الفتن وتتبع عبدالرحمن أولاد ابن حفصون حتى قضى عليهم جميعاً واستولى على حصنهم بيشتر فصام وقتها عبدالرحمن شكراً لله تعالى على ما منحه من النصر والظفر.

وفي سنة ٣٢٠هـ توحدت البلاد تحت سلطان عبدالرحمن فخضع له العرب والبربر والمولدين والمستعربين، هذا وتمكن عبدالرحمن من جذب بنو حجاج في إشبيلية له كما أخضع له أمير قرمونة محمد بن إبراهيم بن حجاج.

عبدالرحمن يُعلن نفسه خليفة على الأندلس

أصدر عبدالرحمن في ٢ من ذي الحجة سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م منشوراً عاماً إلى عُمّاله في المقاطعات والمدن الرئيسية يقول لهم فيه: «وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين»، كما أمر بإثبات عبارة «الناصر لدين الله أمير المؤمنين» في أعلامه وطرازه ودنانيره ودراهمه.

واتخذ قراره هذا بعد ضعف الخلافة العباسية في بغداد وقيام الدولة الفاطمية الشيعية في مصر وهكذا تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة واستمر ذلك في ذرية عبدالرحمن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م.

دوافع إعلان عبدالرحمن للخلافة:

١- ضعف الخلافة العباسية في المشرق أيام المقتدر واستبداد القواد الأتراك بها وعجزها عن حماية العالم الإسلامي.
٢- قيام خلافة شيعية فتية معادية في المغرب هي الخلافة الفاطمية التي كانت تخطط لضم الأندلس إليها.
٣- ضعف مكانة الأمير الأموي في قرطبة ورغبته في رفع مكانته ومنزلته السياسية والدينية.
٤- الاستجابة لرغبة أهل الأندلس في أن يكون خليفة للمسلمين عندهم.

قامت الخلافة على أساس التوريث المستند إلى السياسة أولاً ثم إلى الدين ثانياً، لكنها كانت أكثر ديمقراطية من الخلافتين العباسية والفاطمية، حيث يُعتبر الخليفة العباسي أنه سلطان الله على أرضه، بينما يرى الخليفة الفاطمي نفسه إماماً معصوماً من الخطأ ولا يُسأل عما يفعل لكن هذه القداسة التي اتسمت بها الخلافة العباسية والفاطمية لا نجدها في الخلافة الأموية في الأندلس فالخليفة إنسان عادي قد يُخطئ أو يصيب والناس أحرار في نقده وإن استطاعوا عزله عزلوه هذا وقد انتقده وعارضه معارضة شديدة قاضي قرطبة المنذر بن سعيد البلوطي الذي عرّض بالخليفة في مسجد الزهراء بقرطبة لما أنفقه في بناء مدينة الزهراء وصرف عليها جزءاً كبيراً من وقته ومن مال الدولة.

سياسة عبدالرحمن الناصر الخارجية

تتلخص سياسته الخارجية من حيث معالجته لها لأربع قضايا رئيسية هي:

١- الخطر الفاطمي الشيعي في المغرب جنوباً.

٢- خطر الدويلات المسيحية الإسبانية شمالاً.

٣- مقاومة الخطر النورماندي.

٤- العلاقات الدبلوماسية مع ملوك أوروبا.

أولاً: الخطر الفاطمي في الجنوب

يرجع الفضل الأول في نجاح الدعوة الإسماعيلية الشيعية في بلاد المغرب إلى الداعية الشيعي «أبو عبدالله الشيعي» المؤسس الأول للدولة الفاطمية في المغرب.

أصل أبو عبدالله الشيعي من الكوفة، ذهب لليمن وكانت مركزاً هاماً لدعوته، التقى الشيعي في موسم الحج برجال من قبيلة كتامة الذين كان لديهم إلمام بالمذهب الإسماعيلي، دعوه إلى بلادهم لنشر دعوته فاستجاب ونزل عندهم سنة ٢٨٨هـ بنواحي قسنطينة، انقسمت دعوته في المغرب إلى مرحلتين:

الأولى: كانت مجرد دعاية سلمية لجذب الأنصار، استمرت ثلاث سنوات.

الثانية: جهاد طويل انتهى بقيام الدولة الفاطمية، استمر ست سنوات.

النتيجة: انتصر أبو عبدالله الشيعي على الأغالبة ودخل مدينة رقادة ثم القيروان حيث فرّ آخر أمراء الأغالبة زيادة الله الثالث إلى مصر لينتهي حكم الأغالبة في إفريقيا، وبعد ذلك أرسل أبو عبدالله الشيعي وفداً من قبيلة كتامة إلى الإمام الفاطمي «عبيد الله المهدي» المختفي ببلدة السلمية قرب حمص يدعونه للقدوم إلى المغرب هذا وقد وصل عبيدة الله المهدي متخفياً في زي التجار، وصل إفريقيا واستمر في السير غرباً حتى وصل مدينة سلجماسة بالمغرب الأقصى حيث قبض عليه حاكمها اليسع بن مدرار وسجنه ووقتها كان أبو عبدالله الشيعي قد استولى على مدينة القيروان فأسرع بجيوشه إلى

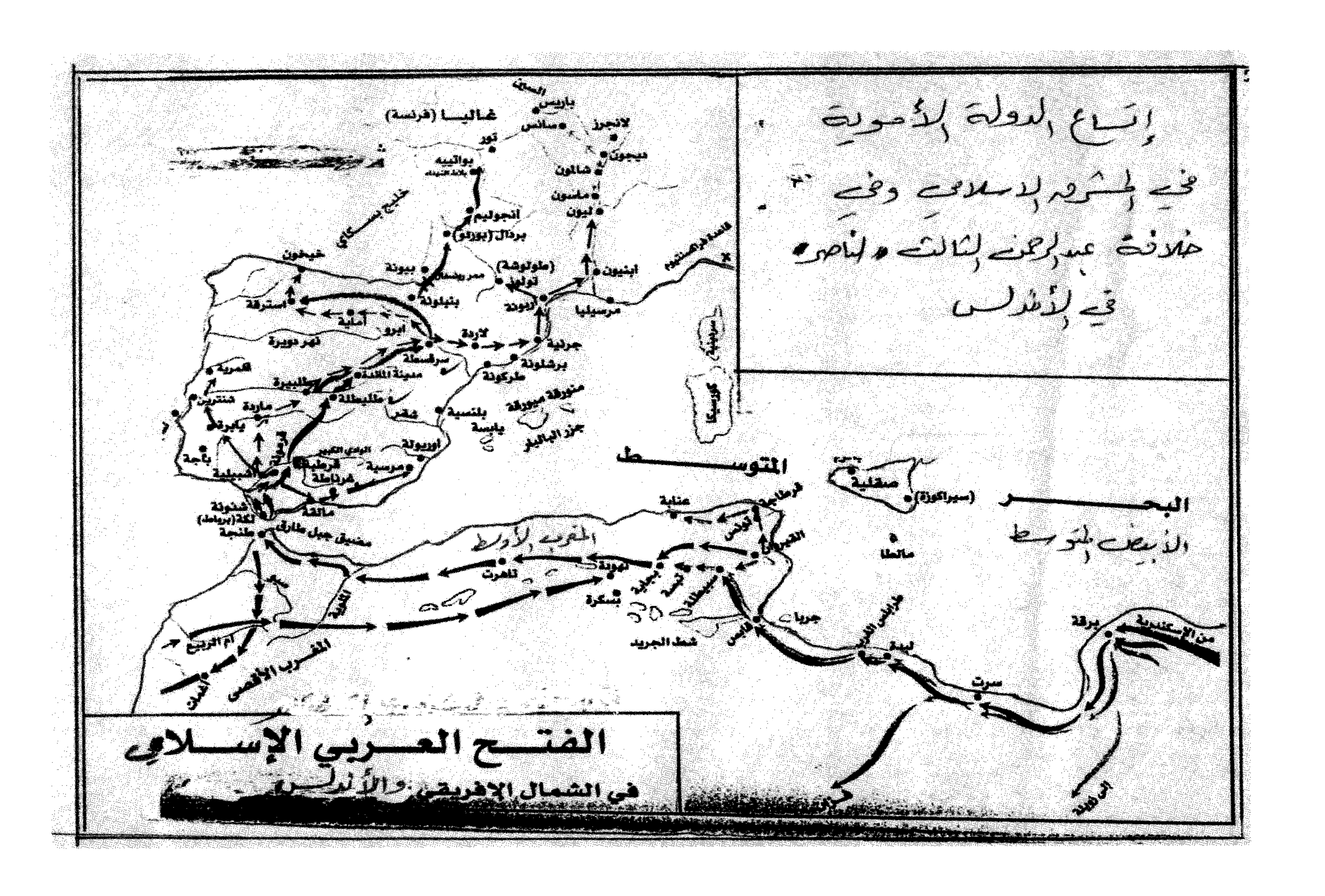
سلجماسة لتخليص سيده واستولى في طريقه على تاهرت عاصمة الدولة الرستمية وأخضعها له سنة ٢٩٦هـ، استمر في سيره فحاصر سلجماسة فقاومه أميرها اليسع الذي هُزم وقتُل وتمكن أبو عبدالله الشيعي من إخراج عبيد الله المهدي من السجن وقال للناس وهو يبكي متأثراً «هذا هو إمامكم» الذي انتقم من يهود سلجماسة لوشايتهم عليه واتخذ من مدينة رقادة عاصمة له سنة ٢٩٧هـ وأقيمت خطبة الجمعة باسم الإمام الجديد، والذي تلقب بالمهدي أمير المؤمنين والذي اغتال أبو عبدالله الشيعي سنة ٢٩٨هـ، لأنه أراد المشاركة في السلطة والتآمر على المهدي فقام جماعة من كتامة وأصحاب أبو عبدالله بثورة ضد المهدي فحاربهم المهدي، حتى خضعت له قبيلة كتامة من جديد، ثم بنى له عاصمة جديدة هي «المهدية» الحصينة، عاصر قيام الدولة الفاطمية هذه في المغرب بداية عصر الخلافة الأموية في الأندلس في عهد عبدالرحمن الناصر. أدى قيام هاتين الخلافتين المتجاورتين على أسس مذهبية مختلفة إلى حدوث صدام بينهما، وهو في الأصل صراع بين السنّة والشيعة وليس بين الأمويين والفاطميين.

هذا وكان في خطة الفاطميين غزو الأندلس، ومهدوا لذلك بالدعاية الشيعية من جهة وبالجاسوسية من جهة أخرى للتعرف على أحوال الأندلس ومواطن الضعف والقوة فيها. قام بهذه المهمة دُعاتهم وجواسيسهم والذين اخفوا تحركاتهم بزي التجارة أو العلم أو السياحة الصوفية، وكانوا على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية.

من بين الجواسيس الذين أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس الرحالة «أبو القاسم بن حوقل النصيبي» المتوفى سنة ٣٦٧هـ. أظهر في تقريره للفاطميين خيرات الأندلس الزراعية والمعدنية وضعف أهلها وعجزهم عن الدفاع عنها، ويحث مولاه المعز لدين الله الفاطمي على غزوها، لكن مشروع ابن حوقل لم يلق التأييد من الحكومة الفاطمية. لم تلق الدعاية الفاطمية لها أنصار في الأندلس إلا بقدر محدود وذلك لقوة المذهب السنّي وتأصله في نفوس الأندلسيين. هذا وقد نجح الفاطميون في ضم بعض الشخصيات الأندلسية إلى صفهم مثل عمر بن حفصون، الذي ثار في جنوب الأندلس ضد الأمويين أواخر القرن ٣هـ واعترف بزعامة الخليفة عبيد الله المهدي الفاطمي ودعائه له في مساجد بلاده وأمدّه المهدي بالذخيرة والأسلحة، رغم أن ابن حفصون لم يكن مخلصاً للدعوة

الفاطمية وإنما اتخذها وسيلة ضد الأمويين في قرطبة كما فرّ من الأندلس الشاعر الأندلسي محمد بن هاني الأندلسي والتحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ومن أقواله في مدح الخليفة الفاطمي ومدى إيمانه بالعقيدة الإسماعيلية.

مـا شـئت إلا مـا شـاءت بـه الأقـدار　　فـاحكم فأنـت الواحـد القهـار


الفتح العربي الإسلامي
في الشمال الإفريقي والأندلس
اتساع الدولة الأموية
في المشرق الإسلامي وفي
خلافة عبد الرحمن الثالث «الناصر»
في الأندلس
البحر
الأبيض المتوسط
المتوسط
غاليا (فرنسا)
باريس
سانس
تور
لانجرز
ديجون
شالون
ماسون
ليون
بواتييه
انجوليم
بردال (بوردو)
بيونة
بنبلونة
تولوز
أربونة
أبنيون
مرسيليا
خليج بسكاي
خيخون
استرقة
أبرو
سرقسطة
لاردة
جرندة
برشلونة
طركونة
نهر دويرة
مدينة المائدة
طليطلة
ماردة
شنترين
يابرة
باجة
بلنسية
شقر
يابسة
جزر البالير
أوريولة
مرسية
غرناطة
قرطبة
الوادي الكبير
إشبيلية
شذونة
مالقة
مضيق جبل طارق
طنجة
كورسيكا
سردينية
صقلية
(سيراكوزة)
مالطا
عنابة
قرطاجنة
تونس
القيروان
سبيطلة
تبسة
بجاية
طبنة
تاهرت
بسكرة
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
أم الربيع
قابس
جربة
شط الجريد
طرابلس
لبدة
سرت
برقة
من الإسكندرية

وكان للفاطميين قوة بحرية منظمة في المغرب وصقلية ورثوها عن الأغالبة، وقاموا على تنميتها وتقويتها ورغم ذلك لم تقف الحكومة الأموية في الأندلس، مكتوفة الأيدي أمام أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس، فكان للأندلسيين عيون ووسطاء منتشرون في أنحاء المغرب وساعدهم في مهمتهم وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربي في طنجة ووهران وعنابّة وبجاية ومرسي الدجاج، وكانت هذه الجاليات متمسكة بالعقيدة السنية وكارهة للمذهب الشيعي.

وأثناء المد الشيعي أصبح حاكماً على الأندلس شاب ذو شخصية قوية هو الخليفة عبدالرحمن بن محمد الناصر لدين الله قام بعدة خطوات للتصدي للنفوذ الفاطمي والعمل على تحجيمه وتقليصه أهمها:

١- **إعلان نفسه خليفة**: أعلن عبدالرحمن الثالث نفسه خليفة وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين في ٢٨ ذي القعدة ٣١٦هـ/٩٢٨م لمقاومة الخلافة الفاطمية والمذهب الشيعي في المغرب فاعتبر الفاطميون هذه الخطوة تعدياً على حقوق أئمتهم ففرضوا قتاله واستحلوا دمه وبعث له بذلك الخليفة المعز الفاطمي.

٢- **تقوية الأسطول الفاطمي**: بذل الناصر لتقوية أسطوله جهوداً جبارة حتى أن عُمّال دور الصناعة لم يجدوا وقتاً للراحة وذلك للدفاع عن سواحل الأندلس ضد أي هجوم فاطمي وأصدر أوامره للأسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق ومنع وصول أية إمدادات إلى الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي اعترف بالخلافة الفاطمية.

هاجم الأسطول الفاطمي بقيادة الحسن بن علي مدينة المرية سنة ٣٤٤هـ فأحرق السفن وسلب المدينة وأسر الكثير من أهلها فرد قائد أسطول الناصر «غالب» بأن أغار بستين سفينة على سواحل إفريقيا سنة ٣٤٥هـ على مرسى الخرز ودمّر كل منطقة سوسة[1].

---

(١) ابن عذري، ٢/ ٣١٨.

٣- تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب: ذهب الخليفة الناصر بنفسه إلى هذه السواحل المواجهة للمغرب للإشراف على الأعمال الدفاعية في طريف والجزيرة الخضراء التي بنى فيها الناصر داراً لصناعة الأساطيل، كما أعلى أسوارها لمحاذاتها لمرسى مدينة سبتة ولأهمية الجزيرة الخضراء كان أميرها من الأسرة الأموية[١].

٤- احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق: استولى الناصر على مدينة مليلة سنة ٣١٢هـ وبنى سورها وجعلها معقلاً لحليفه الزعيم المكناسي موسى بن أبي العافية الذي خلع طاعة الفاطميين، كما احتل مدينة سبتة سنة ٣١٩هـ بقيادة فرج بن عفير وعمل على تحصينها لأهميتها حيث كان يعيش فيها جالية أندلسية كبيرة من أهالي مدينة فلسانة ثم احتل الناصر ثغر طنجة المجاور لسبتة، لكنه فشل في احتلال جزيرة أشقول من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط (الجزائر الآن)، لكنه تمكن من السيطرة على الملاحة في مضيق جبل طارق بعد سيطرته على مليلة وسبتة وطنجة.

عمل الناصر على بث بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب فانضم إليه «بنو إدريس» أمراء العدوة وملوك زناتة كما انضم إليه كما سبق أن ذكرنا المكناس موسى بن أبي العافية، كما عمل الناصر على توطيد علاقاته ببعض الدويلات المغربية رغم مخالفتهم مذهبياً مثل دولة بني رستم الخارجية في تاهرت كما شجع الثائرين على الخليفة الفاطمي مثل أبي يزيد مخلد بن كيداد.

٥- اصطناع ملوك ورؤساء القبائل في المغرب: مثل دولة الأدارسة التي انحصرت بعد المد الفاطمي في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي: البصرة، أصيلا، قلعة النسر بين قبائل غمارة.

كما أيّد الناصر إمارة نكور (بنو صالح السنيّة المالكية) بمنطقة الريف كما حرّض قبيلة زناتة ضد قبيلة صنهاجة حلفاء الفاطميين (انظر الخريطة السابقة).

---

(١) نفح الطيب، ١/ ١٥٧.

٦- تأييد الناصر لثورة «أبو يزيد الخارجي»: أيّد الناصر وشجع جميع الثورات والحركات المعادية للدولة الفاطمية، فأيد ثورة الخوارج في تونس والجزائر بقيادة «أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي» ضد الدولة الفاطمية في عهد الخليفة محمد القائم وولده إسماعيل المنصور، أمّدهم الناصر بالمال والجند مقابل اعترافه بالسيادة الأموية والدعوة للخليفة الناصر في البلاد الخاضعة له، كما أرسل عدة سفارات للناصر من علماء القيروان وفي إحداها ابنه أيوب الذي أكرمه الناصر وأنزله في قصر الرصافة وأمده بمبلغ كبير من المال لدعم مركز والده ضد الفاطميين.

ورغم أن هذه الثورات شكّلت عبئاً خطيراً على الفاطميين إلا أنها انتهت بالفشل بقتل صاحبها سنة ٣٣٦هـ بسبب انضمام قبيلة صنهاجة للفاطميين.

٧- التحالف مع أعداء الدولة الفاطمية من ملوك أوروبا والمشرق:

أ- تحالف الناصر مع ملك إيطاليا دي بروفانس الذي أراد الانتقام من الفاطميين بعد تخريبهم لميناء جنوة.

ب- التحالف مع إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع الذي أراد استعادة جزيرة صقلية من الفاطميين. واستقبل الناصر رسل الروم سنتي ٣٣٤هـ، ٣٣٨هـ بحفاوة بالغة، بينما ادعى الفاطميون بوجود اتفاق حربي مشترك بينهما لمحاصرتهم من الغرب والشرق وهذا مجرد ادعاء.

ج- وطّد الناصر علاقته مع الإخشيديين في مصر وأرسل إليهم عشرة آلاف ديناراً لتوزيعها على علماء المذهب المالكي لمحاربة دعاة الشيعة، وكان رئيس المدرسة المالكية في مصر عالِم أندلسي، المعروف بابن القرطبي أبو إسحاق محمد بن القاسم ومن نتائج سياسة الناصر هذه انصرف الفاطميون عن فتح الأندلس والتوجه لفتح مصر.

ثانياً: الخطر الإسباني المسيحي في الشمال

سبق أن فتح المسلمون كل الأندلس باستثناء المنطقة الشمالية المعروفة باسم جيليقية (غاليسيا) فهي إقليم جبلي وعر، بارد، قاحل لا تُغري الفاتحين وفي هذه المنطقة التي تهاون

المسلمون في فتحها نشأت فيها بؤرة صغيرة وهي حركة المقاومة الإسبانية بزعامة بلاي واتسعت هذه الحركة بعد وفاته خاصة في عهد حفيده «ألفونسو الأول» الذي استولى على ليون وسيطر على جميع المنطقة الشمالية الغربية التي عُرفت لاحقاً باسم مملكة ليون على ضفاف نهر دويرة، وأقام النصارى على حدود المسلمين سلسلة من القلاع والحصون لحماية حدودهم واتحدت هذه القلاع في القرن ٤هـ في إمارة واحدة عُرفت باسم قشتالة (القلاع).

هذا ولم تقتصر حركة المقاومة الإسبانية على قيام مملكتي ليون وقشتالة، بل قامت بؤرة أخرى على سفاح جبال البرتات شرقاً أهمها مملكة نبرة، التي تحكمت في المعابر الجبلية التي تربط إسبانيا بأوروبا وقاعدتها مدينة بمبلونة.

استغلت هذه المالك النصرانية الناشئة انقسامات المسلمين على أنفسهم فانتقلت من الجبال إلى البسائط والسهول المجاورة، وكانت الإمارات من الناحية الشمالية على اتصال مع فرنسا والبابوية والعالم الكاثوليكي مما ساعدهم مادياً وروحياً ضد المسلمين في الجنوب.

لما وصل إلى حكم الأندلس عبدالرحمن الناصر وجد نفسه أمام حلف إسباني قوي يتكون من ملك نبرة شانسوا الأول وملك ليون أوردونيو الثاني الذي استغل حالة تفكك وضعف المسلمين فاحتل بعض الأراضي والمدن الإسلامية واستشهد خلالها عدد من قادة المسلمين مثل القائد أحمد بن عبده سنة ٣٠٥هـ الذي هُزم وقُتل أمام القشتاليين.

حاول ملكيْ نبرة وليون مهاجمة قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين سرقسطة فأحس وقتها الناصر بتطور الموقف لجانب نصارى الشمال، فقام الناصر بنفسه سنة ٣٠٨هـ على رأس جيش كبير واتجه إلى جليقية ونبرة فهدم حصونهم واستعاد بلاداً كثيرة منهم فاستنجد حينها ملك ليون آردن الثاني وشانجة ملك نبرة بملوك المسيحية، انتصر عليهم الناصر انتصاراً حاسماً ووقتها مات الملك آردن الثاني فخلفه أخوه فلويره الثاني والذي مات بعد عام ٩٢٥م فخلفه أخوه أذفونش الرابع (ألفونسو الراهب) (٩٢٥-٩٣١م) والذي تنازل سنة ٩٣١م لأخيه ردميرة الثاني (٩٣١-٩٥١م) وكان ملكاً شجاعاً صلباً،

استمرت الحرب بينه وبين الناصر مدة طويلة وأهم المعارك بينهما موقعة الخندق التي انهزم فيها الناصر هزيمة منكرة (٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) قرب مدينة شنت مانكش بسبب تغير نفوس العرب، لتقديمه الصقالبة عليهم فتركوا المعركة وقُتل القائد نجدة الصقلبي، وفرّ عبدالرحمن الناصر بأقل من خمسين فارساً حيث نجا بأعجوبة وبعدها لم يشارك الناصر الغزو بنفسه.

استمر عبدالرحمن الناصر في حربه وصراعه مع جيوش ليون ونبرة حتى انتصر عليهم، واكتسح الدولتين وأذعن له أعداؤه بالطاعة وهادنوه وبعثوا إليه السفارات والهدايا طالبين الصلح وسافر ساتشو ومعه جدته الملكة طوطة إلى قرطبة فاستقبلهم الناصر في قصر الزهراء استقبالاً حافلاً ثم سيّر معهم جيشاً إلى ليون. فتمكن ساتشو من استعادة عرشه سنة ٣٤٩هـ وهكذا بسط الناصر نفوذه على الشمال المسيحي وقام بالإصلاح بين ملوكهم يولي من يشاء ويعزل من يشاء وخلف الناصر بعد وفاته سنة ٣٥٠هـ ابنه الحكم المستنصر الذي تابع سياسة أبيه إزاء نصارى الشمال (انظر الخريطة).

ثالثاً: الخطر النورماندي:

ذكر ابن العذاري وابن حيان أن الأسطول الأندلسي وقف بالمرصاد للنورمانديين وكبّدهم خسائر فادحة وذلك قبيل خلافة الناصر وفي عهد الناصر لم يقم النورمانديين بغارات بحرية على السواحل الأندلسية واتخذت غاراتهم الطابع البري فهاجموا الثغر الأعلى سرقسطة واستولوا على القلعة الإسلامية بريشتر شمال سرقسطة بعد وفاة الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة ٤٥٦هـ.

رابعاً: علاقات عبدالرحمن الناصر الدبلوماسية مع ملوك أوروبا:

لم تقتصر علاقات أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر الدبلوماسية على ملوك شمال إسبانيا، بل تبادل السفارات والهدايا مع كلٍّ من: إمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع (٩٠٥-٩٥٩م)، وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسية أوتو الكبير (٩٣٦-٩٧٣م)، وتأكيداً لهذه العلاقات ذكر المؤرخ ابن عذارى إلى وصول وفود رسل الإمبراطور البيزنطي إلى العاصمة قرطبة في سنتي (٣٣٤-٣٣٨هـ/ ٩٤٥-٩٤٩م) أثناء حكم

الخليفة الناصر فاستقبلهم على سرير الملك بقصر الزهراء وأثناء دخولهم عليه استوى الناصر على سريره في بهو المجلس، وقعد على يمينه ابنه الحكم كما قعد باقي أولاده عن يمينه ويساره وقعد الوزراء والحجاب على منازلهم صفوفاً، ودهش الضيوف لهول ما رأوه من جلالة الملك وصفق الجميع بين يدي الخليفة ثم أشار إليهم فدفعوا إليه بكتاب ملكهم قسطنطين.

أما بالنسبة للإمبراطور أوتو والعلاقة معه فقد اعتبر أوتو أن الناصر هو المسؤول عن التخريب على سواحل بلاد أوتو الجنوبية، أرسل أوتو رسالة شديدة اللهجة للخليفة الناصر يدعوه للعمل على الحد من أعمال التخريب فردّ عليه الناصر برسالة مماثلة سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م. هذا وبعد أعوام أرسل أوتو الأول رسالة أخرى للناصر مع راهب يدعى جان دي حورز وعند وصوله لقرطبة أُحسن استقباله وأنزل في قصر قرطبة بجوار إحدى الكنائس لكي يمارس شعائره الدينية. ولما وصل إلى الناصر مضمون الرسالة وأنها تتضمن كلاماً فيه إساءة للرسول محمد ﷺ فرفض تسلمها لكنه اضطر أمام إصرار الراهب إلى إرسال سفير من قبله إلى الإمبراطور أوتو لحل هذا الإشكال واختار لذلك رجلاً يتقن العربية واللاتينية معاً هو ريثموندو (ربيع بن زيد) والذي اتجه لمدينة فرانكفورت فاستقبله الإمبراطور أوتو وأكرم وفادته وأجابه لكل ما اقترحه، وأرسل معه مرافقاً وعادا إلى قرطبة فوصلاها سنة ٩٥٦م وبناءً على تعليمات الإمبراطور الجديد تخلى الراهب عن عناده وتنازل عن استصحاب الرسالة فاستقبله الخليفة في احتفال كبير.

وفي النهاية يظهر لنا مدى ما كان لرجال البحر الأندلسيين من نشاط في حوض البحر المتوسط لدرجة جعلت كلاً من إمبراطور بيزنطة وإمبراطور الدولة الرومانية الغربية التوسط لدى خليفة المسلمين في قرطبة كي يحد من نشاطهم البحري، ففي الإسلام القوة والمنعة.

مدينة قرطبة حاضرة الخلافة في عهد الناصر

يعتبر عصر أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بالله هو عصر القمة وأوج الازدهار في جميع نواحي الحضارة الإسلامية في الأندلس، وكانت قرطبة العاصمة المركز الذي تتركز فيه الحضارة فقرطبة أم المدن ومقر الفنون والآداب.

يقول المؤرخ المقريزي عنها في كتابه نفح الطيب: كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ونهرها من أحسن الأنهار، تصدح في جنباتها الأطيار وهي أم المدائن وسُرّة الأندلس وقرارة الملك في القديم والحديث.

تقع مدينة قرطبة على سفح جبل العروس من الجبال السوداء، وتحتل سهلاً فسيحاً يقع بين هذه الجبال والوادي الكبير حيث يُزرع الزيتون ومختلف أنواع الأشجار المثمرة وتمتد عماراتها على الضفة اليمنى لهذا الوادي، تعتمد قرطبة في ثروتها على الزراعة (الزيتون، الفاكهة) كما تشتهر أيضاً بمعادنها الكثيرة (الفضة، الزئبق، حجر التذهب، الرخام).

تاريخها: دخلت قرطبة سنة ٢٠٦ ق.م في فلك الإمبراطورية الرومانية وأصبحت منذ سنة ١٦٩ ق.م عاصمة لإسبانيا الجنوبية وازدهرت في عهد حاكمها الروماني مركوس كلوديوس مرسيلوس والذي أظهرها بالأبنية الرائعة والأسوار المنيعة وظهرت فيها الأسر الرومانية النبيلة، لكن بعد استيلاء الوندال على شبه جزيرة أيبيريا سنة ٤٠٩م أصبحت إشبيلية عاصمة الإقليم. أما قرطبة فأصبحت مركزاً أسقفياً سنة ٥٦٨م كما تفوقت عليها طليطلة في أواخر القرن ٧م حتى طليعة القرن ٨م عندما افتتحها المسلمون سنة ٧١٢م وأصبحت قرطبة داراً للإمارة عندما استقر بها أيوب بن حبيب اللخمي سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م وارتفع مكان قرطبة إلى مصاف الحواضر الكبرى في عهد الوالي السمح بن مالك الخولاني (١٠٠-١٠٢هـ/ ٧١٩-٧٢١م) الذي استأذن أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز في إعادة بناء سورها المنهدم من الغرب فأمره عمر ببناء القنطرة بصخر السور وأن يبني السور باللبن لعدم وجود الصخر لكن السمح استشهد قبل بناء السور فتم بناؤه في عهد الأمير عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) سنة ٧٩٦م.

بدأت قرطبة بالازدهار والتألق بعد أن اتخذها عبدالرحمن الداخل حاضرة له ولأبنائه من بعده، كانت قرطبة من أكبر المدن سكاناً وبلغت في عهد الخلافة الأموية في الأندلس تطوراً عمرانياً لا مثيل له في دول الغرب المعاصرة، التي كانت ترزح في الجهل والظلم، وبلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عصورها في عهد عبدالرحمن الناصر نحو نصف مليون نسمة وفقاً لما قاله المستشرقون، هذا ويُجمع مؤرخو العرب على أن عدد أبواب مدينة قرطبة سبعة أبواب.

المنشآت المعمارية في عهد عبدالرحمن الناصر

يعتبر أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر من أعظم ملوك العالم في العصور الوسطى، اشتهر عصره بالرقي والازدهار الداخلي والهيبة والعلو وارتفاع المكانة في المجال الخارجي والدولي.

من أهم المنشآت في عهد الخليفة الناصر:

أ- بناؤه مدينة الزهراء على بُعد ثمانية كيلومترات شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس رغبةً منه في إقامة مدينة ملكية أو داراً للخلافة السنية وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين واتخذ فيها محلات للوُحش (حديقة حيوان) فسيحة الفناء متباعدة السياج وفيها أيضاً مسارح للطيور مظللة بالشباك واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات (آلات السلاح للحرب والحلي والزينة) وأمر بصنع الظلة (الشمسية) على صحن جامع قرطبة وقاية من حر الشمس.

قال العالِم المؤرخ والجغرافي شريف الإدريسي في وصفها في كتابه المشهور «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وذلك بعد زيارته لها بعد خرابها بمدة قصيرة قال:

«مدينة مدرجة، مدينة فوق مدينة، الجزء الأعلى منها قصوراً والجزء الأوسط بساتين وروضات والجزء الثالث فيه الديار والجامع، وهي الآن عبارة عن خراب، كل قسم من أقسامها الثلاث له سور وأبواب يقول ابن عذارى أن أعمدة الرخام فيها بلغت حوالي ٤٣١٣ سارية منها ١٠١٣ جُلبت من قرطاجة بتونس و ١٤٠ أهداها له ملك بيزنطة وبقية الأعمدة من داخل إسبانيا».

بدأت عملية البناء في سنة ٣٢٥هـ تحت إشراف ابنه وولي عهده الحكم ومهندسها مسلمة بن عبدالله وقد استنفذ بناؤها ثلث إيراد الدولة لمدة ١٧ سنة ولم ينته بناؤها نهائياً إلا بعد أربعين سنة في عهد ابنه الحكم.

انتقل إليها أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، نقل إليها بيت المال ونساؤه وأولاده وخدمه وحراسه، استقبل فيها السفراء بينما ظلت قرطبة العاصمة الرسمية للدولة.

طولها ٥ , ١ كم وعرضها ٣/ ٤ كم وكانت تأتيها المياه من أعلى الجبل في قنوات على بُعد ٨٠ كم مما استلزم نقب الجبل بطريقة هندسية رائعة على شكل عيون في الجبل.

قامت معارضة شعبية على عملية البناء بقيادة قاضي قرطبة المنذر البلوطي ضد عملية إسراف أموال الدولة في بناء مدينة الزهراء مما أغضب الخليفة وأقسم ألا يُصلي الجمعة خلف المنذر أبداً ورغم ذلك لم يعزله. عمّرت الزهراء ستين سنة ثم أصابها الخراب أواخر الدولة الأموية أيام الفتن. وسارت تنمحي شيئاً فشيئاً حتى زالت ولم يُعرف أثرها إلا بعد الحفريات الحديثة.

كانت قرطبة في عهده جامعة عالمية لا نظير لها يرتادها الطلاب من العالم الإسلامي وأوروبا وكانت مركزاً للعلوم والفنون والتراث الفكري والفلسفي (ابن مسرّة).

ب- ومن أعمال الناصر العمرانية أيضاً إعادة بناء مدينة سالم الواقعة على بُعد ١٥٣كم شمال مدريد في الطريق بين مدريد وسرقسطة وجعل منا الناصر ثغراً حربياً لمواجهة إمارة قشتالة الناشئة ثم أصبحت قاعدة للثغر الأوسط إلى جانب طليطلة قاعدة الثغر الأدني وسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى.

ج- مسجد قرطبة الجامع: يقول عنه المؤرخ المصري الدكتور حسين مؤنس في كتابه رحلة الأندلس ص٧٣-٧٤ أضخم عمل معماري قام به العرب في الشرق والغرب على السواء، مساحة الصحن المسقوف عبارة عن ٨٦٨ م٢ وبقية الصحن غير المسقوف مساحته ١٢١٨٩م٢ وعدد السواري (الأعمدة) الباقية إلى اليوم يزيد على (١٢٠٠) سارية ومحرابه من أروع محاريب الجوامع الأثرية الباقية إلى اليوم هذا وقد زاد الخليفة الناصر زيادة مشهودة في مسجد جامع قرطبة الجامع، أقام له صومعة جديدة كبيرة من الحجر (مئذنة) سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م لتصدُّعْ الصومعة القديمة وقد أزال الناصر الصومعة القديمة وجعل للجديدة مطلعين فُصل بينهما بالبناء فلا يلتقي الصاعدون إليها إلا في أعلاها وكان لكل مطلع مائة درجة وسبعة أدراج وطولها ثمانون ذراعاً إلى وقوف المؤذن وفي أعلى ذروة المنارة ثلاث رمانات تخطف الأنظار بشعاعها والتماعها الأولى مفروغة من

الذهب والوسطى من الفضة والثالثة من الذهب أيضاً، وزنة كل رمانة قنطار واحد فما دونه ودائرة كل واحدة ثلاثة اذرع ونصف[1].

هذا وكانت مدينة قرطبة مترامية الأطراف تتصف بكثرة دورها وعظمها فكان عدد دور قرطبة يزيد على ٢١٣٠٧٧ داراً وتشتهر بكثرة حماماتها والتي بلغ عددها في عهد ابن أبي عامر نحو تسعمائة حمام معظمها قرب المسجد.

وفاة أمير المؤمنين عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله:

بعد حياة حافلة بالحركة والعطاء والجهاد ونشر الإسلام توقف هذا القلب العظيم الذي لم يسترح إلا قليلاً، ارتقت هذه الروح إلى بارئها بعد أن أعلى البنيان وانتشر العلم والبيان وعم الرخاء والحضارة أرجاء البلاد.

في شهر صفر الخير سنة ٣٤٩هـ أصابت العلة أمير المؤمنين وكان سببها كما ذكر بعض مؤرخي السير والتراجم برد شديد أصابه فأرجف به فخاف الناس عليه وأكبّ الأطباء على معالجته حتى خفّت وطأة المرض عنه قليلاً وتحامل على نفسه وتجشم القعود للخاصة في الأيام العشرة الأولى من جمادى الأولى فاستبشر الناس لتحسن صحته.

لبث بعد ذلك أشهراً تشتد به العلة حيناً وتخف حيناً وهو يغالب ذلك ويقاومه حتى ضعفت مقاومته ووافاه الأجل في نفس الشهر الذي وُلد فيه شهر رمضان سنة ٣٥٠هـ عن عمر ٧٣ سنة وكان حكمه حوالي خمسين سنة وخلفه ابنه الحكم الثاني المستنصر بالله وكان عمره وقتها ٤٥ سنة وعنده الخبرة الكافية في كيفية إدارة شؤون البلاد.

رحمه الله وأجزل مثوبته جزاء ما أعطى وجاهد وضحى.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٢٨.

الخاتمة

وهكذا أسدل الستار عن الحكم الأموي في المشرق والحكم الأموي في الأندلس، انتهت الدولة الأموية في المشرق بعد حكم استمر حوالي ٩١ عاماً من ٤١-١٣٢هـ حيث تحول الحكم إلى الوراثة وشهدت الدولة الأموية في المشرق مجموعة من الفتن والقلاقل تمكنوا من القضاء على معظمها، كما شهدت الدولة الأموية حركة فتوح واسعة في الشرق في بلاد السند وما وراء النهر وفي الشمال وصلوا إلى داخل حدود الدولة البيزنطية وحاصروا عاصمتها القسطنطينية أكثر من مرة وفي الغرب سيطروا على الشمال الإفريقي والأندلسي ووصلوا في فتوحهم إلى جنوب فرنسا وعلى مقربة من عاصمتها باريس ولو كتب لهم النجاح في معركة بلاط الشهداء لأصبحت أوروبا بل كل أوروبا تحت الحكم الإسلامي، ووصلوا في الجنوب إلى مناطق النوبة والسودان.

كما شهدت الدولة الأموية في المشرق ظهور شخصية الخليفة العادل التقي الورع الذي باع الدنيا من أجل الآخرة شخصية عمر بن عبدالعزيز، والذي في عهده بدأ بجمع وتدوين السنّة الشريفة، وفي سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م انتهت الدولة الأموية في المشرق وقامت مكانها دولة بني العباس والتي قضت على من بقي من أمراء الأمويين حتى قيّض الله للشاب عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك الملقب بالداخل الإفلات من العباسيين والذهاب للشمال الإفريقي عند أخواله البربر ثم الدخول إلى الأندلس وإنشاء الإمارة الأموية في الأندلس والتي تحولت من إمارة إلى خلافة في عهد عبدالرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله والذي شهدت البلاد في عهده الاستقرار وتقدم العلم وظهور العلماء الأفذاذ والتصدي للدولة الفاطمية والإسبان والنورمانديين واستمر الحكم الأموي في الأندلس من سنة ١٣٨هـ إلى سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م وانتهت بعزل آخر خلفاء

الأمويين هشام الثالث المعتد بالله وإجلاء من تبقى من المروانية عن قرطبة وظهور فترة ما يسمى بـ «ملوك الطوائف» من ٤٢٢-٤٧٩هـ ثم دخول المرابطين وبعدهم الموحدين إلى الأندلس وتبيعيتها لهم وانتهى الحكم الإسلامي في الأندلس سنة ١٤٩٢م بسقوط مملكة غرناطة (بنو الأحمر) بقيادة أبي عبدالله الصغير.

المراجع

١- أبطال الفتح الإسلامي، محمد علي قطب، دار الدعوة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢- الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، الدكتور علي محمد الصلاّبي، المجلد الأول، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٣- الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، د. علي محمد الصلاّبي، المجلد الثاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٤- الدولة السفيانية، معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره، د. علي محمد الصلابي، المكتبة العصرية صيدا، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٥- النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الريس، الطبعة السابعة، دار التراث، سنة ١٩٧٩م.

٦- تاريخ الأمم الإسلامية، الشيخ محمد الخضري بك، ج١، الطبعة الثامنة، ١٣٨٢هـ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

٧- الإدارة في العصر الأموي، نجدة خماش، دار الفكر، دمشق، الطبعة أأولى، ١٩٨٠م.

٨- الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، د. لبيد إبراهيم أحمد، رسالة ماجستير، سنة ١٩٨٨.

٩- الأمويون وآثارهم المعمارية في الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وإفريقيا، د. عبدالله كامل عبده، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٠- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، د. محمد ضياء الريس، الطبعة الخامسة، القاهرة، مكتبة دار التراث، ١٩٨٥م.

١١- الخوارج في العصر الأموي، نايف معروف، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة.

١٢- الدولة الأموية المفترى عليها، د. حمدي شاهين، دار القاهرة للكتاب الطبعة الأولى، ٢٠٠١.

١٣- الدولة الأموية والمجتمع في العصر الأموي، د. حمدي شاهين، دار الوفاء، مصر، ٢٠٠١.

١٤- الآثار الواردة عن عمر بن عبدالعزيز في العقيدة، حياة محمد جبريل، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

١٥- الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر بن عبدالعزيز، جامعة اليرموك، الأردن، رسالة ماجستير.

١٦- السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبدالعزيز، بشير كمال عابدين، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن.

١٧- النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبدالعزيز، محمد القحطاني، منشورات جامعة أم القرى، طبعة ١٤١٨هـ.

١٨- سيرة عمر بن عبدالعزيز، ابن الحكم، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١٩- عمر بن عبدالعزيز، صالح العلي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٢٠- عمر بن عبدالعزيز وسياسة رد المظالم، ماجدة فيصل، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢١- ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبدالعزيز، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، الطبعة ٧، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٢- معجزة الإسلام عمر بن عبدالعزيز، خالد محمد خالد، المقطم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٢٣- البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٤- الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق د. عبدالرحمن عميرة، دار اللواء، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٢م.

٢٥- القدرية والمرجئة، ناصر العقل.

٢٦- الكامل في التاريخ، أبو الحسن الشيباني (ابن الأثير) تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٩م.

٢٧- تاريخ الطبري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٨- تاريخ القضاة في الإسلام، د. محمد الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٩- سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.

٣٠- طبقات ابن سعد، دار صادر، بيروت، لبنان.

٣١- ثورة زيد بن علي، ناجي حسن، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٣٢- حركة الخوارج، نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، د. لطيفة البكاري، دار الطليعة بيروت، الطبعة ١، ٢٠٠١.

٣٣- قادة الفتح الإسلامي فيما وراء النهر، اللواء محمود شيث خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٣٥- وفيات الأعيان وأبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
٣٦- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، الطبعة ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ.
٣٧- الوجيز في تاريخ الإسلام والمسلمين، مكتبة دنديس، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، أ. د. أمير عبدالعزيز.
٣٨- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، د. السيد عبدالعزيز سالم، دار المعارف، لبنان.
٣٩- في التاريخ العباسي والأندلسي، د. أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.
٤٠- مناقب أبي حنيفة، حافظ الدين الكردي.
٤١- الأحكام السلطانية، للإمام الماوردي.

فهرس

مقدمة ٥

الجزء الأول
مشاهير خلفاء بني أمية في المشرق الإسلامي

تمهيد: الجذور التاريخية للأسرة الأموية ١٣
الفصل الأول: معاوية بن أبي سفيان ١٥
اسمه ونسبه وكنيته ومولده ١٥
إسلام معاوية وشيء من فضائله ١٦
الأمويون ومعاوية في خلافة أبي بكر الصديق ١٧
الأمويون ومعاوية في خلافة عمر بن الخطاب ١٨
معاوية في خلافة عثمان بن عفان ٢٠
موقف معاوية من الفتنة على عثمان ٢٢
معاوية بن أبي سفيان في عهد أمير المؤنين علي بن أبي طالب ٢٦
أحداث ونتائج معركة صفين سنة ٣٧هـ ٢٧
الدعوة للتحكيم ٣٣
معاوية في عهد الحسن بن علي رضي الله عنهما ٣٦
أهم مراحل الصلح ٣٦
شروط الصلح ٣٨
خلافة معاوية بن أبي سفيان ٣٨
بماذا اتصف معاوية ﷺ ٣٩
ثناء العلماء على معاوية ودخول دولته في خير القرون ٤٥

العلاقة بين معاوية والأمة وهو رئيس لدولة الإسلام ٤٨
السياسة الداخلية لمعاوية ﷺ ٥٣
أولاً: الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم ٥٤
ثانياً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه وتوطينه للأمن ٥٦
ثالثاً: حياة معاوية في المجتمع واهتماماته العلمية ٥٩
رابعاً: الخوارج في عهد معاوية ٦٢
خامساً: النظام المالي في عهد معاوية ﷺ ٦٣
سادساً: القضاء في عهد معاوية والأمويين ٦٨
سابعاً: الشرطة في عهد معاوية ٧١
ثامناً: الولاة والإدارة في خلافة معاوية ٧٣
الفتوحات في عهد معاوية ٧٦
المبحث الأول: حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية ٧٧
المناوشات بين معاوية والبيزنطيين والتخطيط لحصارة القسطنطينية ٧٧
المبحث الثاني: الفتوحات في الشمال الإفريقي ٧٩
حملة معاوية بن خديج ﷺ ٧٩
عقبة بن نافع وفتح إفريقيا ٨٠
عزل معاوية لعقبة تولية أبي المهاجر ثم عزله وعودة عقبة ٨٠
حملة عقبة بن نافع الثانية ٨٢
معركة تهوذة سنة ٦٣هـ واستشهاد عقبة (وأبو المهاجر) ٨٣
المبحث الثالث: فتوحات معاوية في الجناح الشرقي للدولة ٨٦
أولاً: فتوح خراسان وسجستان وما وراء النهر ٨٦
ثانياً: عبيد الله بن زياد ٨٧
ثالثاً: سعيد بن عثمان بن عفان سنة ٥٦ هـ ٨٧
رابعاً: فتوح سلم بن زياد بن أبيه سنة ٥٧هـ ٨٧
خامساً: فتوحات السند في عهد معاوية ٨٨
المبحث الرابع: الدروس والعبر والفوائد في فتوحات معاوية ٨٩
المبحث الخامس: ولاية العهد ووفاة أمير المؤمنين معاوية ٩١
الأيام الأخيرة في حياة معاوية ٩٣
الفصل الثاني: الخليفة عبدالملك بن مروان بن الحكم ٩٥
اسمه ونسبه وكنيته ٩٥

عبادته وعلمه قبيل الخلافة ٩٥
موقفه من عبدالله بن الزبير ٩٦
حياته السياسية قبيل الخلافة ٩٦
من أهم الأحداث التي شهدها قبيل الخلافة وخلالها ٩٦
الصراع بين عبدالملك بن مروان وعبدالله بن الزبير ١٠٢
أسباب سقوط خلافة عبدالله بن الزبير ١٠٦
أهم الأحداث الداخلية في خلافة عبدالملك قبل البدء في الفتوحات ١٠٧
المبحث الأول: القضاء على حركة الخوارج ١٠٨
المبحث الثاني: ثورة عبدالرحمن بن الأشعث ١١٠
معركة الزاوية (قرب البصرة) ١١٢
المعركة الحاسمة (دير الجماجم) سنة ٨٣هـ ١١٣
المبحث الثالث: النظام الإداري في عهد عبدالملك ١١٤
أهم معالم التطوير الإداري في عهد عبدالملك ١١٤
المبحث الرابع: الظام المالي في عهد عبدالملك ١٢٥
أولاً: مصادر دخل الدولة ١٢٦
ثانياً: النفقات العامة ١٢٦
ثالثاً: تطور القطاع الزراعي ١٢٦
رابعاً: تطور التجارة ١٢٨
خامساً: الحرف والصناعات ١٢٩
سادساً: دور صك العملة وتعريب النقد ١٢٩
سابعاً: العمارة والبناء في عهد الخليفة عبدالملك ١٣٠
المبحث الخامس: النظام القضائي والشرطة ١٣٢
أولاً: القضاء ١٣٢
ثانياً: الشرطة ١٣٣
المبحث السادس العلماء والشعراء في عهد عبدالملك ١٣٣
أولاً: العلماء ١٣٣
ثانياً: عبدالملك والشعر والشعراء ١٣٤
المبحث السابع: الفتوحات في عهد الخليفة عبدالملك ١٣٥
أولاً: الفتوحات في بلاد الروم ١٣٦

ثانياً: الفتوحات في الشمال الإفريقي ١٣٧
ثالثاً: فتوحات المشرق ١٣٨
أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد عبدالملك ١٣٩
وفاة أمير المؤمنين عبدالملك ودفنه ١٤١
الفصل الثالث: خلافة الوليد بن عبدالملك بن مروان ١٤٣
الأعمال الحضارية والإنسانية للخليفة الوليد ١٤٤
ديون المستغلات ١٤٦
الوليد والقرآن الكريم ١٤٧
الخليفة الوليد يطلب من الحجاج أن يكتب له سيرته ١٤٧
أم البنين زوجة الوليد ١٤٧
المراسلات بين الوليد وملك الروم ١٤٩
محاولة الوليد نزع ولاية العهد من أخيه سليمان ١٤٩
الفتوح في خلافة الوليد بن عبدالملك ١٥٠
فتوحات المشرق ١٥٢
أولاً: فتوحات محمد بن القاسم الثقفي في بلاد السند ١٥٢
ثانياً: فتوحات قتيبة بن مسلم ١٥٤
ثالثاً: فتوحات موسى بن نصير في الشمال الإفريقي والأندلس ١٥٨
رابعاً: الفتوحات في الشمال بقيادة مسلمة بن عبدالملك ١٦٣
الفصل الرابع: الخليفة سليمان بن عبدالملك ١٦٥
اسمه وصفاته ١٦٥
موقف الخليفة سليمان من قادة الفتوح في عهد أخيه الوليد ١٦٦
سياسة سليمان العامة ١٦٦
سياسة سليمان ﷺ في اختيار الولاة ١٦٧
سياسة سليمان تجاه حركات المعارضة ١٦٨
إكرام سليمان للعلماء واستماعه لنصائحهم ١٦٨
إكرام سليمان لأهل الوفاء ١٧٠
وفاة ابنه وولي عهده أيوب ١٧١
من بعض خصائصه وصفاته ١٧١
الفتوح في عهد سليمان ١٧٢

الفتوح في المشرق ١٧٤
الفصل الخامس: الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز ﷺ ١٧٥
من حياته قبل أن يصبح خليفة للمسلمين ١٧٥
مكانة عمر بن عبدالعزيز العلمية ١٧٦
حياة عمر بن عبدالعزيز ١٧٧
عمر في عهد الوليد بن عبدالملك ١٧٧
عظة مزاحم مولى عمر لعمر ١٧٨
عمر بن عبدالعزيز والحجاج ١٧٨
وضع عمر بن عبدالعزيز في خلافة سليمان بن عبدالملك ١٨٠
خلافة عمر بن عبدالعزيز ومنهجه في إدارة الدولة ١٨١
العدل في دولة عمر بن عبدالعزيز وسياسته في تحقيقه ١٨٣
سياسته في رد المظالم ١٨٤
لجوء (بنو أمية) للحوار الهادئ ١٨٨
الخلاصة ١٩٠
تحقيق عمر لمبدأ المساواة في خلافته ١٩٢
مبدأ الحريات في دولة عمر بن عبدالعزيز ١٩٤
المبحث الثاني: صفات عمر بن عبدالعزيز ومعالم التجديد عنده ١٩٦
أولاً: أهم صفات عمر الشخصية ١٩٦
ثانياً: معالم التجديد عند أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ٢٠٣
المبحث الثالث: اهتمام عمر بن عبدالعزيز بعقائد أهل السّنة ٢٠٥
أهم العقائد التي حرص عمر على تعليمها وبثها بين الناس ٢٠٥
المبحث الرابع: موقف عمر من الخوارج، الشيعة، القدرية، المرجئة، الجهنية ٢٠٧
موقف عمر من الخوارج ٢٠٧
موقفه من القدرية ٢٠٩
المرجئة ٢١١
الجهمية ٢١٢
المعتزلة ٢١٢
المبحث الخامس: حياة عمر الاجتماعية، العلمية، الدعوية ٢١٣
أولاً: الحياة الاجتماعية ٢١٣

ثانياً: عمر بن عبدالعزيز والعلماء ٢١٥
ثالثاً: المدارس العلمية في عهد عمر بن عبدالعزيز وبني أمية ٢١٦
عمر بن عبدالعزيز والفتوح ورفع الحصار عن القسطنطينية ٢٢٠
اهتمام عمر ﷺ بالدعوة الشاملة ٢٢١
المبحث السادس: الإصلاحات المالية في خلافة عمر ٢٢٢
أولاً: أهداف السياسة الاقتصادية عند عمر ٢٢٢
ثانياً: وسائل عمر لتقحيق الأهداف الاقتصادية لدولته ٢٢٢
ثالثاً: سياسة عمر بن عبدالعزيز في الإيرادات ٢٢٣
رابعاً: سياسة الإنفاق العام عند عمر بن عبدالعزيز ٢٢٥
المبحث السابع: المؤسسة القضائية في عهد عمر بن عبدالعزيز ٢٢٦
أولاً: الأقضية والشهادات ٢٢٦
ثانياً: في الدماء والقصاص ٢٢٧
ثالثاً: في الديات ٢٢٧
رابعاً: الحدود ٢٢٧
خامساً: في التعزيزات ٢٢٨
سادساً: في أحكام السجناء ٢٢٨
سابعاً: في أحكام الجهاد ٢٢٨
ثامناً: في النكاح والطلاق ٢٢٨
المبحث الثامن: الفقه الإداري عند عمر ٢٢٩
الولاة ٢٢٩
التخطيط في إدارة عمر ٢٣٠
التنظيم في إدارة عمر ٢٣٠
الوقاية من الفساد الإداري ٢٣٠
المركزية واللامركزية في إدارة عمر ٢٣١
مبدأ المرونة عند عمر في الإدارة ٢٣٢
أهمية الوقت في إدارة عمر ٢٣٢
مبدأ تقسيم العمل في إدارة عمر ٢٣٢
الأيام الأخيرة في حياة أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز حتى وفاته ٢٣٣
ما نسب إليه ﷺ من كرامات عند موته ٢٣٨

معالم على الطريق ٢٣٩
الفصل السادس: أمير المؤمنين هشام بن عبدالملك ٢٤١
الاسم والنشأة ٢٤١
حياته الخاصة وعلاقته بأقاربه ٢٤٢
علاقة هشام بولي عهده الوليد بن يزيد وبآل مروان وأخواله من بني مخزوم ٢٤٣
من حيا هشام الاجتماعية وموقفه من العقائد الباطلة ٢٤٤
العلماء في عهد هشام بن عبدالملك ٢٤٦
الزهري ٢٤٧
النظام الإداري والمالي في عهد هشام بن عبدالملك ٢٤٨
أولاً: النظام الإداري وعلاقته مع ولاته ٢٤٨
ثانياً: النظام المالي في خلافة هشام ٢٥٢
الثورات في عهد هشام بن عبدالملك ٢٥٣
أولاً: ثورة زيد بن علي بن الحسين ٢٥٣
ثانياً: ثورة البربر في الشمال الإفريقي ٢٦٠
الفتوحات في خلافة هشام بن عبدالملك ٢٦٢
أولاً: الجبهة الغربية ٢٦٢
ثانياً: الجبهة الشرقية ٢٦٣
الدروس والعبر والفوائد من الفتوح في خلافة هشام ٢٦٤
وفاة هشام بن عبدالملك وبداية الانهيار ٢٦٥

الجزء الثاني

أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس

تمهيد: كيفية تأسيس الحكم الأموي في الأندلس بعد قيام الدولة العباسية في المشرق ٢٦٩
عبور عبدالرحمن للأندلس ٢٧٠
المعركة ٢٧١
الفصل الأول: الخليفة عبدالرحمن بن محمد الثالث ٢٧٣
الحياة والنشأة ٢٧٣
عبدالرحمن يُعلن نفسه خليفة على الأندلس ٢٧٥
دوافع إعلان عبدالرحمن للخلافة ٢٧٥

سياسة عبدالرحمن الناصر الخارجية ٢٧٦
أولا: الخطر الفاطمي في الجنوب ٢٧٦
ثانياً: الخطر الإسباني المسيحي في الشمال ٢٨٢
ثالثاً: الخطر النورماندي ٢٨٤
رابعاً: علاقات عبدالرحمن الناصر الدبلوماسية مع ملوك أوروبا ٢٨٤
مدينة قرطبة حاضرة الخلافة في عهد الناصر ٢٨٥
المنشآت العمعمارية في عهد عبدالرحمن الناصر ٢٨٧
وفاة أمير المؤمنين عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله ٢٨٩
الخاتمة ٢٩١
المراجع ٢٩٣
الفهرس ٢٩٧